خليفة قعيد

طلاق عاطفي

رواية

هيبورجيوس
للنشر والتوزيع

خليفة قعيد

طلاق عاطفي

رواية

الطبعة الاولى2024
جميع الحقوق محفوظة
978-9969-567-01-4 : isbn
الإيداع القانوني :السداسي الثاني 2024
صنف العمل : رواية
المؤلف: **خليفة قعيد**
العنوان: **طلاق عاطفي**
مديرة الدار: **بويونس عدرة**
مصمم الغلاف: **زكريا رقاب**
البلد: الجزائر

هيبورجيوس للنشر والتوزيع
شارع شيفتزي رقم 3 الطابق الأرضي-عنابة
hipporeguis.edition@gmail.com
0674168924-0657026932

الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

خليفة قعيد

طلاق عاطفي

رواية

هيبورجيوس
للنشر والتوزيع

الفصل الأول

(1)

ينادي عليها عدة مرات وهو في غرفة الاستقبال لكي تأتيه بشيء من حلوى البقلاوة مع كوب من عصير البرتقال وتشاركه مع الأولاد فرحته بترقيته في المدرسة إلى صف أستاذ مستشار. يلاحظ بأنها لم تسمعه وغير آبهة به، منشغلة بشؤون مطبخها الذي تحبه أكثر من أي شيء آخر. لا يهمها الآن إلا جاراتها وصديقاتها اللاتي أبلغتهن منذ أمس بترقيته، وها هي تنتظرهن بفارغ صبر لكي يشاركنها حفلة الفرح ويغرقنها بالتهاني والتباريك على ترقيته ويثنين على مهارتها في صنع حلوى البقلاوة اللذيذة مع أنه المعني الأول بالفرحة والجدير بالتهاني.

عندما لم يظهر طبق البقلاوة الذي ينتظره مع الأولاد في غرفة الاستقبال منذ ساعة تقريبا، تتبدد البهجة من قلبه. يجد نفسه مسجونا مع أبنائه في هذا المكان. يحاول أن يقنع نفسه بأن غرفة الاستقبال ليست غرفة انفرادية في سجن، وإنما هي المكان الأنسب

لراحته في الوقت الحالي، على الأقل، بعيدا عن ضوضاء صديقاتها وجاراتها اللاتي شرعن في اقتحام البيت مثنى وفرادى.

ما هي إلا لحظات وينفلت منه الأولاد إلى حيث أمهم تستقبل ضيفاتها اللاتي بدأت أصواتهن تتعالى مع زمجرة كعوب أحذيتهن على البلاطات. الجدران تم تنظيفها جيدا من قبل ورُشّ البيت بماء معطر، كما وُضعت رقاقات ذهبية على الأرائك وبعض الأثاث الظاهر، وزُيّنت صور أفراد العائلة واللوحات الفنية المعلقة بمواد ملونة فيما تدلت من سقف البهو أشرطة مزركشة من المصابيح الكهربائية الصغيرة المضيئة تشبه تلك التي توضع على شجرة عيد ميلاد السيد المسيح.

يشعر بالسأم والتوتر خاصة عندما بدأت الضوضاء تغزو بقوة أسماعه. يفكر في الهروب إلى أي مكان آخر، ولكنه يخشى على نفسه من قيلِ وقالِ ضيفاتها اللاتي قد يفسرن خروجه من البيت بأنه عدم رغبة منه في حضورهن، بل لعل ذلك يثير حفيظ لويزة التي رتبت لهذا الحفل طويلا ولعدة أيام.

يستسلم للأمر الواقع ويبقى سجين المكان. يجدها فرصة، فيلوذ ببعض كتبه المفضلة التي تصبح لديه المفر الوحيد حينما تلفه الوحدة في غرفة الاستقبال التي تموضعت فيها مكتبته التي يتوسط

رفوفها جهاز التلفاز. يأخذ من أحد الرفوف كتابا حول مهارات التعليم لعلها تفيده بشكل أفضل في توصيل معلوماته إلى تلاميذه. لكنه يرمي به جانبا بعد إحساسه بالملل من كل ما له علاقة بالمدرسة. هنا في بيته هو يبحث عن الراحة مع الزوجة والأولاد ويريد الابتعاد قدر الإمكان عن صخب المدرسة وضجيج التلاميذ.

يفكر في قراءة شيء من الشعر أو أي قصة من القصص، فربما قراءتها تحسّن من مزاجه الهابط إلى حيث لا يدري. يأخذ رواية من الرفّ لعلها تهرب بخياله المتعب بعيدا عن غوغاء البيت. يفتح الصفحة الأولى ثم لا يلبث أن يغلقها سريعا وينتقل إلى وسطها عساه يعثر عما يغريه بقرائتها. حينما لم يجد شيئا يثير انتباهه، أو هكذا بدت له الأشياء في هذا الظرف، يعيدها إلى مكانها في الرفّ ويشغل التلفاز بحثا عن برنامج ترفيهي يطرد عنه ما تراكم عليه من توتر وقلق. يسترعي انتباهه شريط وثائقي عن الأعراس، فيقرر متابعته على مضض. أحيانا، تفسد عليه الضوضاء لحظات التمتع، وأحيانا أخرى، يصفو له الجو، فتثير فيه مشاهد الأفراح ذكريات جميلة يتمنى أن تغلق أسوار قصرها عليه حتى يبقى في قبضة الماضي السعيد بعيدا عن هذا الحاضر المؤلم.

بعد أن تختفي الضوضاء من البيت، يسترد أنفاسه ويعود إليه الهدوء. تلتحق به لويزة منهكة وتدعو الأولاد وهي تضع أمامه كوب عصير البرتقال وطبقا صغيرا مزدانا بحبات البقلاوة، كما تسلمه طبقا متنوعا من الكعك لكي يهديه إلى أصدقائه.

تقول مزهوة بنجاح الحفلة:

- قد هنأني الجميع على ترقيتك. أقصد هنأنا الجميع. كانت حفلة متميزة.

يطفئ التلفازويرد ببرودة:

- **صحيح.. رقص وزغاريد.. كانت الحفلة صاخبة كادت تخرق الجدران وحالت دون قراءتي لأي كتاب أو متابعة برنامجي المفضل في التلفاز.**
- **متوقع ذلك.. فحفلة ترقيتك غطت على كل شيء.**

منذ أن خفت دفء الحب بين لدهم ولويزة، صار لكل منهما عالمه الخاص، هي والمطبخ وصويحباتها من الجارات والقريبات في واد، وهو ومدرسته في واد آخر. أما الأبناء، حياة وجلال وجابر، فقد أضحوا بينهما على حبل بهلوان يعمل كل طرف على جرهم واستمالتهم نحوه.

في عجلة من أمرها، تحاول أن تصف له الحفلة وما جرى فيها. تحدثه وهي في غمرة الانفعال بالفرحة عما تلقته من تهانٍ وهدايا وعن إعجابهن بأطباق حلوياتها خاصة طبق البقلاوة التي تجيد تحضيره. عندما تلاحظ تبلده ولا مبالاته بحديثها، تغمز إلى الأولاد بأن يتبعوها لتنظيف المطبخ وإعادة توضيب أشيائه ووضعها في أماكنها.

يستغل لحظات الوحدة، فيعيد تشغيل التلفاز ويواصل متابعة الشريط الوثائقي.. عرسان في قوة الشباب وعرائس في عمر الزهور يزففن في مواكب بهيجة إلى بيوت جديدة بعيدا عن الأهل لتكوين عائلات وإنجاب البنين والبنات.. العرسان يرتدون برانس وعباءات بيضاء، بعضهم تلف رؤوسهم عمائم بألوان مختلفة بينما رؤوس أخرى عارية بقصات شعر بعضها غريب الأشكال، ويلبسون بدلات مزدانة بربطات عنق جميلة.. مشاهد من مجتمعات أعراسها عصرية ومجتمعات أخرى مازالت أعراسها تقليدية شعبية يرقص كبارها وصغارها على أنغام الزرنة والبندير وإطلاق البارود وألعاب السيوف. في مشهد من المشاهد، تقوم بعض العجائز بأخذ كفي العروس ويضعن عليهما شيئا من الحناء المعجونة بأخلاط من النباتات العطرية، ويقدمن نصائحهن للعروس وسط الزغاريد والأهازيج فيما صويحباتها جالسات إلى جانبها يدعمنها بالابتسامات

ويرسلن نحوها غمزات التعبير عن البهجة وهن منتظرات دورهن لتضميخ أيديهن بالحناء فيما تتعالى الزغاريد من النسوة المتحلقات حول العروس.

تثيره المشاهد، فتغزوه صور شبابه، ويتذكر يوم عرسه. كان يوما مشهودا حينما زفت إليه نجمة الحي. فاز بها على كثير من أقرانه الذين كانوا يطمعون في ودّها والقرب منها. كانت لا تخفي عن صديقاتها البوح بحبها ووعدها بأن لا تكون إلا له. كن ينشرن ذلك في أرجاء الحي حتى يصل صدى حبها إلى أسماع الشباب، فيحسدونه على لويزة وكلهم ألم ومرارة لعدم قدرتهم على الفوز بأجمل فتاة في الحي. لذلك، يبلغ بهم الحقد والحسد بأن ينعتوه في غيابه بالاسم الذي يكرهه "لسود". أما في حضوره، فلا يجرؤ أحد على أن يناديه إلا باسمه الذي يحبه.

لدهم، هذا اسمه، أطلقه عليه والده ولم يعرف معناه إلا عند البلوغ. عندما كان صغيرا اعتاد بعض الصبية أن ينادوه ."يا لسود". كان ذلك يثير سخطه؛ لأن بشرته ليست سوداء فاحمة، ولكنه ذو سمرة فاتحة في شبه كبير بجده المتوفى. حتى والده الذي كان يفترض أن يمنعهم من ذلك، كان قد توفي وتركه صغيرا دون دفاع في حضن والدته.

أمه كانت تخفف عنه من وطأة اسمه عليه بسبب ملاسنات خصومه من الأطفال. قصت عليه بأن لدهم هو اسم جده الأول الذي كان بطلا أسمر وجميلا وفارسا مغوارا في قبيلته حيث دافع عنها ضد الأعداء إلى آخر رمق من حياته مثلما تروي الحكايات، وأن جده الأخير –أب والده- مات وهو يتمنى أن يرى أحد أحفاده يحمل اسم لدهم. قالت له بأن والده نفذ وصية الحفاظ على الاسم، ولكنه فارقهم في ربيع العمر دون أن يرتوي من صورة والده في شخص ابنه. مرة على مرة، كانت حينما تراه وقد تسلل إليه الضعف أمام أقرانه أو عجز عن حمل شيء، تناديه وتردد أمامه بأنه الفارس الأدهم القوي، وأن والده كان يمتلك فرسا ليس ككل الأفراس، وإنما فرس قوي أدهم اللون سريع الركض جيد الرقص في فرق الفنتازيا.

تنتهي لويزة من شغلها وتلتحق به فرارا من وحدتها. على وقع أقدامها وفتح الباب، ينقطع عليه خيط ذكرياته. يروحان معا يتابعان مشاهد الأعراس التي تمر أمامه على شاشة التلفاز.. عرسان وعرائس يزففن إلى أعشاشهن الجديدة على هوادج المهارى.. مشهد يظهر نوعا من حفلات الزفاف الحديثة.. عرائس تزيّن أجسادهن فساتين بيضاء تكشف عن مفاتنهن وهن يتحركن بكبرياء وإغراء وسط الزحمة وأجاج الزغاريد.. على وجوههن مساحيق متنوعة.. كل

قطعة من وجوههن تحمل مسحوقا بلون معين.. للشعر شكل وللخدود ألوان وللعيون أشكال وألوان غريبة من العدسات اللاصقة، وللحواجب ألوان وللأشفار الطويلة الممتدة بزوائد اصطناعية ألوان مختلفة أيضا. والحناء على الأيدي تغدو هي الأخرى بألوان غريبة، سوداء وحمراء وبنية ورسومات عجيبة كالتعاويذ على الأذرع الرقيقة والبدينة..

تخطف بصره إحدى العرائس الجميلات.. فستانها الأبيض الواسع كاشف لمواضع الفتنة في جسدها، وأذياله تلامس أرضية القاعة وهي شادّة عليه بيديها ترفعه للأعلى من حين لآخر حتى لا يعيق مشيتها المتبخترة وهي تتمايل في منصتها الملكية المرصعة بأكاليل الورد والمصابيح ذات الأضواء الملونة. تتحرك إلى وسط القاعة الواسعة المحتشدة بالنساء وضجيج الزغاريد الصاخبة فيما تتناثر الزهور وتُرش العطور مع مواد متطايرة براقة على بعض العازبات والمتزوجات وبعض الأرامل والمطلقات الشابّات اللاتي تشهن بالعروس في اللباس والماكياج، ورحن يقتحمن حلقة الرقص في منافسة للعروس ولبعضهن بعضا تاركات أجسادهن المتمايلة تروي حكايات الغنج والدلال.

يهزه المشهد، فيدور إليها بوجهه:

- لويزة.. ما رأيك بين الأمس واليوم مما تشاهدين؟

- ذاك زمن وهذا زمن آخر!

- ماذا لو نعيد ليلة زفافنا على أنغام هذا الزمن؟

- إنها مستحيلة التكرار. كنا –وقتها- دون أولاد. ولو عدنا إلى ذاك الماضي البعيد، لربما غيّر كل واحد منا مساره في الحياة و اتبع طريقا آخر غير الذي اخترناه معا بعد ما عانى كل واحد منا وعايش عديد المشاكل طوال هذه السنوات.

- تقصدين احتمال أن نفترق، ويتراجع كل منا عن اختيار الآخر، ونندم على ما قضيناه من عمر مع بعضنا بعضا؟

- لا أدري بالضبط.. قلت ذلك حينما كنت ألاحظ خلال عشرتنا الطويلة أن حمى المشاكل بيننا تتضاعف وتصل أحيانا إلى درجة أنك توشك أن تتفوه بأبغض الحلال، أو أن أقوم بخلعك بنفسي من حياتي.

-ومع ذلك، كنا نعود إلى بعض.

لا يعلق كلاهما بشيء عما بدر منهما من كلام يثير المواجع، ويواصلان في برودة تامة ودون أي أحاسيس متابعة صور مواكب الأعراس التي تمر أمامهما على الشاشة مع شعورهما بأشياء

كالدبابيس توخز جسميهما وتحول دون تمتعهما بهذه المشاهد الجميلة أمام عواصف مشاكلهما اليومية التي تزداد زحفا نحوهما.

(2)

يصير أكثر قلقا وتوترا في الأشهر الأخيرة. لم يعد يحتمل كثرة الكلام ولا طول الاستماع لأصدقائه. لذلك، يبدو له المكان في هذا اليوم غريبا على غير العادة، والناس كأنهم قادمون من كوكب آخر، أو لعله وحده من يشعر بهذه الغربة التي تتسلل إليه قليلا قليلا مثل ورم سرطاني. يتساءل في نفسه هل هي الوحدة التي أضحت تطارده وهو في سن الكهولة؟ أم أن به مرضا غير ظاهر يقف وراء كل هذا التوتر والاكتئاب الذي بات ملازما له؟ لا يدري بالضبط ماذا يحصل له..

تصفع وجهه هبات هواء باردة، فينتبه إلى السماء المكفهرة التي تنذر بقرب نزول المطر، فتجعل بعض مترددي المقهى من مدمني تبغ الشيشة ولعبة الدومينو يلتفون أكثر حول بعضهم بعضا فيما آخرون لم يصبروا على لسعات البرد واستنشاق دخان التبغ المتصاعد، فيغادرون إلى بيوتهم. أما هو، فيبقى في طاولته المنصوبة خارج المقهى يحتسي قهوته. هذا أفضل شيء لديه في الوقت الحالي. مرة على مرة، يسحب مع كل رشفة قهوة نفسا طويلا من سيجارته عساه يزداد انتباها ونشاطا. يفكر في هؤلاء الناس الذين ينصرّون أكثر فأكثر تحت ثيابهم ثم يتركون طاولاتهم خارج المقهى ويسرعون إلى داخله هروبا من البرد على ما يبدو.. حتى عابري السبيل الذين

يتحركون أمام عينيه كالنمل على قارعة الطريق ها هم يحثون الخطى نحو بيوتهم في عجلة من أمرهم مع أن الوقت ليس ليلا وموعد النوم مازال بعيدا.

يتحسس جسده. يلمس ذراعيه العاريتين اللتين نبت عليهما شعر كثيف ثم يفرك يديه.. يحتار ويتساءل.. أين البرد؟ لا أشعر بأي برد، بل إن حبات المطر أحسها تتساقط على جسمي دافئة أو تكاد، وهبات الريح ليست قارسة ولا حتى رطبة.. يا ترى ماذا يحصل لي وماذا يتغير في جسمي ونفسي ويجعلني أوشك أن أنزع ثيابي لشدة ما أشعر به من دفء مضاعف يكاد يتحول إلى حرارة شديدة؟

الناس يخلون المكان أمام المقهى إلا هو فيظل ثابتا متسمرا في مكانه تحت زخات المطر والبرد والناس ينظرون إليه باستغراب و اندهاش. تنتابه الهواجس.. لعلني مصاب بارتفاع ضغط الدم دون أن أنتبه إلى ذلك.. لم أعرف من قبل هذا المرض الفاتك الذي يتحدث الناس عن خطورته، فأنا لم أزر طبيبا قط من أجل ذلك..

يصدر زفرة طويلة مع نفاث السيجارة فيتحول الدخان المتصاعد أمام عينيه إلى كومة رمادية كبيرة لم تفتأ تخترقها قطرات المطر فتحولها إلى ما يشبه خيوط نسيج باهت. وسط كومة الدخان المتأرجحة في الهواء ارتفاعا وهبوطا ويمينا وشمالا وأحيانا تتخذ

شكل الدائرة المثقوبة التي تتسع شيئا فشيئا بفعل هبات الريح تتراءى له لويزة، رفيقة العمر، وقد رسم الدخان على وجهها خيوطا داكنة متوازية ومتقاطعة تحاول حجب التجاعيد التي بدأت تغزوها، ولكنها تحتال على إخفائها ببعض المساحيق التجميلية.

يطلق تنهيدة طويلة.. آه يا لويزة.. إننا نهرم بعد أن شدّ الشباب مرابعه إلى الرحيل تاركا مكانه إلى الكهولة الغازية، المكشرة عن أنيابها دون خجل ولا استئذان، متحرشة بنا أمام ضعفنا وعجزنا عن مقاومتها.. لويزة.. من يعيد لنا شبابنا؟ وأنّى لنا بذلك؟ هل دبّ فينا الموت ولم نعد قادرين على أن نعيش مجددا متعة الشباب؟ هل يمكن أن تستعيدي شبابك عروسا كما كنت في ليلة زفافك واسترد أنا فتوتي عريسا مثلما كنت في شبابي؟ كل يوم يتقدم فيه العمر أكثر أشعر بأن الموت يتمدد نحوي.. في نفسي يتناطح ثوران في معركة ضروس ثور الحياة وثور الموت.. في كل مرة يسقط أحدهما على الأرض ولكنه لا يلبث أن يقوم للانتقام والثأر، فيُسقط غريمه الذي يفر من المواجهة بجروحه ويقف غير بعيد ينتظر الفرصة السانحة لكي ينقض من جديد على خصمه..

عندما تزوره ذكريات الشباب، يخالجه الإحساس بالفتوة والعنفوان، وحينما يعود إلى واقعه الذي تتراكم عليه مطبات

الحياة يلفه الشعور بالعجز وقلة الحيلة أمام الكهولة الزاحفة التي لا يملك أمامها لا حول ولا قوة. يردد في نفسه.. لويزة، تدبري معي الأمر.. هل من فرصة متبقية في آخر العمر نستعيد من خلالها شبابنا من جديد؟ أعرف أنك لا تستطيعين التفكير، ولو مجرد التفكير، في هذا الأمر؛ فلطالما رددت أمامي وأمام الأولاد أن قطار الحياة لن يعود إلى الوراء ولا بد أن يظل مسرعا في طريقه ولم يعد أمام محطته الأخيرة سوى مسافة قليلة..

يخاطبها في صمت.. قد لا تشعرين بالحاجة مثلي إلى شبابي لأصحح الكثير من أخطاء هذا العمر الفاني.. لا أدري يا لويزة.. ربما يكون الحل في إعادة الزواج بامرأة أخرى شابة عساها تعيد إلي شبابي المندثر؟ و أنت يا لويزة ما دمت مصرة على البقاء في قوقعتك كدودة التمر، فهل أطلق سراحك من عقالك لعلك تجدين من يكسر عليك قوقعتك فتهربين مني إليه؟ صحيح أن خريف الحب ينفخ برياحه في قلبينا، فصرت أنا أكثر اهتماما بالأولاد والبنات والأحفاد، أما أنت فقد نسيت حتى الأولاد، وأصبحت أشد التصاقا بجاراتك وصديقاتك، شغوفة بمجالستهن والاستماع إلى أخبارهن ومغامراتهن و انتقاداتهن لأزواجهن مثلما تحدثيني عن ذلك كلما زرت بعضهن أو التقيت بهن في مناسبة فرح أو مأتم..

يتذكر ما حدث بينهما في ذلك اليوم الذي علا فيه صراخهما في وجه بعضهم بعضا. كادت تفجر أعصابه عندما كان يقضي وقته بين كتبه حينما جاءتها بعض جاراتها للزيارة. رفض طلبها بمغادرة البيت حتى يسمحن لأنفسهن بحرية الكلام ورفع الصوت.. ذكرت له صارخة -وهي تعنيه- بأن الرجال الماكثين طوال يومهم وليلهم في البيوت لا يغادرونها إلا نادرا لكبر سنهم أو مرضهم أو بسبب وجودهم في حالة التقاعد أو الذين لم تبق أمامهم إلا سنوات قليلة على التقاعد من التعليم –مثله- يشكلون خطرا حقيقيا على عائلاتهم.. قالت له بأنهم يكدرون على زوجاتهم وأبنائهم صفو الحياة بسبب تدخلاتهم المستمرة في كل صغيرة وكبيرة في شؤون البيت بما فيها الخاصة بالنساء.. أضافت له بأنهم فضوليون في كل شيء.. إذا نسيت الزوجة قطعة ثياب معلقة على سلك الغسيل في غبار الرياح وتحت أشعة الشمس، فإنهم يقيمون الدنيا ولا يقعدونها.. حتى الثلاجة يفتحونها ليراقبوا ما فيها.. وحينما يلاحظون فيها طعاما بائتا أو بقية زائدة من وجبة مجمدة، يعتبرون ذلك تبذيرا، فيصرخون على زوجاتهم وبناتهم وكل من يجدونه في طريقهم حتى أولادهم الذكور لا يسلمون من صرخاتهم مع أنهم لا علاقة لهم بالمطبخ. أبلغته بأنها مثل بقية النساء المتعبات اللاتي يجتهدن في إخفاء ما يعكر حياتهن عن أزواجهن.

بعد فترة، ينتبه إلى نفسه ويهدأ من روعه عندما يقف أمامه النادل بأدب يطلب الحساب.. ومع ذلك لم يقطع النادل أفكاره كما لم يشوش عليه صرير النقود التي كان يحركها لتغادر جيبه نحو النادل. يقول في نفسه.. إنهن النساء.. هذا ديدنهن.. يختلفن عنا نحن الرجال.. يعترف.. طالما يظلمننا في الغيبة والحضور مثلما نظلمهن في الغيبة والحضور أيضا.. تختفي رويدا رويدا عروقه المتوفزة من على جبهته وذراعيه.. سبحان الله.. كانت عروقي ظاهرة والدم كنت أتحسسه يجري فيها بقوة..

عندما يهدأ، يدرك لماذا دخل الجميع إلى المقهى ولماذا بقي هو خارجه.. تتسايل قطرات من المطر الباردة من أعلى رأسه وتمر على وجهه وشفتيه وتزعج عينيه.. يمد يده إلى جيبه ويخرج قطعة من نشاف الزكام يمسح بها كامل وجهه.. يتأكد بأن المطر ينزل فعلا باردا وليس ساخنا كما كان يظن من قبل. يهرع الى داخل المقهى وثيابه المبللة ملتصقة على بدنه ومن حين لآخر توخزه قشعريرة البرد. بعد أن يتوقف المطر يغادر المقهى نحو بيته القريب. أثناء الطريق، يفضل أن يحتفظ بعلبة سجائره الفارغة في يده التي صارت أشد قوة.. يتلذذ بعجنها في قبضته كما كان يفعل في شبابه إلى درجة أن العلبة تتحول إلى شبه كرة متناهية الصغر بين سبابته وإبهامه. ثم يرمي بها

على قارعة الطريق مفلتا معها إلى غير رجعة شعوره بكهولته المتمددة في كل أنحاء جسمه كأحراش بريّة.

(3)

لدهم متعود أن يجلس مع بعض أصدقائه في حلقة الحاج العيد ذي السبعين سنة. لدهم يحب مجالسة الحاج العيد الذي تجمع حلقته الكبار والشباب، يستمعون إليه وهو يروي لهم تجاربه وخبراته في الحياة، فيأخذون العبرة من بعضها، ويكذبونه في نفوسهم لما يلاحظون مبالغاته في سرد أحداث ماضية يتصنع فيها دور البطولة. الحاج العيد تزوج شابة تصغره بأربعين سنة بعد أن صارت زوجته الأولى ملازمة لسريرها بسبب أمراضها المتعددة وعجزها عن القيام بواجباتها الزوجية لا سيما متعة الفراش والتي يجتهد من أجلها في تناول العسل الممزوج بالمكسرات مع بعض العقاقير التي يحصل عليها من محلات العشّابين. أما تحضير طعامه وغسل ثيابه فتتكفل بهما زوجات أبنائه، وهؤلاء يسهرون على صحة والدهم بنقله إلى المصحة عندما يشعر بالتوعك، وما أكثر توعكاته.

الحاج العيد يفضل أن يحكي لهم هذه المرة وتحت إلحاحهم عن زواجه الثاني من الشابة السمراء التي قلبت شيخوخته رأسا على عقب وحولتها إلى ذكريات ماضية وجعلت منه شخصا آخر يتضوع

قوة وشبابا. لم يكن يهمه أن يتهموه بإفشاء سر الزوجية. يسخرون من كلامه حينا ويصدقونه حينا آخر خاصة حين توافق أقواله أهواءهم وحاجاتهم.

مرة سأله لدهم:

-كيف سمحت لك عائشة –شفاها الله- بالزواج عليها من ضرة؟

يفاجئه الحاج العيد:

– بل هي من اختارتها وخطبتها لي عن طريق بعض معارفها من النساء. عندما لاحظت أني مصمم على الزواج أمام مرضها العاصف، فضلت أن تزوجني بنفسها ممن تستطيع مساعدتها في شؤون البيت وتهتم بصحتها وبمطالب أبنائها. الزوجتان تعيشان الآن في بيت واحد وعلاقتهما على ما يرام. عائشة التي منحتها رتبة –أم الأولاد- دائما في غرفتها مع إحدى بناتي، أما سميرة فهي معي في غرفتي، وقد عوضت زوجات أبنائي وبناتي وأولادي مشقة رعايتي والسهر على صحتي وطعامي وملبسي.

يتمتم لدهم بكلام غير مفهوم وكأنه يريد أن يقول شيئا ولكنه لم يفعل ويعقب على كلام الحاج العيد بتغيير وجهة الحديث:

- يا الحاج لماذا شباب اليوم لا يستطيعون إعادة الزواج رغم أن بعض نسائهم مصابات بأمراض أو عنيدات ومتسلطات عليهم؟

يمس الحاج العيد شنباته ويرفع رأسه في زهو و افتخار بنفسه ويرد باقتضاب:

- تنقصهم الرجولة!

يقول لدهم في نفسه.. هل الحاج العيد على صواب؟ وهل حقا تنقصني الرجولة؟ يود لو يعقب عليه، ويسأله عن المرأة التي فقدت حيوية الأنثى ونفدت بطارية حبها واستسلمت سريعة راضية لنهايتها قبل الأوان. ولكنه يتراجع خوفا من إثارة القهقهات وأن يتصيد بعضهم تلميحاته فيكتشفون مراده، بل قد تنقل ريحهم هذه الإشارات إلى لويزة، فتندلع بينهما حرب لا يعلم أحد كيف تكون نهايتها.

ينهض الحاج العيد ويتجه إلى بيته تاركا لدهم ومن معه في مكانهم. لقد حان موعد عودته إلى البيت. سيجد الزوجة الشابة في انتظاره. ستقدم له إناء الوضوء فيتوضأ، ثم ترتب هندامه واضعة على رأسه العمامة الصفراء وتلبسه العباءة البيضاء المعطرة بالمسك وتضع في يمناه مسبحته ذات الثلاث وثلاثين حبة من خشب شجر

العناب، وفي يسراه عكازته وستساعده في الخروج من البيت باتجاه المسجد لأداء صلاة المغرب.

ينهض لدهم متجها إلى بيته، ولا شيء في رأسه سوى قدرة الحاج العيد على الزواج مجددا وتنفيذ رغبته بل ومساعدة أم أولاده ليتزوج من المرأة الشابة. أما هو فلا يدري بالضبط ما الشيء الذي يفتقده لدى لويزة بعد أن صارت حياته تسير متلكئة كعربة مخرومة العجلات.

(4)

وساوس الأنثى تطوف برأس لويزة فتسأل نفسها: هل يا ترى لدهم مازال يحبني؟ لو كان يحبي حقا، لماذا يصر كل هذا الإصرار على إمطاري بأخبار الطلاق وإعادة الزواج، وحضور ولائم الزفاف والتصوير مع العرسان مع أنهم أقل منه سنا بكثير؟ إنه لا يكف عن مشاهدة البرامج التلفزيونية التي تتحدث عن الزواج و أفراح الزفاف.. هل ينوي إعادة الزواج؟ لا شك أنه يريد زوجة ثانية بعد كل هذا العمر.. بالتأكيد مجنون.. لا ريب أنه فقد عقله لو كان يقصد ذلك فعلا.. أظنه يهزأ بي.. ولكن مهما كان الأمر، ففي كلامه تلميح إلى أني لم أعد أكفيه وأرضيه.. لعلي كبرت ولم أعد أشف غليله من متعة الحياة..

تستعيد حديثه المتحمس عن الزواج الثاني للحاج العيد من فتاة شابة نفخت فيه الروح.. تهتز.. يا ويلي لو تخلى عني لدهم بعد هذه السنين الطويلة.. لقد عملت جهدي لإسعاده، وفي النهاية يريد التخلص مني، أو يأتي علي بضرة.. لعل القطار قد فاتني حقا وصرت عاجزة عن إمتاعه وتلبية رغباته مع أني ما زلت في قوتي وعنفواني حتى أني لم أطلب الاستعانة يوما بشقيقتي العازبة أو تلك المتزوجة، بل ولا حتى جاراتي في تنظيم شؤون البيت.. أطبخ الطعام وحدي.. وأغسل الثياب وحدي وأنظف الغرف وحدي.. ثم تقطع فجأة حبل وساوسها وتنتبه إلى أفكارها وخيالاتها.. الله يلعنك يا إبليس.. لا يمكنني أن أشك في كلام وتهويمات لدهم.. لا يمكن أن يفعلها لدهم، فأنا أعرفه تمام المعرفة..

تتجه إلى غرفة نومها وتستلقي على سريرها رامية برأسها على المخدة لترتاح فيما لدهم في غرفة الاستقبال يواصل سهرته بمتابعة برامجه التلفزيونية المفضلة في القنوات الفضائية متنقلا من نشرات أخبار الحروب والحوادث المتفرقة إلى الأفلام والأشرطة الوثائقية. تعن لها فكرة. تهم بتنفيذها، ولكنها تتراجع.. هل مسها الجنون حتى تختبره.. أوه.. ماذا جرى لها؟

تتناول الهاتف الجوال لتتابع مجموعتها المفضلة في شبكة التواصل الاجتماعي.. نساء تتبادل و إياهن أخبار الطبخ والموضة في اللباس وقصات الشعر والمكياج والحلي الذهبية.. أحيانا يتناصحن حول كيفية التصرف لوقف حماقات أزواجهن وكل واحدة منهن تخفي حقيقة مشاكلها مع زوجها وتلعب دور الضحية ولا تظهر إلا الوداعة والرقة بينما تظهر زوجها في صورة الظالم المتسلط.. هكذا يعشن و اقعهن الافتراضي وينفذن بعض أحلامهن في الفضاء الأزرق ثم عندما يفترقن في ساعة متأخرة من الليل يعدن إلى و اقعهن الحقيقي الذي طالما يصفنه بالمرير والصعب.. ملاذهن الوحيد للقفز فوق مشاكلهن اليومية هو التبحر في الواتسآب.. الفيسبوك.. الأنستغرام.. التيك توك وما شابه..

النوم يفر من عينيها.. تعود إليها الفكرة المجنونة، فلا تدعها تنام.. هيا يا لويزة افعليها.. اختبريه.. تغير اسمها المستعار على الفيسبوك وترسل له رسالة على المسنجر وهي ترتجف.

-مساء الخير.. أنا وجدان.. وددت التعرف على شخصية مشهورة مثلك.. فأنت الأستاذ المعروف..

-مساؤك أسعد.. شكرا على الاهتمام والتقدير.. اسمك هذا مستعار، فمن تكونين حقيقة؟

-لا يهم من أكون.. أنا من المعجبات بأفكارك خاصة حينما نستمع إلى محاضراتك الإرشادية في نادي الحي.. صراحة حياتي بدأت تتغيروكذلك بعض صديقاتي.. شكرا جزيلا.

تودّ لويزة لو تذهب بعيدا في الدردشة مع لدهم، فهي ما فكرت في ذلك لمجرد أن تستمر الدردشة في قضاء وقت فراغها معه، و إنما تريد اختبار مدى حبه لها ولو بكلمات قليلة في وقت قصير. تتردد عندما تساورها بعض المخاوف، ثم تغامروهي متأكدة بأنه لن يدخل عليها في غرفتها مادام منشغلا بالدردشة على الجانب الآخر في غرفة الاستقبال.

- قل لي لدهم.. هل أنت رفقة زوجتك أم وحدك الآن؟

- وحدي.. أنا في الصالة كنت أشاهد فيلما وثائقيا ثم ها أنا أدردش معك.

- لن أكشف لك عن اسمي الآن ولكني أعرف أن لديك بعض المشاكل مع زوجتك لويزة.. قالت لنا مرة ذلك بعد استماعنا إلى محاضرة حول الأسرة قدمها أحد ضيوف النادي..

- تحدث المشاكل بين الأزواج خلال مراحل الحياة.. مرة حلوة ومرة أخرى مرة.. ولولا طعم المرارة ما عرفنا طعم الحلاوة.. ولولا التعاسة والأسى ما عرفنا السعادة والسرور.. هي الحياة هكذا..

تضيف له وهي تخرق القواعد هذا المرة:

- سبق وأن قلت لك إني من المعجبات وعمري في الثلاثين سنة.. بصراحة ما أرسلت لك رسالة لأدردش معك إلا لأن قلبي لم يتركني.. يدق كلما طاف خيالك برأسي.. أعرف أنك متزوج ولا تستطيع الزواج بي ولكني وددت لو نقيم علاقة حميمية في السر ونلتقي مباشرة وجها لوجه. أقولها لك صراحة يا لدهم إن شئت أغلقت في وجهي الدردشة فأنا أحبك ومتيمة بك وحبك جارف يقض مضجعي..

ما هي إلا لحظات وتوقف لويزة الدردشة وتسرع إليه في غرفة الاستقبال. يتظاهر بوضع الهاتف الجوال جانبا بعد أن أغلقه وهو يقول في نفسه.. ليس من عادتها أن تتفقدني في هذا الوقت المتأخر من الليل. ما بالها لم تنم حتى الآن؟

قبل أن ينطق، تسبقه قائلة:

-لقد أطلت السهر الليلة.. هل من جديد في أخبار الحروب؟

لويزة كانت تود لو تواصل الدردشة إلى الآخر ولكنها قطعتها خوفا من النتيجة أن تكون في غير صالحها.. قبل أن تغلق الدردشة بلحظة تساءلت في نفسها.. ماذا لو استجاب وقبل بالعلاقة السرية؟ ماذا أفعل؟ هل احتسبه قد خانني أم أكون من دفعته إلى الخيانة

من خلال تحرشي به وإيقاعه في الفخ؟ وفي حالة ما إذا كان قد واعدني واتفق معي على لقاء حميمي هل سأعتبره خائنا؟ أكيد خائن.. هذه هي الخيانة.. الرجال لا يؤتمنون..

تدرك لويزة بأنها فشلت في اختبارها الذي لم تكمله للنهاية خشية حدوث ما لا تحمد عقباه. ثم تغزوها أفكارها مرة أخرى.. ماذا لو أخبرها بأنه وفيّ لزوجته ولا يمكنه خيانتها بعد كل هذا العمر، وأن ما بينهما من حب ووفاء لا تزعزعه كلمات رقيقة من فتاة منحرفة ومتحرشة لا همّ لها سوى الإيقاع بالرجال.. تعجبها هذه الأفكار.. فتقول في نفسها.. لدهم مخلص ويحبني ولن يقوّض هذا الحب من أجل لحظة طائشة مع شيطانة من شبكة التواصل.. ثم تنتبه وتضحك على نفسها.. أوه! هل أنا شيطانة وخطافة رجال؟

تراودها فكرة أن تكاشفه بصاحبة الدردشة بعد أن فشل الاختبار، فهي تريد أن تسمع منه مباشرة رأيه في حبها، ولكنها تخشى ردة فعله من أن يثور في وجهها ويتهمها بالشك في حبه، فتتراجع عن المخاطرة وتكتفي ببعض الكلام لتبرير مجيئها المفاجئ. تلقي على مسمعه بضعة كلمات طالبة منه التوقف عن السهر والقيام إلى سريره، فأمامه غد عامر بالنشاط مع تلاميذه في المدرسة.

(5)

يبدو البيت من بعيد جميلا مطليا بالأبيض. كلما اقتربت خطواته أكثر يشعر وكأنه سيدخله لأول مرة. قبل أيام أعاد طلاءه واختار له اللون الأبيض، لون المحبة والسلام والسعادة والأمان. إنه أجمل لون تملّى فيه بعينيه وقلبه في ليلة زفافه التي لن ينساها. في تلك الليلة، اختار لغرفته اللون الأبيض وحتى الجدران الداخلية والخارجية للبيت اختار لها الأبيض. وعندما سألته لويزة حينها لماذا أكثر من اللون الأبيض في كل مكان اكتفى بملامسة فستانها الأبيض وهو يشدّ على يدها برفق ويغرق عينيه في عينيها الجميلتين الواسعتين.

في هذا الصباح، يقرر أن يحمل معه لأول مرة حقيبته الصغيرة ويرتدي سرواله البني، وقميصه الثخن كالبطانية ضد برد الشتاء وحذاءه الأسود القديم ولكنه متين الجلد اشتراه منذ أشهر من سوق الشيفون. الحقيبة تخفي بعض أشيائه الجميلة التي مازال يحتفظ بها منذ سنوات عديدة خاصة العباءة والعمامة البيضاويين اللتين لبسهما ليلة دخلته على لويزة..

قبل مغادرة البيت، يكلم لويزة ويوهمها بأنه ذاهب كعادته إلى المقهى. لكنه يغير وجهته نحو الحمام العمومي. أثناء الطريق، يمرّ أولا

على الحلاق فيقص لحيته الطويلة وشاربه اللذين اعتاد أن لا يحلقهما وينظف خديه من بعض الشعر الأبيض. تبدو بشرة وجهه جديدة وجرداء شبه قاحلة كغابة اقتُلعت منها أشجارها وأعشابها المتوحشة. في الحمام، يجتمع عليه شابان مفتولا العضلات. يطرحانه أرضا ويشرعان في تقليبه على ظهره حينا وعلى صدره حينا آخر وهما يدلكان جسده دلكا قويا بقصد تحويل بدنه إلى نسخة جديدة قابلة للإغراء بناء على طلبه.

ها هو يعود ويقترب من الباب. لا أحد في البيت سوى لويزة، فالأولاد يوجدون منذ أسبوع لدى أخوالهم وسيقضون أسبوعا آخر لدى أعمامهم. اعتادا أن يرسلاهم مع انتهاء العطلة المدرسية الربيعية إلى حيث العائلة الكبيرة. يطرق الباب فتفتح لويزة وتتفاجأ به.

تصرخ مندهشة.

-أواه ...لدهم هذا أنت أم أني مخطئة. ماذا دهاك؟!

-ألست العريس الذي دخل عليك في ليلة زفافك وخفضت وقتها رأسك خجلا ؟

-أين لحيتك وشاربك؟ هل جننت؟

تصفق خلفه الباب وتطلق قهقهات عالية في بهو البيت وهي تقول في نفسها أن لدهم فقد صوابه.. ارتدى لباس عرسه الذي لم يستعمله منذ سنوات طويلة بعد أن دفناه في صندوق الأثاث القديم واحتفظنا به للذكرى على غرار صور ألبوم العرس.. لا أدري ماذا أصابه؟ تفكر.. إذن لدهم طلى البيت بالأبيض من أجل أن يعيش وهم العرس وادعى أنه فعل ذلك تلبية لرغبتي في تجميل البيت.. لدهم يتوهم أنه عريس في ليلة زفافه.. لا شك أصيب بمرض الوهم.. ولابد من عرضه على طبيب نفساني حتى ينظر في أمره ويجد العلاج اللازم لانفصام شخصيته.. آه يا لدهم لو تضيع مني فأني لن أعرف للعيش طعما بدونك.. أنا راضية بك كما أنت بلحيتك الطويلة الكثة وبشاربك الطويل غير المتساوي الأطراف أحيانا، وبصلعتك التي تخفيها الآن العمامة وقد كانت عارية في الصباح..

- لويزة اقتربي مني و حدثيني عن ليلة زفافنا !

-نسيت الكثير منها.

-المرأة لا تنسى أبدا ليلة زفافها.

-إن جئت للحق، أذكرها بحلوها ومرها. ولكن أراني غير قادرة على الحديث قبل أن أعرف سبب كل هذا التغير الذي حصل لك اليوم.

-هل تذكرين عندما قلت لك ذات يوم ماذا لو نعيش مجددا ليلة زفافنا، فلعلنا نستعيد شبابنا وحبنا المفقود أو نتوهم أننا نعيشه على الأقل ولو في التفكيروالليباس والسلوك.

- أنت حالم وواهم.. الآن تأكدت بأنك في كامل قواك العقلية ولم تصب بمرض الوهم أو مسّك الجنون.

-أمامك الآن لدهم العريس الذي عمره عشرين سنة وليس لدهم الكهل الذي تعرفينه.

تنظر إليه بخجل، تماما كما حصل لها ذلك في ليلة زفافها عندما فتح باب غرفته ووجدها أمامه تنتظر عريسها وهي ملفوفة في البياض تتضوع عطرا وشبابا وشوقا. ينخزها الحنين إلى ماضي أيامها.. إلى عرسها وليلة زفافها.. تلتفت إلى نفسها وهي أمامه في ثياب امرأة في العقد الثلاثين بدون مساحيق ولا حتى عطور.. تحدث نفسها.. هل أرفض جنونه أم أقبل به؟ يجب أن لا أقبل تحرشات هذا الشاب الذي يسكن في جلد كهل أو هذا الكهل الذي يتحرك في جلد شاب.. لا أدري.. لم أعد أدري.. تتساءل.. ماذا لو رفضت رغباته ودفعته بقوة بعيدا و انتهرته حتى يعود إلى الحكمة والصواب ويبتعد عن طيش الشباب وهوس المراهقة المتأخرة..

تلتفت إليه.. تنظر مليا في عينيه.. سبحان الله.. إنه لدهم في شبابه.. لا شوارب ولا لحية.. فقط صلعة الرأس تحتل مكان الشعر الأسود.. فعلا إنه لدهم.. تطغى عليها صورة لدهم الشاب، بل لدهم الحقيقي هو من أمامها يلوح من عينيه المركزتين على عينيها بريق منبعث من أثر قديم.. ومن بين شفتيه المتوفزتين تنفلت بعض الحرارة. يشدها الحنين والشوق إلى تلك الشابة العشرينية المراهقة التي مضت على فراقها سنون عديدة.. تشعر بضعف العجوز في داخلها أمام قوة الشابة التي بدأت تدب الحياة في عروقها.. تفكر.. فعلا أنا العروس الشابة ولو في جلد عجوز.. تتحسس مواضع التجاعيد في وجهها.. إنها ليست تجاعيد.. لابد أن تختفي التجاعيد.. تطلب من لدهم أن يمهلها بعض الوقت لتغادر إلى غرفتها ثم تعود.. يفهم لدهم ما يدور في خلدها، فيومئ إليها برأسه موافقا.

ينهمك لدهم في ارتشاف الشاي الذي قدمته إليه لويزة مع شيء من المكسرات.. كوكاو وأكاجو ولوز. تغادر إلى غرفتها وتغلق بابها بإحكام. تفتش في صندوق ألبستها القديمة عن ثوب ليلة الزفاف.. تعثر عليه بعد جهد جهيد.. حتى التنورة القصيرة وجدتها.. ترمي التنورة جانبا، فالوقت ليس للتنورة بل لفستان الزفاف. تلبسه تضع على وجهها ما استطاعت من مساحيق وهي تتذكر مهارتها في ذلك بعد

أن كادت تنساها. فهي لا تضع مساحيقها على وجهها إلا في مناسبات الأعراس رفقة صديقاتها وجاراتها. أما وضعها تجمّلا لزوجها فقد تضاءل ذلك كثيرا منذ سنوات حتى توقفت تماما عن التجميل حينما لزم كلاهما الاعتقاد بأن الجوهر أهم من الشكل وأن التزام الحكمة والعقل في حياتهما أفضل من أن يعيشا طيش الشباب والخوض في الكلام الخادش للحياء حتى لو كان بين زوجين..

ما هي إلا ساعة من الزمن وتخرج العروس من خدرها في جو أسطوري.. فستان أبيض وجمال أخاذ لشابة نشيطة خفيفة الحركة إلا من بعض التلكؤات التي تفضحها وتشير إلى تقدم سنها.. تحرك في يدها مجمرة البخور فيتصاعد دخان عطري في بهو البيت يخترق الأنوف. تجلس أمامه على الأريكة وتأخذ بعض حبات الأكاجو وتخفيها في فمها الذي تلونت شفتيه بالأحمر الغامق.. لا شيء يعكر صفو هذه اللحظات.. الأولاد غائبون في عطلتهم.. وجاراتها لا يزرنها من غير موعد مسبق ولا حتى بالصدفة في مثل هذا الوقت. لدهم أيضا مطمئن فلا أحد يمكنه طرق بابه ولو من جيرانه، فقد اعتادوا أن يتواصلوا معه خلال النهار أو يلحقون به في المقهى القريب إذا احتاجوا منه شيئا. أما الآن فلا شيء يمكنه أن ينغص صفو هذه

اللحظات وأن يفتك منهما ما يشعران به من حنين وشوق إلى ماضي الأيام.

(6)

تتناول لويزة ألبوم صورها وترمي بعينيها وقلبها في بحر ذكرياتها الجميلة.. صورة تظهرها وهي طفلة ببين أشقائها وشقيقاتها ووالديها.. صورة ثانية وهي تلميذة في المدرسة تتوسط صويحباتها.. صورة أخرى وهي شابة مراهقة منهمكة ببعض شؤون البيت تساعد والدتها.. آه هذه أنا منفوشة الشعر وفمي ملطخ بمعجون التين والخبز.. كم كنت أحب معجون التين.. والدي يأتي بالمعجون الأصلي وتخفيه أمي عنا -نحن أولادها وبناتها- لكي لا تنفد العلبة بسرعة. ولكني كنت أعرف مكانها، فأسرق منها مع شقيقي الأصغر بعض الغرفات. كنا نتظاهر بطلب بعض المعجون حتى لا تشك أمي في السرقة، وكنا نلاحظها حائرة في سبب نقصان المعجون.. ما أحلى تلك الأيام الماضية التي لن تعود.. تقلب بعض ورقات الألبوم ثم تهتز فرحا .... أووه.. روعة هذه أنا فستان عرسي الأبيض ما أحلاه.. هؤلاء صديقاتي وشقيقاتي وأمي وجدتي وبنات أعمامي وأخوالي محيطات بي.. مشهد أخاذّ قبل أن أزف إلى لدهم بسويعات..

تلتفت إلى لدهم وتعطيه الألبوم لينظر إلى صورتها في ليلة زفافها..

-لدهم.. ما رأيك في هذا الجمال الذي جعلك ترسل الوسائط تلو الوسائط للفوزبي، آخرهم "نعم سيدي" إمام المسجد.

- كم كنت جميلة حقا.. واليوم ذوي هذا الجمال الذي كنتيه في الصورة. وها أنا أمام امرأة أخرى مختلفة. انظري إلى بطنك نفختها البدانة وخصرك اختفي تماما تحت كومة الشحم التي طوقت حتى ذراعيك وفخذيك..

-تقصد أنك الآن أمام امرأة عجوز أفقدت البدانة وطول السنين جمالها وقوامها الأنثوي كما تدّعي مثلما فقدت أنت عنفوان شبابك ويكاد يقعدك الزمن عن الحركة؟

-ليس ذلك بالضبط. صحيح كبرنا، وصرنا في مرحلة أخرى من العمر، غير أن حبنا ظل قابعا عند أيام شبابنا لا يتعداها.. فهل تُنفخ الروح في حبنا ونحن في مرحلة الكبر؟

تطمئن لأن ما يقوله هو الحقيقة، فهي أيضا تشتاق إلى شبابها ولو في الحلم والخيال.. تقترب منه وتريه صورتها وإياه في ليلة زفافهما. تمرر يدها على يده تتحسسها لعل روح الحب تنفخ فيها مجددا تلك الشابة العروس، ولعل ذلك الشاب العريس تدب في أوصاله دماء الفتوة والفحولة مرة أخرى. لكن كلاهما لا يتحرك وكأنهما لا يشعران بشيء من ذلك كله. يتلاشى مشهدهما في الصورة

التي أصبحت ضبابية أو هكذا بدت لهما الصورة ميتة ومتبلدة عندما لم يستطيعا شحنها بعواطفهما التي كانت جياشة، ولكنها الآن صارت مثل كتلة الثلج تجمدت داخلها حتى ذكرياتهما الجميلة.

تغادره على جناح السرعة. تنتبه إلى موعد تحضير وجبة الغداء. فالأولاد سيعودون من المدرسة في منتصف النهار وهم يتضورون جوعا ولابد أن يجدوا ما يأكلونه. تعترف في نفسها بأنها لم تعد كما كانت تلك الزوجة الجميلة الشابة التي تتحرك جيئة وذهابا في أرجاء البيت كالنحلة النشطة تنشر عسل الحب في كل مكان.. تقول في نفسها.. قبل أن أنجب الأولاد بل حتى وهم صغار كنت جريئة.. كنت أزور الكوافير في كل أسبوع، ولا أتورع في وضع كل ما أستطيع من مساحيق وقصات الشعر بآخر موضة ولبس أجمل الفساتين المثيرة عندما نكون وحدنا أو مع صغارنا الذين كانوا لا يهتمون لأمرنا.. كنت أجرؤ وأطلب من لدهم كل ما أريده كأنثى تتضوع شبابا وعنفوانا كزهرة جميلة في منتصف الربيع.. لدهم كان يفضل أن يلبس آخر ما جادت به الموضة.. حينما يكون في البيت شتاء، فإنه يضع على جسمه بيجامة وثيرة حتى يشعر بالدفء، فهو لا يحبذ التدفئة الاصطناعية. أما صيفا، فيفضل "الشورت" مع إبقاء صدره عاريا يزينه بعض الشعر الأسود.. أحب صدره بشعره الأسود.. كنت

في شبابي قبل زواجي وأنا مع صديقاتي نردد بيننا عندما نصادف بعض الشباب الذين يطل من صدورهم بعض السواد أن الشعر على الصدر علامة الفحولة.. لكن بعد الزواج عرفت أن الفحولة شيئا آخر غير شعر الصدر..

تسمع قدر الطبخ يرسل صفيره إليها ويقرع سمعها فتفيق من حلو ذكرياتها. تهرع إلى تحضير مائدة الطعام وفي نفسها تعتمل أشياء وأشياء.. أووه.. على ذاك الزمن.. اليوم صرت عاجزة عن فعل ما أريد، صرت أخجل من أبنائي وبناتي من أن ألبس التنورة وأكشف عن بعض صدري أمامهم.. لم أعد أقدر على وضع المساحيق على وجهي إلا الشيء القليل منها فقط.. إذا دُعيت إلى حفلة عرس، أتزين بكل ما عندي من فساتين فاتنة وحلي ذهبية وفضية وقصّات شعر مغرية.. طالما أغريت لدهم بمنظري الفاتن الذي يشبه العروس عندما يوصلني بنفسه إلى حفلة عرس تدعوني إليها جارة أو صديقة لي.. لكن هذا الإغراء سرعان ما يتبدد حينما يختفي مشهد الغواية مني وهو يراني حال عودتي للبيت أسرع على الفور بنزع ما علي من ثياب مغرية وأمسح ما علق بوجهي من مساحيق كانت تعطيه مسحة فريدة من الجمال.. ها أنا أعيش متعتي بجمالي خارج بيتي وعجزت عنها في بيتي وحرمت من ذلك لدهم.. الله غالب.. أعجزتني الحيلة

والدنيا تبدلت.. فلابد أن ير اني الأولاد امرأة عادية دون مساحيق ولا فتنة والعبرة بالجوهر لا بالشكل.. علي أن أكون القدوة لابنتي.. اعتدت أن أطلب منها عدم التجمّل الزائد بالمساحيق والتواضع في اللباس والابتعاد عن ارتداء الفساتين الضيقة والسراويل الفاتنة خوفا عليهن من المراهقين في الشوارع..

تدور في رأس لدهم أفكار شتى وتساؤلات عدة عن شبابه وماضيه الجميل العامر بالقوة والفتوة والرجولة ويقارن ذلك بوضعه الحالي حيث سنه المتقدمة وجسمه الذي يزداد ضعفا يوما بعد يوم يصارع كهولته ويحتاط لشبح الشيخوخة الزاحف. لابد له في المساء أن يغادر البيت ويجلس مع أصدقائه لتغيير مزاجه نحو الأحسن، ولابد له أيضا أن يجلس ولو قليلا مع الحاج العيد وجماعته لكي يستمع لقصصه وخرجاته المضحكة وأحيانا بعض خر افاته وتجاربه في الحياة التي تقبل حينا التصديق وأحيانا أخرى لا يصدقها أحد رغم تأكيده بأنه عاشها فعلا أو عاش أحداثها من رواها له.

(7)

يشتاق الأولاد إلى بيت جدتهم. فهم في عطلة مدرسية ومن مدة طويلة لم يزوروا بيت الجدة القاطنة في مدينة تبعد عنهم بأزيد من خمسين كيلومترا. اعتادوا قضاء أيام معدودة من العطلة يتقاسمونها بين بيت جدهم من أمهم حيث خالاتهم وأخوالهم وبيت جدهم من أبيهم حيث أعمامهم وعماتهم. الفرصة سانحة هناك للتزاور وربط العلاقات مع الأقارب والجيران في الحي حتى يحافظوا عليها في الكبر. التمتع بالعطلة بهذا الشكل الذي يقضونه في الضيافة من بيت إلى بيت يمثل قمة المتعة التي تقضي على الرتابة التي ألفوها في مدينتهم. لذلك أرسلت لويزة الأولاد بالاتفاق مع لدهم إلى بيت والدها أولا لكي يبقوا هناك لمدة أسبوع على أن ينتقلوا بعدها إلى بيت والدته في الأسبوع الثاني ليمضوا المدة نفسها قبل الرجوع إلى بيتهم.

لم يبق في البيت سواهما أثناء العطلة.. لدهم يلوك ما تبقى من رصيد العمر في مهنة التعليم ولويزة تستنفد بقية حياتها، كما تعتقد، في خدمة زوجها وأولادها، فهي امرأة لم تنل حظها كثيرا من التعليم حيث انقطعت عن مواصلته وهي في المرحلة المتوسطة وفضلت أن تكون ربة بيت صالحة، هذه قناعاتها، وها هي دائما

مطمئنة وراضية عن نفسها ومرتاحة. يتعزز لديها هذا الشعور بالاطمئنان عندما ترى لدهم سعيدا وهو يلاحظها منهمكة في شؤون البيت أو في رعاية ونصح الأولاد والبنات.

ومع ذلك، لا يخلو البيت من بعض الهزات ومن شيء من الملل والسأم الذي يعكر صفو الجميع خاصة عندما تغزو الرتابة لدهم وتطوقه من كل الجهات كعاصفة هوجاء فيصبح كثير التدخل في كل صغيرة وكبيرة من شؤون البيت بما فيه الأمور الخاصة بالمطبخ ولباس الأولاد. وإذا تم رفض طلبه أو أُهملت أوامره أحيانا يستشيط غضبا ويعتبر ذلك إهانة واحتقارا له.

ينادي عليها:

-ماذا تفعلين منذ الصباح في المطبخ.

- أغسل الأواني وأتهيأ لتحضير وجبة الغداء.

- لم يبق عن عودة الأولاد من المدرسة إلا ساعة ويكونون هنا.. لم يبق الكثير من الوقت.. أتحضرين وجبة الغداء على الساعة الحادية عشرة؟

تصمت ولا تجيب. يسألها مستغربا:

- أين أنت.. ما بالك لا تردين؟

تصم أذنيها عن سماعه، فيقوم بنفسه ويتجه إلى المطبخ..

- أنت لا تردين.. هذه إهانة!

- (بصوت غاضب) أنت جئت إلى حيث رائحة الطبيخ تزكم الأنوف.. لم أسمعك.. كنت منشغلة في الفضاء الخارجي للمطبخ..

- بل سمعتني جيدا ولكنك فضلت التظاهر بالطرش!

- ماذا تريد؟

- لا شيء.. لا أريد منك شيئا.

يغادر المطبخ متوترا إلى قاعة الاستقبال لمتابعة نشرات الأخبار في التلفاز.. أخبار فلسطين والحرب الروسية الأوكرانية.. الحرب في السودان.. التوتر بين الصين وأمريكا.. الإرهاب في دول الساحل وموجات التحرر الجديدة من رواسب المستعمر القديم، وحتى الرياضة والمباريات الدولية لكرة القدم يشاهدها باستمرار. يعرف أن أخبار الحروب والحوادث الدرامية تشكل خطرا على نفسيته وترفع من ضغط دمه خاصة وأنه شديد التحمس لطرف دون طرف آخر، ولكنها أخبار ليس له منها بدّ كما يقول في نفسه.

ربما أن هدف لدهم من دخول مطبخ لويزة هو أن ترد عليه طاعة له وحسب. فالرجال أحيانا يطلبون بعض الأشياء لمجرد التأكد من طاعة زوجاتهم. فمن الرجال من لا يجد متعته إلا عندما

يأمر الزوجة بتنفيذ أمر شبه مستحيل كأن يمنعها من أن تعزي قريبا من أقربائها في وفاة عزيز بسبب خصومة تافهة بينها وبينه. وعندما تنفذ أمره يفرح ويشعر بمتعة الطاعة العمياء له. في بعض المرات، إذا امتثلت الزوجة للطاعة على كره منها فإنه لا يلبث وأن يشعر بالشفقة عليها بعد أن يرى أنه ظلمها ظلما كبيرا. وحينما يعفو عنها ويطلب منها أن تزور قريبتها أو جارتها بعد أن منعها من قبل عن فعل ذلك، تغمره المتعة أيضا لأنها نفذت أمره. بعض النساء لا يستطعن زيارة جاراتهن أو حتى أقاربهن في مناسبات الوفاة أو الزواج إلا بعد أن يستشرن أزواجهن حتى لو كانت مقرات أعمالهم في مدن بعيدة أو في شركات النفط والغاز بأقصى الصحراء، يستأذنّ عند الحاجة للخروج مع الأولاد إلى السوق أو إلى حديقة المدينة أو في مناسبات الأفراح والأتراح أو الرغبة في تفقد الأهل والأقارب. هذا يشعر الرجل بوفاء امرأته وإخلاصها وحبها. لذلك، يطمئن الرجل على أهله حتى لو كان يعمل بعيدا في الغربة وخارج الوطن ولا يزور الديار إلا مرة واحدة في السنة عند العطلة الصيفية.

(8)

الأولاد والبنات متجمعون حول مائدة العشاء. بصعوبة تامة يجمعهم حول مائدة الطعام أثناء وجبة الغداء أو العشاء. لدهم يريد عند عودته من العمل أن يراهم واحدا واحدا متحلقين حول الطاولة لكي ير اقب سكناتهم وحركاتهم. لويزة لم تتقبل ذلك في الأول؛ لأنها متعودة على رؤيتهم طوال اليوم، ولكنها في النهاية استسلمت للأمر الو اقع أمام تشديده وإصراره.

لدهم تعود على جمعهم على طاولة الغذاء ليطلع مباشرة على أحوالهم لأنه من الصعب أن ينادي في كل مرة على أحد ويتحدث إليه، أو يتفقدهم في غرفهم. لذلك، فرض عليهم الحضور وقت الغداء والعشاء لتناول الطعام مع بعض.

مائدة الطعام هي فرصته الوحيدة ليرى جلال الذي بالكاد يسمع نصائحه ويرفض أن يقطع تواصله مع أقر انه المشبوهين الذين لا علاقة لهم بالدراسة رغم النصائح الموجهة إليه. جلال، في نهاية العقد الثاني من العمر ودخل الجامعة. ظهر شاربه وترك عمدا ذقنه ينمو عليه الشعر حتى يبلغ والده رسالة بأنه صار رجلا ولم يعد طفلا صغيرا يتلقى الزجر والنصائح حتى وهو تحت رعاية والده يطعمه ويكسوه ويؤمّن روعه ويوفر له المأوى. لدهم يشعر فقط

بالارتياح عندما يرى ابنته حياة النشطة الضاحكة التي يطلب منها في عديد المرات المزيد من النكت والحكايات التي تجمعها من شبكات التواصل..

أما أصغرهم، جابر ذو العشر سنوات، فهو عند لدهم المُخبر الذي ينقل إليه في الخفاء كل ما يحصل في البيت خاصة المناوشات بينهم والتي يرغبون في عدم وصولها إلى أسماعه. بعض الآباء يسخرون طفلا موثوقا به من أطفالهم لتبليغهم في سرية تامة بحقيقة ما يجري في بيوتهم. لذلك، فإن جابر يخبره بكل شيء بما فيه الانتقادات الموجهة نحوه وبمن المتسبب في إثارة النزاع بينهم مقابل مدّه ببعض الهدايا واللعب التي يأتيه بها من السوق، مرة كرة، ومرة دراجة ومرة شوكلاطة. وإذا أصر جابر على طلب بعض النقود، فإنه يسلمه إياها لتصرف على الفور في أقرب دكان. علاقته مع طفله الأصغر أفادته كثيرا في الاطلاع على ما يجري داخل الأسرة فيعلم حتى بما تخفيه عنه لويزة التي تتستر على بعض سلوكاتها والتصرفات المستهجنة لبعض أولادها.

أما لويزة فهي عند ارتفاع أصواتهم وصراخهم في وجه بعضهم بعضا، تتحول إلى طرشاء لا تسمع شيئا. في وقت السلم، تشاركهم الحديث، أما في وقت الحرب فتنأى بنفسها عن الجميع. إنها كما

يصفها لدهم إما ضعيفة عن مواجهتهم وعاجزة عن مساعدته في التصدي لهم، وإما أنها امرأة نفعية تريد أن تربح الجميع ولا تخسر علاقتها معهم. لذلك، فهي تترك الأمر إلى لدهم ليتولى شأن أبنائه فيصرخ في وجوههم وأحيانا يقلب مائدة الطعام، فلا يكمل أحد وجبته، ويفرون من وجهه كما تفرّ وحوش البرية حينما يهجم عليها سبع أشد شراسة منها فيحرمها فريستها.

توسوس له نفسه.. لويزة أقرب إلى أولادها من قربها مني.. لعل سنين العشرة الطويلة دقّت بقوة عقلها وشقّت قلبها فزال زيف معدنها وطار صداه فتكشفت عن حقيقتها.. لويزة اسمها على اسم نقد ذهبي يحمل وجه " لويس" الملك الفرنسي؛ وهو أغلى وأشهر أنواع الحلي الذي دأبت النسوة على التزين والتباهي به أو ادخار قريصات ذهبية منه لوقت الشدة أو إهدائها لبناتهن عند الزواج.. لويزة ذهب، والذهب لا يتغير أبدا.. لكن ها إني أرى لويزة على غير حالها.. تتبدل شيئا فشيئا وتغير جلدها كالزواحف نحو وجهة لا أعلمها.. الزواحف على الأقل هذه طبائعها مذ خلقت.. أما لويزة لا يمكن أن تكون كذلك.. هذا غير ممكن.. دون شك أنا مخطئ.. لويزة هي لويزة. لا شيء فيها تغير، بل لعله من تغير وصار ينظر إليها بنظرة غير المحب..

مستحيل.. فمازالت كما أنا ولويزة لا يمكن أن تتحول إلى لويزة أخرى..

في غمرة التساؤلات، يسترد بعض سلوكاتها ومواقفها المتحولة.. عندما تذهب إلى حفلة زفاف قريب أو جارة فهي تحاول التشبه بالعرائس، تضع ما استطاعت من مساحيق على وجهها وتلبس ما وصلت إليه يداها من فساتين جديدة زاهية وترش على جسمها آخر نوع من العطر النفاذ ظهر في السوق وترصع رقبتها ويديها وأذنيها بالعقود والأقراط والأساور الذهبية وتطوق خصرها بحزامة ذهبية عريضة من اللويز جمعته على مدى سنوات طويلة.. بعضه اشتريته لها وبعضه من عندها والبعض الآخر وفرته لها والدتها وكثير منه استلفته من صويحباتها للتباهي به في الأفراح.. ثم إنها حينما تعود إلى البيت، تسرع إلى مرآة غرفتها وتمسح مساحيقها وتنزع حليها وتبدل ملابسها الزاهية بأخرى عادية، ثم تخرج من غرفتها كسيارة قديمة مرفوسة الهيكل بالكاد تحرك عجلاتها المعطبة وهي تتلكأ في مشيتها يمنة ويسرة وكأنما التزين هو للأفراح فقط لا للأزواج..

تدخل لويزة إلى الصالة حيث يشاهد فيلما عاطفيا كلاسيكيا.. كم يحب هذا النوع من الأفلام التي تنقله إلى عوالم من الحب والعشق والمغامرات.. يعرف أنها وقائع تمثيلية وليست حقيقية،

فشتان بينها وبين الواقع.. ولكنها تبقى بالنسبة إليه متنفسا يهرب إليه خاصة في هذه السن التي ضاقت فيها عليه مساحات المناورة العاطفية.. يلتحق بهما طفلهما جابر، فيغيّر لدهم مُكرهاً قناته المفضلة إلى أخرى رياضية ويتظاهر بمتابعة مباراة كروية فهو لا يريد أن يتفطن إليه ابنه على أنه من هواة هذا النوع من الأفلام المثيرة للأحاسيس والعواطف وهو الذي طالما حذره من مشاهدتها حتى لا يتسخ عقله فتفسد عليه دراسته وما حفظه من سور القرآن بالمدرسة القرآنية في مسجد الحي.

يخاطبها لدهم:

-أين وجهك الذي ذهبت به إلى العرس وأين اختفى فستانك الجميل وعطرك الفواح الذي زكم أنفي عندما دخلت إلى البيت؟

تلكزه بمرفقها لكزة قوية على جنبه، ثم تأمر طفلها:

- جابر آتني بكوب من الماء.

يخرج الطفل وينشغل في المطبخ ببعض الأشياء، فترد عليه غاضبة:

-ألا تخجل من نفسك وأنت في هذه السن تراودني على نفسي بألفاظ يفهمها حتى الطفل الصغير. عندما دخلت نزعت كل ما كان على جسمي من مظاهر الحسن المزيف حتى أحول دون عودتك إلى

المراهقة المتأخرة، فلا توسوس لك نفسك بمطاردتي أمام الأولاد. لا تنس أنهم كبروا ويفهمون كل شيء.

-سبحانه مغير الأحوال ! ألا تتحرك في داخلك لويزة الشابة العاشقة التي طالما أغرمت بي مثلما أغرمت بها؟

-ذاك زمن ولّى وهذا زمن آفل!

-ألم يبق زمن حي بين الأزمنة الميتة؟

- (تقهقه) أنت تحلم!

-ربما، ولكني ما زلت كما أنا لدهم، توهج الشباب يجري في عروقي رغم كبر سني؟

وهما في حدة النقاش، يدخل الطفل جابر دون أن يأتي بكوب الماء. يبدو أنه نسيه كما نسيته لويزة أيضا. يطلب الطفل منهما أن يتحولا إلى مائدة الطعام في بهو البيت لتناول العشاء الذي أعدته حياة.

كمن أنقذها من الغرق في أسئلة لدهم، تغتنم فرصة النداء لتناول العشاء فتقوم من مكانها وتغادر الصالة ويلتحق بها لدهم يجر أذيال الخيبة أمام عجزه عن إعادة بعث الدفء في خليجها المتجمد.

يفكر لدهم فيما حصل بينهما منذ شهرين حينما أصيب بنزلة برد حادة بسبب هواء المكيف. في الواقع، هو يستطيع أن يجلس أو

يتناول طعامه في غرفة مكيفة، ولكنه لا يطيق النوم فيها، فلديه حساسية من البرد ويفضل الركون في غرفته دون تشغيل جهاز التكييف أو الركون في رواق منزو من أروقة البيت هروبا من مواجهة هواء المكيف على العكس من لويزة والأولاد.

لويزة تزوره في غرفته لدقائق ثم تتذرع بأنها لا تطيق-مثله- حرارتها، وتطلب تشغيل المكيف بمبرر أنها تخشى أن يغمى عليها أو يرتفع ضغط دمها بسبب الحرارة. وعندما يرفض طلبها حفاظا على صحته، تجدها فرصة، فتغلق عليه غرفته وتغادره إلى حيث يشتغل جهاز التكييف في بهو البيت، فتجتمع مع أولادها أو بعض جاراتها اللاتي صرن يكثرن من الزيارات خاصة الجارة كريمة التي ترملت بعد وفاة زوجها.

لويزة كانت في السابق وقبل أن يشتروا جهاز التكييف تتحمل أكثر منه الحرارة الشديدة، بل إنها وفي مرات عديدة تطلب منه توقيف تشغيل المروحة حتى يقتصدوا الكهرباء، ولكنها اليوم تزداد نفورا منه. في قرارة نفسه، يرفض الاقتناع بوجود هذا النفور العاطفي، كما لا يريد أن يتهمها باطلا بالنشاز مادام لا يعرف بالضبط السبب. فهل يرجع ذلك إلى فتور عواطفهما تجاه بعضهما بعضا، أو إلى تقدم السن، أو بسبب مرحلة سن اليأس التي تغير مزاج المرأة التي

تجاوزت عقدها الثالث. بعد تساؤلات بينه وبين نفسه، يميل إلى الاعتقاد بأن سبب فتور عواطفها ربما يعود إلى الروتين والسأم من هذا الرجل الذي صارت تحسه جبلا ثقيلا رازحا على صدرها وممتدا كنهر جاف في حدائق حياتها؟

(9)

يغادر البيت ويتجه نحو المقهى ليتخلص من أتعابه اليومية التي يعيشها مع لويزة في جو مكفهر من التذمر والتنافر والعناد. الأولاد صاروا يعرفون هذا السلوك النشاز بينهما من خلال ارتفاع أصواتهما في وجه بعضهم بعضا لأسباب تافهة أحيانا. لدهم يجد في المقهى كل الراحة مع عمي علي صاحب المقهى. هو أيضا في مثل سنه ولا يجد في بيته من يفضفض إليه بانشغالاته وهمومه، فامرأته التي عمّ رأسها المشيب تعيش في واد مع انشغالاتها وهمومها وهو في واد آخر منشغل بالمقهى، فلا يلتقي بعجوزه سوى على مائدة الطعام أو عند النوم. لذلك يفضفض عمي علي بكل ما عنده إلى لدهم خاصة خصومات أولاده المتزوجين مع زوجاتهم التي لا تنتهي حيث يتحول إلى قاض يطرحون عليه مشاكلهم. عمي علي لا يخفي ميله إلى إعطاء الأحقية إلى الزوجات على حساب أبنائه الذين يطلب منهم الصبر

لكون العشرة طويلة والكثير من المشاكل يمحوها الزمن وتزول مع السنين وتقدم العمر وكبر الأولاد.

يتحدث عمي علي إلى لدهم بهذا الكلام ويكشف له في نفس الوقت بأن أبناءه غالبا ما يكونون على حق في منع زوجاتهم من الإكثار من زيارة أهاليهن أو الرغبة في الخروج إلى الأسواق في أي وقت لاقتناء مستلزماتهن من الثياب والزينة من المحلات النسائية. عمي علي لا يريد أن ينقطع حبل الود بين أبنائه وزوجاتهم فيخشى الانفصال بينهم؛ فهو وإن كان يستطيع السيطرة على أبنائه وإجبارهم على طاعته، فإنه بالمقابل لا يستطيع التحكم في زوجاتهم؛ لأنهن بنات أناس محترمين ويجب تقديرهن حتى لا يغضبن فيتركن بيوتهن ويلجأن إلى المحكمة لطلب الطلاق أو يقمن بخلع أزواجهن إن رفضوا الانفصال.

لدهم يحس أنه ولويزة من هؤلاء الأزواج والزوجات الذين يتحدث عنهم عمي علي ولو بصورة مختلفة. يتساءل في نفسه.. لماذا يعبر بعض الأزواج لزوجاتهم عن حبهم الصادق الجارف منذ الليلة الأولى للزفاف أو قبلها عند الخطوبة أو حين التعرف على بعضهما، ثم إذا مرت أشهر قليلة أو سنة أو بضع سنوات ينقلب الأمر كله إلى العكس، فيعجز أحدهما أن يعبر للآخر بلفظة (أحبك) ولو يرسلها

مجاملة من الشفاه إن لم تكن من القلب؟ ألا يقال إن الحب هو صمام الأمان لعش الزوجية فيحميه من الانهيار؟ أم أن هؤلاء الأزواج والزوجات يكذبون على بعضهم بعضا وإنما يتظاهرون بالحب ليقضي كل طرف منفعته من الآخر؟ الفقيرة الجميلة تطمع في مال الغني فتقبل به من أجل أن تعيش في السكن الفاخر وتركب السيارة الفارهة وتطرد لعنة الفقر التي كانت تلاحقها لولا هبة الجمال التي منحها الله إياها وكانت سببا في تمكينها من صيدها الثمين. والغني يطمع في ابنة الغني ليزيد من ماله، وصاحب الجاه يطمع في ابنة نظيره الذي قد يكون فقيها مشهورا، أو مسؤولا حكوميا أو شخصية اجتماعية معروفة ليزيد من نفوذه وتوسيع دائرة معارفه. جميعهم طماعون ومتلهفون إلى ملذات الدنيا على حساب ما يدعونه الحب. إذا انقضت المنفعة أو لعبت طوارق الزمن بأحدهما كأن يفلس الغني أو يتبدد جمال الزوجة، تندلع المشاكل في البيت وتحل الكراهية محل الحب الزائف ويظهر كل طرف على حقيقته، فيحدث الانفصال بين الطرفين ويتشتت الأبناء، فيعيد البعض الزواج أو يصبرون على العيش مع بعضهم بعضا مكرهين من أجل الأولاد أو من أجل حكم القرابة والعرف السائد بينما هم في الحقيقة ممزقي العواطف.

لم يفتأ لدهم أن يعود بتفكيره إلى بيته حيث لويزة التي تركها تستعد إلى الخروج مع جارتها كريمة إلى محلات السوق لاقتناء بعض الحاجيات. يقول في نفسه.. لكنني ولويزة تزوجنا عن حب عمر بيتنا سنين طويلة.. نحن لا ننتمي إلى عائلات من ذوي الجاه ولا الأغنياء ولا المسؤولين الحكوميين! فأين اختفى هذا الحب؟

يتوقف عمي علي عن مواصلة الكلام وهو يلاحظ أن لدهم غارق في التفكير وغير متجاوب مع حديثه لا بالتعليق سلبا أو إيجابا. عندها، ينتبه لدهم وينظر إلى عمي علي ويومئ إليه برأسه موحيا إليه بأنه منصت لحديثه الذي انتقل إلى محطة أخرى مختلفة تماما حيث راح يروي حادثة عمل وقعت له أثناء شبابه عندما سقط من رأس حفارة بترول في شركة نفطية.

يدرك لدهم أنه فعلا كان غائبا بتفكيره عن عمي علي، فلم يعرف كيف انتهى كلامه عن أبنائه وزوجاتهم ولا كيف بدأ حديثه عن ذكريات عمله في الشركة النفطية. يعرف أن عمي علي من نوع الرجال الذين يتحدثون باستمرار عن كل شيء يعن في رؤوسهم ولا يتركون لسامعيهم فرصة الكلام. لا يلبث لدهم إلا ثوان قليلة ويسرح مجددا بتفكيره وتساؤلاته عن حقيقة الحب بينه وبين لويزة.. هل هو موجود فعلا ولكنه عجز عن حمايتنا من نزاعاتنا اليومية؟ هل أن

نسخة الحب الأول التي عرفناها في شبابنا أضحت قديمة لا تساير مرحلة العمر هذه، وهي الآن تحتاج إلى تحديثها بنسخة جديدة؟ ولكن كيف؟ يضحك على نفسه.. تحديث الحب.. هه.. هه.. صار الحب عندي كجهاز إلكتروني قابل للتحديث والتطوير بنسخة جديدة.. يا للتفاهة!

(10)

هذه المرة قضت المصلحة بين الأطراف أن يرافق لدهم لويزة وجارتها كريمة إلى المحلات التجارية بسوق المدينة. هو يريد أن يقتني حذاء وقميصا جديدين، وهما لشأن آخر لم يشأ لدهم أن يسألهما عنه، وفي ظنه أنه لن يخرج عن بعض مستلزمات البيت من مواد التنظيف أو الحاجيات النسائية. طوال الطريق، والجارتان لا يكف لسانهما عن انتقاد ما يصادفان من رجال ونساء خاصة الفتيات المراهقات اللاتي يطلين وجوههن بالمساحيق ويمشين شبه عاريات فيما يبدو الرجال راضين عن هذا الوضع الذي زرعته المدنية ولم يحركوا إزاءه ساكنا، إما لأنهم راضون بذلك تماشيا مع العصر، وإما أنهم يفتقدون إلى الأفكار التي تجعلهم يخففون من هذا الواقع إذا كانوا غير راضين عنه.

لدهم يفضل التزام الصمت وتجنب انتهار لويزة عن تعليقاتها السلبية تجاه ما تراه أمامها، فهو لا يريد أن يثير معها نزاعا في الشارع فترد عليه بما يكره بعد أن صارت لا تطيق منه أي انتقاد يصدر منه نحوها.

في أحد شوارع السوق، يتوقف لدهم أمام محل للألبسة ليسلم على نور الدين، بن صديقه عمي علي الذي كان ير افق زوجته الجميلة. لويزة كان من المفترض أن تواصل طريقها مع الجارة إلى حيث محلات النساء وترك لدهم لحاله. لكنها تتوقف هي الأخرى وتضغط على يد الجارة لتتوقف أيضا.. لم تدم فترة التوقف سوى دقائق قليلة لم تتعد التسليم والسؤال عن البيت وعن والده عمي علي إلا أن لويزة كانت عيناها مثبتتين على زوجة نور الدين التي تراها ملاكا يقف أمامها. تقدم نفسها إلى لدهم وتذكر له بأن صهرها حدثهم عنه كثيرا وبأنه من جلسائه المبجلين في المقهى.

عندما تلاحظ لويزة رد لدهم المهذب (متشرف مدام إلهام.. مرحبا بك وبنور الدين في بيتنا)، تحملق بعينيها وتروح على الفور تسترق النظرات لتر اقب مدى تجاوبه معها وكيف يحدق بإمعان في جمالها وهي تردد في داخلها.. لدهم لا شك يجد المتعة فيما يراه وإلا لكان قد سلم سريعا ومر لحال سبيله.. إنهم الرجال لا ثقة لهم ولا

وفاء.. بالتأكيد أن هذه المرأة متسلطة على زوجها المستكين لها ومتفتحة إلى حد بعيد لأنها من بادرت بتقديم نفسها إلى لدهم دون خجل، بل وكادت تقبل خديه لولا تراجع لدهم قليلا إلى الوراء.

تغمز لويزة إلى كريمة ثم تعيد في نفسها بتهكم كلمات لدهم وهو يرحب بهما.. (متشرف مدام.. مرحبا بك وبنور الدين في بيتنا).. إنه رخص الرجال.. الساقطة المتسلطة! لم تمهل حتى زوجها ليقوم بتقديمها، فسارعت إلى تقديم نفسها.. تتهم لدهم في دخيلتها.. من المؤكد أنه نسواني.. يحب الحديث إليهن ويرتاح إلى غنجهن ودلالهن.. لا شك أنه يلتقي خارج البيت بهذا النوع من النساء، يشبع منهن عواطفه التي تجمدت نحوي.. نسواني يشبه شقيقي عبد الواحد الشاب.. هو أيضا يحب الحديث مع النساء ويتودد إليهن.. لا.. لا.. عبد الواحد ليس نسوانيا مثل لدهم.. عبد الواحد مختلف تماما.. خواطره طيبة مع النساء.. هذا ما يقال عنه في بيتنا.. تحبه النساء، فيأتين ويتحلقن حوله ويبادلنه أطراف الحديث. عبد الواحد تحبه النساء أما لدهم فيحب هو النساء.. هذا هو الفرق.. تراقبه مرة أخرى وهو يتحدث مع إلهام فيما زوجها واقف يستمع ولا يصدر منه سوى بعض كلمات المجاملة مرة على مرة. تتوقد نارها في داخلها فتوشك أن تلتهم قلبها وأوصالها.. تحنق على لدهم فتشده من ذراعه

وتجذبه بقوة باتجاه طريق محلات النساء وتطلب منه أن تتبعه لأن الوقت ضيق ولابد أن تقتني والجارة مستلزماتهما والعودة إلى البيت قبل منتصف النهار. يفهم لدهم غيرتها غير المبررة ويجيبها بأن مكان وقوفهم الحالي هو نقطة افتراق مساراتهما، هي في مسار مع جارتها كريمة نحو محلات النساء وهو في مسار آخر نحو محلات الرجال، ومع ذلك تتمكن لويزة بحركتها وتغيير مجرى الحديث أن تفرق جمعهم وتجعل الزوجين الشابين يستأذنان بالمغادرة.

(11)

تتنقل الجارتان بين محلات مواد التجميل. يشتريان عدة علب من مساحيق الزينة ذات العلامات المختلفة، وكمية من قارورات العطر والمراهم المخصصة لصباغة الشعر وترطيب الجلد. بعد ساعة، تتجهان إلى شارع محلات ملابس النساء حيث تطيلان الفرجة والمقارنة بين الألبسة ويبحثن عن جديد الموضة، ثم ينتهي بهما التجوال إلى أحد المحلات.. فساتين جميلة بألوان مختلفة ومتنوعة لآخر الموضات.. جميع فئات النساء يجدن ضالتهن.. البنات الصغيرات والفتيات المراهقات.. العرائس.. والعجائز.. كل شيء متوفر.. حتى الفقيرات عليهن أن يتدبرن أمرهن ويشترين ما تشتريه نساء الأغنياء.. عادة نساء العائلات الغنية هن من يشترين كل جديد

وغال ويزرعن الموضة الجديدة وما على نساء العائلات الفقيرة سوى الانصياع والتقليد.

في أحد المحلات تتفقد لويزة رواق الفساتين فيما تختار كريمة رواق الألبسة الداخلية. عليهن أن يجدن ما يبحثن عنه من فساتين للعرائس وسراويل وتنورات قصيرة وقمصان كاشفة للبطن وصدريات من كل الأحجام وأحذية براقة ذات كعوب عالية ومستوية.

الجارة كريمة أرملة بزناسية تعيش في بيتها مع أبنائها الصغار. بعد وفاة زوجها، عولت على نفسها في رعاية أبنائها بممارسة البزنسة في المستلزمات النسوية، وقد تعلمت ذلك في شبابها من أمها التي كانت دلاّلة ماهرة تشتري وتبيع وتربح. كريمة كان ينقصها بعض المال فأشركت معها لويزة مستغلة نفورها من زوجها الذي لم تعد تعطيه كل وقتها مثلما كانت تفعل من قبل. استطاعت كريمة أن تقنع لويزة بأن الرجال لا يدومون للنساء، بل يدوم لها أبناؤها وجيبها الذي يجب أن لا يفرغ من المال. تمكنت من أن تغرس في رأسها فكرة أن كل ما يربط المرأة بزوجها ورقة عقد وحسب، سرعان ما يمزقها الطلاق، ولا يبقى سواها و أبناؤها مع ما رصدته من مال وذهب لوقت الشدة. أما الزوج وبمجرد الانفصال، فإنه يتزوج غيرها. أمطرتها بقصص نساء

مطلقات وهن في سعادة غامرة مع أبنائهن في بيوتهن أو في بيوت عائلاتهن. ذكرت لها أنها تعرف الكثير من الأرامل اللاتي يعشن في حبوروجدن الراحة بعد أن انفصلن عن أزواجهن وقطعن بأنفسهن حبل الشر الذي كان يربطهن بهم.

في محل رياض، يعتبران زبونتين دائمتين منذ أكثر من سنة. لذلك، هما مرتاحتان مع رياض ويتبادلان معه أطراف الحديث إلى درجة أنهما يرويان له بعض النوادر الساخرة فينفجر و إياهن ضحكا. كريمة دربت لويزة على استعمال هذا الأسلوب في المعاملة مع رياض حتى يألفهن أكثر من أجل أن يخفض لهما أسعار المشتريات. في الحقيقة، رياض تعود أن يقبل بصدر رحب أن يساعدهما بتخفيض مناسب للسعر يحصلان معه على هامش معتبر من الربح عند إعادة تسويق هذه السلع لفتيات ونساء الحي بعد أن اتخذت كريمة من صالة بيتها محلا للبيع. نساء وفتيات الحي وبعض الأحياء القريبة لا يستطعن الذهاب بأنفسهن إلى السوق لشراء ما يحتجن إليه مخافة التحرش بهن، أو خشية أن تطال الألسن المساس بشرفهن أو بسبب منعهن من زيارة الأسواق بمفردهن. وهكذا، يجدن في بيت كريمة كل ما يرغبن فيه ولو بأسعار باهضة.

يقتربان من رياض وفي أيديهما رزماً من مواد التجميل والألبسة.

تتكلم كريمة في نبرة مدللة:

-رياض.. لابد أن تخفض لنا السعر أكثر حتى يكون هامش ربحنا معقولا.

- المحل محلك مدام كريمة.. إن شئت لا تدفعي إلا بعد أن تبيعي السلعة.

- أنت والله طيب وبن حلال.

- أريد فقط تسجيل ما اشتريتماه حتى أعوضه بمشتريات جديدة.

يلتفت إلى لويزة مبتسما:

-مدام لويزة.. ذاك فستان جميل يناسب قوامك، فأنت تبارك الله جميلة وهذا الفستان يظهرك أجمل.

تخفض لويزة عينيها ثم ترفعهما نحوه وتبادل ابتسامته بابتسامة عريضة ردا على مجاملته. تضحك كريمة وتقول لهما في صوت مسموع يحمل أكثر من دلالة (ما كل هذا الاطراء؟!). لا يلتفت إليها رياض وينشغل بلويزة. يقودها إلى حيث الفستان الأصفر ذي الخطوط الزرقاء والحمراء والشارات المتلألئة، يأخذه بين يديه

ويضعه على قوامها من الأمام ومن الخلف وعلى جانبيها وهو يحاول إقناعها بأنه مناسب لسهرات الأعراس. يغمز إلى كريمة التي تتابع المشهد بأن تدعمه في إقناعها بأخذه. أمام إلحاحه، لا تجد في النهاية سوى شرائه. في الواقع، أعجبها الفستان كما أثارتها عبارات الإطراء التي أغدقها عليها رياض، فحتى لو لم يحاول إقناعها، لكانت قد أخذت الفستان؛ لكونه من آخر موضة وعليها أن تتباهى به أمام صديقاتها وجاراتها في أقرب فرح قادم.

لو كان رياض شخصا غريبا لكانت قد صرخت في وجهه واتهمته بالتحرش، ولكنها ألفت أسلوبه في الكلام وأحسنت الظن به؛ فهو يعامل جميع النساء والفتيات بهذه الطريقة لكي يبيع المواد المعروضة. أخبرهما بحكم الألفة التي صارت بينه وبينهما بأن بعض الفتيات والنساء يتأثرن بكلامه، فيتوددن إليه ويطلبن منه المواعدة سرا وبعض الشابات المتزوجات اللاتي علاقاتهن ليست على ما يرام مع أزواجهن يعبرن له أحيانا عن حبهن واستعدادهن لخلع أزواجهن ثم الزواج به لو يريد ذلك. لكن رياض شاب محترم لا يريد أن يسيء إلى سمعة محله التجاري وينكسر أمام منافسيه ويتعرض للإفلاس بسبب بعض النسوة المارقات.

وهما في طريق العودة تقول كريمة للويزة:

- رأيت كيف يبتسم رياض في وجه كل امرأة وفتاة تدخل المحل؟

- إنه يبتسم للجميع.

تتذكر كريمة زوجها الراحل:

- ليت كل الأزواج مثل رياض.

يمر لدهم بخاطر لويزة:

- صحيح، هؤلاء الباعة بشوشون، مؤدبون، تفوح قلوبهم عطرا وتنطق ألسنتهم عسلا. لو يعود الزمن إلى الوراء، لاخترنا أزواجا مثل رياض، ولكان لنا طريق آخر في الحياة.

تفهم كريمة بأن جارتها إنما تعبر عما تعيشه من مشاكل في حياتها مع لدهم، ولديها خيارات كثيرة مفتوحة أمامها.

الفصل الثاني

(1)

يلاحظ لدهم أن لويزة صارت كلما تقصد عرسا من الأعراس، تكثر من استعمال العطور والمساحيق وترصع بالمعدن النفيس ذراعيها و أناملها بشكل لافت. تظهر في كل مرة بفستان جديد وحذاء ذي كعب عال بألوان مزركشة يزيد في طول قامتها. تضع على أذنيها قرطين فاخرين من الذهب مرصعين بالنياشين، وعلى رقبتها يتلألأ عقد ثمين تتدلى من وسطه حجرة كريمة بر اقة بشكل العين تعتقد لويزة بأنها طاردة للحسد، بل وأضحت حزامتها الذهبية العريضة غالية الثمن ملازمة لخصرها الممتلئ. الأولاد يستفيدون أيضا من هذا الثراء البادي عليها، تمدهم بألبسة وأحذية جديدة، وألعاب ودراجات، كما تمنحهم شيئا من النقود كمصروف يومي، وصاروا يفرحون بأمهم أشد الفرح. مائدة الطعام صارت مع الأيام مليئة بكل ما لذّ وطاب من الأكل والشراب.

لدهم يفضل النأي بنفسه عن عطاياها. ولكنها في هذه المرة، تصر على طلبها في التكرم عليه بأي شيء يرغب فيه.

- لدهم. أريد أن أهديك أي شيء تحبه. فاطلب ما تريد؟

- يبدو أنك تربحين كثيرا من مشروعك التجاري بالشراكة مع والدك وأمك وشقيقك عبد اللطيف المهاجر في فرنسا.

- لولا شقيقي عبد اللطيف الذي أقرضني -كما أخبرتك سابقا- مبلغا معتبرا من المال ما استطعنا فتح المحل التجاري لبيع الألبسة النسوية التي تسيره شقيقتي بجوار بيتنا في مدينة أهلي.

- لكني أراك تبذرين كثيرا أموالك على نفسك، وكل هذه الحلي والألبسة التي تشترينها كان يفترض أن توفري مبالغها لوقت الشدة أو أن تستثمريها في مشاريع نافعة.

- ما أفهمه هو أنك ترفض عرضي إليك. المهم يجب أن تعرف أني لم أتجاهلك وما زلت أرغب في أن أقدم لك أي مساعدة مالية. كما أني مستعدة لشراء سيارة لك. أقصد لنا جميعا.

- تعرفين بأن راتبي يكفينا ولا حاجة لنا بكل هذا الأموال التي تبذرينها في كل هذا البذخ.

عندما لا يستجيب لرغبتها، تنصرف من أمامه. لدهم يرفض هداياها ربما لأنه لا يريد أن تتملكه بأموالها التي يعتبرها رشوة فيذلّ

أمامها خاصة وهو يلاحظ بأن مظاهر البذخ الطاغية عليها حولتها إلى امرأة أخرى لا يكاد يعرفها. المال سلطان وهو لا يريد أن يكون عبدا لهذا السلطان المستبدّ بلويزة التي صارت مخيفة حقا. وها هي لم تعد تلقي إليه بالا، وأحيانا لا تستأذنه عند خروجها من البيت كما كانت تفعل من قبل. وإذا كان هو خارج البيت، فإنها تغادره نحو أي وجهة ترغب فيها كالسوق أو بعض الجيران.

إذا تساءل أمامها عن سبب خروجها في غيابه ودون استئذان، تعطيه أي إجابة سواء اقتنع بها أم لم يقتنع. تجيبه حينا بأنها كانت عند كريمة جارتها لتغيير الجو ولكسر الروتين، وحينا آخر بأنها اضطرت إلى الذهاب إلى السوق لاقتناء بعض الحاجيات المنزلية أو إلى الصيدلية لشراء بعض الدواء، وهكذا مبرراتها حاضرة دائما على لسانها. ولكنها عندما تعود إلى البيت، كان يستطيع أن يعرف من علامات الإرهاق واللهاث البادية عليها ورغبتها في أخذ قسط من الراحة أو النوم بأنها كانت منشغلة بأشياء أكبر مما تقوله وبأنها قطعت مسافات طويلة.

لدهم وإن كان يعرف بأن هذا المحل التجاري لدى أهلها موجود فعلا وقد عاينه بنفسه في مناسبة زار خلالها صهره، فإنه مع ذلك، لم يقتنع بأن هذا النشاط التجاري له كل هذا المردود من

الأرباح التي قلبت لويزة رأسا على عقب مع أن المحل التجاري –كما شاهده- متواضع وفي حي شعبي بعيد عن الشوارع الرئيسية العامرة بالحركة.

في هذه المرة يُصعّد لهجته:

- لويزة.. صار لا هم لك إلا نفسك، أنت تهدرين أموالك، ولا أظن أن أهلك يقبلون بما أراه فسادا.

- وما دخلك في هذا؟ إنهم يعطوني حصتي من الفوائد كل ثلاثة أشهر، وهو حقي و أنا حرة في التصرف فيه.

- ولكن هذا التبذير يفسد عائلتنا. أنت مهتمة أكثر بنفسك وبالأولاد وتغرقينهم بهداياك، وبالمقابل، أنت تهملينني وتجعلينني كأنني شيء من أشياء البيت، فلا وقت لديك لمجالستي، وكأنه لا يوجد لك زوج في البيت له حق الزوجية.

- (تقهقه) حق الزوجية؟

- تتصرفين خروجا ودخولا وغيابا عن البيت وكأنه لا يوجد رب للبيت.

- وأنت أيضا، قد أصبحت دائما مكفهر الوجه، شديد الصراخ، تثير الفزع في نفسي بانتقاداتك المستمرة.

- أنت لا تتحملين صوتي عندما أتوجه إليك بالعتاب أو التوبيخ عن بعض تصرفاتك خاصة كثرة خروجك من البيت دون إذن مني، أو عندما ألومك على التزين الباذخ بما يخالف شخصيتك الحقيقية التي كنت أعرفها.

- الحقيقة، أنك فارقت ربيع الحياة من زمن طويل، فلم تعد تهتم بهندامك وجديد لباسك وعطورك حتى أنجذب إليك، كسابق عهدي كنحلة طوافة بين الأزهار تمتص الرحيق.

- لويزة.. هذا عناد وتمرد منك.. كنا من قبل في أرغد عيش على قدر حالنا، ولكن الآن لا أدري ما الذي يدور برأسك بعد عشرة طويلة هادئة؟

- الزمن تغير وأنت لم تتغير، ومن لم يركب موجة الزمن عصف به التيار نحو قاع البحر.

- تقصدين أنك تعيشين في بحبوحة عصر جديد وأنا أتخبط في عصر آخر قديم؟

- هذا أكيد

لا تتركه يرد عليها وتغادره وهي تتمتم بأشياء غير مفهومة فيما يتجمد الكلام على لسانه ويتجهم وجهه وفي قلبه حنق كبير. يقول في نفسه.. لا شك أن لويزة نشزت.. صارت تتباهى علي بسطوة مالها..

يقال إن المرأة عندما ينبت فيها ريش المال، تتجبر وتتكبر وتتمرد.. لعل هذه نقطة الضعف التي تصيب المرأة المتزوجة في مقتل، فتزدري زوجها وتهدم بيتها وهي تعتقد أنها ترفع بناءه وتعززه.. ولكن ماذا يفعل الرجل أمام تمرد امرأته؟ هل يقابل جبروتها بالضعف والاستسلام ويصبر على تسلطها مع شعوره بالمذلة والإهانة من تصرفاتها؟ أم يقابل سطوتها بالطلاق أو بالعنف الشديد لإعادتها إلى رشدها أمام فشل اللين والإقناع؟

في غمرة التساؤلات التي تنخر رأسه، تتحرك في دخيلته نخوة الرجولة ويقرر أن يظهر لها رجولته وأن يفهمها بأنها وإن استقوت عليه بالمال، فهي مهما كانت امرأته. لحسن الحظ لا أحد في البيت سواهما. حتى وإن علا صوته فلا يسمعه الأولاد الذين قد يجنحون إلى صف أمهم التي عودتهم على أن تعطيهم ما يشاؤون من المال والهدايا وتحقق رغباتهم وأن لا ترد عليهم طلباتهم المتكررة لدرجة أنهم صاروا وأمهم كيانا واحدا شبه منفصل عنه.

يتمالك نفسه ويكتم غضبه. تتحرك في داخله بقايا عاطفة قديمة تجاهها فيستعيد بعض أيامه الماضية الجميلة. ينادي عليها بهدوء.

– لويزة.. حبيبتي.. اقتربي مني.

تتفاجأ بهذا النداء العسلي، وبهذا الحب الذي يحاول لدهم أن ينفخ الروح في جذوته المنطفئة.

– لدهم.. هيا من الآخر، ماذا تريد؟

يشدها من ذراعها ويمسح بكفه على رأسها متوددا ويتحسس جسمها لعل فيه بقية عاطفة، ولكنها تدفعه بعنف بعيدا.

-ابتعد عني.. لا أريدك الآن.

يتصارع طرفان في داخل نفسه. لا يدري من منهما يصارع الآخر من أجل فك قيوده التي تكبل رقبته ويديه وقدميه؟ هل هو لدهم الزوج أم لدهم الرجل القائم عليها وعلى أولادها؟ ولكنه في كل الأحوال لدهم.. نعم لدهم.. لا يهم إن كان الزوج أم الرجل القائم عليها. يدرك بأنها خاوية تماما من أي مشاعر نحوه، ومع ذلك، يشدها بعنف من ذراعها ويرميها بقوة على السرير وهو يقول في صوت هادر بالفحولة:

- إنه الواجب الزوجي.

لم تقدر على الحركة وخارت قواها لهول القبضة والمفاجأة التي لم تتوقعها. بعد مدة، تقوم متثاقلة وتتوجه إلى المطبخ لتحضير وجبة الغداء فيما لدهم يغادر البيت نحو المقهى. تقول في نفسها غاضبة.. عليه اللعنة.. الوحش افترسني.. كنت في شبه غيبوبة فلم

أقدر على مقاومته.. إنها المرة الأولى التي يتصرف فيها لدهم بهذه الوحشية.. هل ما يسميه الواجب الزوجي يتطلب كل هذا العنف؟ قبل أن يفعلها، كنت أسخر من تودداته وتحرشاته وفي ظني أنه لن يقربني.

تفكر في ماضيها معه.. كنت قبل سنوات أقبل عنفه ووحشيته عندما ينقض عليّ كفريسة مطواعة جاهزة للافتراس.. كان ذلك العنف يحدث في غمرة من العواطف الجياشة.. أما اليوم فقد تحولت إلى قطعة من الثلج، تجمدت عواطفي نحوه، ولم أعد أطيق عنفه ولا ودّه، بل صرت أشعر به يؤلمني حتى عندما يلمس يدي أو يقبّل خدي مسلما في مناسبة فرح عائلي أو عيد من الأعياد أو عودة من سفر.

(2)

حالة التمرد تصير ملازمة لها. عندما يطلب منها كوبا من الماء أو تحضير مائدة الطعام أو البحث عن شيء خاص به في البيت، فإنها تتظاهر بعدم سماعه وتترك المهمة لغيرها من أبنائها ممن يكون في البيت؛ ربما لأنها تعتقد أن الأمر عاديا حينما يحل غيرها مكانها في هذه المهام التي تراها صغيرة ويراها لدهم كبيرة لارتباطها بقلة الاحترام والاحتقار.

من قبل، كانت لويزة تسارع إلى الاستجابة لطلباته والعمل على إرضائه، بل إنها كانت تسأله ما إذا كانت في نفسه حاجة إلى شيء حتى تقوم بخدمته. أما اليوم، فإن حالها يتغير. الرفض الذي تبديه لكل ما يسديه نحوها من إرشاد ونصح، يجعله يفكر جديا في الخطر الداهم الذي يتهدد الأسرة.

في سنوات الزواج الأولى، كانت لويزة تملأ نهمها اليومي وتشبع عقلها وعاطفتها من كل ما تراه وتسمعه من لدهم، حتى أنها لم تكن تمل من تكرار اسمه ومدحه أمام جاراتها وصديقاتها. كانت تردد أمامهن أقواله التي تصفها بالحِكم، كما تسرد عليهن سيلا من القصص والحكايات بما فيها الخرافية التي اعتاد أن يرويها لها من باب التسلية والاعتبار. عندما تزوجته لويزة جاءت من بيت أهلها

شبه إناء فارغ، وراح يمتلأ شيئا فشيئا من معين أقوال و أفكار وتصرفات لدهم. كثيرا ما قالت له أن صديقاتها يحسدنها عليه كلما امتدحته أمامهن عن قول أو فعل طيب يصدر منه. طالما ذكرت له أنها لا تدري هل كانت على صواب أم خطأ حينما تحكي لهن عن مو اقفه الشجاعة، فيسخرن منها، وكانت ترد عليهن بأنهن غيورات منها لكونها تحب كثيرا لدهم -سيد رجال الحي- كما تصفه أمامهن.

هن لا يحكين كثيرا عن أزواجهن في حلقاتهن ويكتفين بسرد ما تناقلته آذانهن من أخبار الحوادث كالوفيات والأمراض وحوادث السيارات، والخطبة والزواج والولادة بما فيها ما يصلهن من أخبار العلاقات السرية بين الفتيات والفتيان وبعض المتزوجات مع متزوجين وعزاب.

لدهم كان يسره أن يسمع منها ما يبدر منها في حلقات النساء ويفرح في داخله من كلامها الطيب عنه أمامهن مما يدل عن عميق حبها له، وعادة ما كان يقبلها كتعبير منه عن ردة فعله إزاء مشاعرها الصادقة نحوه.

لكن ها هي لويزة اليوم تتلبس امرأة أخرى. تتحول من مُحبة قنوعة إلى كارهة له ومتمردة عنه دون أن يقوم نحوها بفعل ما يسيء إليها. يفكر مرة أخرى في الخطر المحدق بهما ويوشك أن يمزق أوصال

الأسرة. تُظهر تصرفاتها أنه صار لا يهمها أن تقطع حبال المحبة بينهما. لا يشغل بالها أن تتشتت العائلة، ولا المحافظة عليه، حتى لو يؤدي ذلك إلى الانفصال والزواج بغيره، أو يتزوج هو غيرها بعد أن بلغ منها التمرد والعناد كل مبلغ.

يقول في نفسه.. لابد أن أجد طريقة لإصلاحها وإصلاح ذات بيننا.. يغتنم فرصة وجودها في الصالة تشاهد برنامجا تلفزيونيا حول حياة فنان عاطفي تحبه، فيقترب منها وهي في أوج متعتها وفي اعتقاده أنها تقبل عرضه.

-لويزة ! ما دمت ترفضين أي إرشادات ونصائح مني، ما رأيك في أن نقوم جميعا مع الأولاد بمتابعة دروس ودورات في التنمية الذاتية والتربية الأسرية بأحد المراكز القريبة، فنحن بحاجة إلى أن نضخ في عقولنا ونفوسنا ما يفيدنا من لدن خبراء لتجاوز مشاكلنا وتعزيز إرادة حلها والتمتع بحياة أجمل؟

-لسنا بحاجة إلى ذلك، على الأقل بالنسبة لي. أنا ما بي شيء ولا عندي مشكلة.. أنت ربما تعاني من المشاكل، فاذهب واخضع للاستشارات النفسية وتابع تكوينا في تطوير الذات.

في لهجة حازمة يرد:

-ينبغي أن يتابع جميعنا هذه الدورات التكوينية السهلة عساها تحول عتمة بيتنا إلى نوريشع على الجميع.

- ستهدروقتك وتبذرمالك القليل فيما لا ينفع !

-أنا أنفق عليكم لإصلاح ما يمكن إصلاحه، وسيعوضني الله على إنفاقي ولست أهدرمالي عبثا وما هذا بتضييع للمال.

أمام إصرار لدهم، يخضع الجميع مكرهين وعلى مدى عام كامل لدورات تكوينية حول تطوير الذات.. يتدربون على مهارات التواصل الأسري وفنون المرونة والتعامل وطرق فض النزاعات وتذليل المقاومة عند الخصومات والتخلص من الكبت.

مع الوقت، يبدأ أفراد الأسرة باستثناء لويزة في استشعار تحسن واضح في علاقاتهم مع بعضهم بعضا و أيضا في محيطهم الاجتماعي عندما يتواصلون مع أصدقائهم وزملائهم و أقاربهم. صاروا يعرفون كيف يخرجون من أي مأزق وكيف يؤثرون بأفعالهم و أقوالهم في المحيطين بهم. لويزة لم يظهر عليها ما يشير إلى أنها استفادت شيئا من ذلك. فخلافاتها اليومية مع لدهم تزداد ولم تترك لها الوقت لتصحيح أخطائها. ومع ذلك يحاول لدهم تبرير تصرفاتها المستهجنة مستندا إلى حبه القديم بأنها في أعماقها لا تكرهه، و إنما تسربت إلى نفسها سموم أفكار جاراتها وصديقاتها. هذا يجعله يصر

على إنقاذها وإصلاحها مع علمه أن الأمر ليس سهلا؛ لكونها ليست آلة يمكن تغيير قطعة غيارها التالفة بأخرى جديدة و إنما هي إنسان، والإنسان شديد التعقيد في بنيته العاطفية والعقلية والنفسية والروحية.

تمر بضعة أشهر والحال هو نفسه، لا تغير نحو الأحسن في علاقتهما، بل يزداد الأمر ترديا. صارا لا يبيتان معا في غرفتهما. في موسم الصيف تتذرع لويزة بأنها تفضل قضاء قيلولتها وليلتها بين أبنائها في بهو البيت حيث المكيف من النوع الجيد الذي يحول المكان إلى ما يشبه الثلاجة بسبب ارتفاع درجة الرطوبة. ولولا تدخلها أو تدخل لدهم لرفع درجة حرارته فإن أحدا لا يستطيع أن يستريح أو ينام تحت هواء المكيف.

لويزة تبرر عدم نومها مع لدهم في غرفتهما بأنها لا تريد تشغيل جهاز التكييف هناك اقتصادا للكهرباء وتقليصا للإنفاق، فمكيف بهو البيت كاف وحده لنشر الرطوبة في أرجاء البيت. لويزة تضع الأفرشة بدل الأسرّة على أرضية البهو بحسب عدد أفراد العائلة. لكن فراش لدهم تضعه بطبيعة الحال ولحاجة في نفس يعقوب بعيدا عنها وبجانب فراش طفلها جابر لأنها تعرف أن ابنها يفضل قبل أن يخطفه النوم أن يطلب من والده إسماعه بعض الألغاز والنوادر

والحكايات خاصة نوادر جحا وحكايات الغول والحيوانات. وبالتالي، فهي ولدهم في عطلة جنسية مفروضة طوال موسم الصيف. لو كانت على توافق عاطفي مع لدهم لكانت قد استحسنت الاستراحة والنوم في غرفتها المكيفة، ولكانت انتهرت لدهم لو يفكر في قضاء قيلولته أو بعض ليله مع الأولاد تحت مكيف الهو.

لدهم يراجع بعض أفكاره عندما توسوس له نفسه بأن لويزة لم تعد تحبه ويرفض أن يتصورها كذلك. يعزو ذلك إلى عواطفها وعقلها الذي يكون قد مسه التلوث بأفكار غيرها مع أنها يفترض أن تكون –كما عهدها- ذكية ويقظة على الدوام.

يكلمها مرة أخرى في شيء من التصميم:

-لويزة كان حظك من التعليم يسيرا. ولعله السبب في جعلك لا تضيفين ما يفيدك لاستمرار سعادتنا.. أنصحك بأن تواصلي تعليمك بالمراسلة حتى نيل شهادة البكالوريا، وكذلك، عليك بالانخراط في مدرسة قرآنية لتحفظي شيئا من القرآن وتتلقين دروسا دينية تفيدك في حياتك. اسعي إلى حضور لقاءات النادي النسوي حيث تلقى محاضرات وندوات تثقيفية ذات طابع أسري واجتماعي وتربوي من شأنها رفع مستواك الثقافي لكي تسهمي في تقوية أسرتنا وتربية الأولاد والمحافظة على علاقاتنا وتصحيح ما يجب تصحيحه فيها.

تنتفض لويزة وتسخط في وجهه:

- مستحيل أن أعود إلى الدراسة التي انقطعت عنها وأنا صغيرة بسبب التقاليد التي تمنع الفتاة المراهقة من مواصلة التعليم. أتريدني أن أعود إليها وأنا في هذه السن بعد أن نسيت حتى كيفية الجلوس على المقاعد ولم تعد أصابعي تطاوعني في فتح كتاب أو شد القلم وكتابة اسمي بخط مقبول.

- وماذا عن المدرسة القرآنية والنادي النسوي؟

- ليس لدي الوقت. فالبيت هو المدرسة والنادي.

يصمت لدهم. يبدو الغضب واضحا من عينيه المحمرتين. يوشك أن يلطمها على وجهها المستعر، أو يرمي لها بالطلاق ثلاثا، لكنه يتراجع رحمة بها وبه ويقول في نفسه ..لا شك في أنها مجنونة وهي أدعى إلى الشفقة ولابد له من الصبر الجميل لعل الله يغير حالها البائس إلى حال أفضل.

(3)

لم يجد لدهم بدا من البحث عن طريقة لمقاومة عناد لويزة وإصرارها على تحدّيه بعد أن تبلدت عواطفها نحوه، بل فقدت أدنى ميول تجاهه. بدأ يشعر تجاهها بشيء من الاشمئزاز وعدم تحمل رؤية من تتحرك أمامه وهي كارهة له، وصارت تستأنس بأولادها من دونه،

وتقضي معهم وقت فراغها وتملأه بما يستجد لديهم من أخبار يلتقطونها من الشارع أو المدرسة حتى لو كانت تافهة ودون مستواها.

عندما كانت على تواصل وتناغم مع لدهم، كانت تتمون من ثقافته الواسعة، فتحولت من شابة عفوية جاءت إليه من بيت أهلها بالكاد تعرف شيئا عن الحياة والمجتمع إلى امرأة ناضجة على دراية بكل شيء حتى مكتبة البيت التهمت كثيرا مما في كتبها خاصة المتعلقة بالحياة الاجتماعية والأسرية والتربوية. كما زار وإياها، ولعدة مرات، بيوت بعض صحبه ممن يتعاطون الشعر والقصص ويؤلفون الكتب ويقدمون المحاضرات الاجتماعية في الصحة والثقافة والتربية حيث كانا يحضران العديد منها.

لدهم يعرف أن الو اقع الجديد التي آلت إليه لويزة وهي معه في عش الزوجية غيّرها كثيرا ولا يدري أي مصير كان سينتهي إليه حالها لو كانت في غير هذا البيئة التي جمعتهما مع بعض وسمحت لها بالتعرف على عدة ناشطات اجتماعيات وزوجات مبدعين ومؤلفين ومحاضرين مشهورين مما رفع من مستواها الثقافي الذي تجلى في كل أحاديثها مع أبنائها ولدى صديقاتها و أقاربها. ومع ذلك، لم يشفع لها كل هذا الزخم الثقافي من الامتثال للحكمة وصوت العقل فلم تجعل هدفها المحافظة على حبهما وحياتهما الزوجية.

لدهم بات يعتقد أن الفراغ الكبير الذي انجر عن انتقالها من بيئة واعية نظيفة إلى بيئة أخرى سامة مع بعض صديقاتها وجاراتها وقريباتها هي السبب وراء تمردها ونشوزها. يتذكر كيف تحسس عزوفها في الأشهر الأخيرة عن الذهاب معه لبعض المعارض الثقافية والمحاضرات التي تقام في الأندية والمكتبات العامة ومراكز الثقافة القريبة، وصارت لا تحدثه إلا عن صديقاتها وقريباتها. ما يفهمه من حديثها عنهن هو أنهن حينما يلتقين فلا يتناصحن فيما يفيدهن في حياتهن، بل إنهن لا يلتقين –كما صارحها مرة- إلا لتبادل الأفكار الماكرة والحيل لمغالبة أزواجهن وجعلهم تحت السيطرة والتبعية الدائمة. كان ذلك يغضب لويزة كلما مدحتهن أمامه أو جلبت له خبرا يراه بميزان عقله غير موثوق وعار من الصحة فيما تعتبره هي أكيد ولا يرقى إليه الشك. لذلك صارت لويزة تحجم عن إثارة الحديث معه عن مثل هذه الأخبار ولا تثير بالمرة أمامه ما تلتقطه من حوادث خلال جلساتها مع هؤلاء الجارات والصديقات والقريبات.

تتقدم منه لويزة وفي بالها شيء طالما رغبت فيه:

- لدهم.. طلبت منك في كثير من المرات أن نبيع هذا المسكن الموجود في الطابق الرابع والذي ضاقت بضيقه أنفاسنا، وهدّ ركابنا و أقدامنا بسبب الصعود والنزول يوميا.

لدهم يعرف أن المسكن ضيق بالفعل، وأن لويزة على حق. لطالما فكر أيضا في بيعه وشراء مسكن آخر أرضي واسع يسمح له ببناء مساكن لأبنائه في الطوابق العلوية على العكس من مسكنه الحالي الذي اشتراه تحت الاضطرار من هيئة العقار العمومي لكونه يعمل في المدرسة القريبة منه، وهو يسكن في الطابق الوسط وفوقه مسكن جاره بالطابق العلوي وتحته مسكن جار آخر بالطابق السفلي. ومع ذلك، لا يستجيب لدهم لطلب لويزة بتغيير السكن نكاية فيها على تمردها.

– تقولين البيت ضيق بغرفه الثلاث؟

– إذن فهمتني.. هيا تحرك.. بعه واشترلنا مسكنا أرضيا ملائما.

– أما أنا فلا أشعر البتة بضيق البيت. لعل قلبك الضيق لم يعد يتسع للبيت ومن فيه.

تتأفف وترسل نفسا عميقا باتجاهه وكأنها تخرج زفيرا ناريا لا يراه أحد ولكن لدهم يشعر به ويكاد يتحسس لهيبه.

تمهله بعض الوقت تتفقد خلاله المطبخ حيث تحضر وجبة الغداء ثم تعود إليه في شيء من الإصرار هذه المرة.

- المسكن لا تريد تغييره! فماذا عن السيارة التي نطلب منك في كل يوم شراءها؟ الأولاد محرومون من سيارة يتجولون بها في أرجاء المدينة وضواحيها أو السفر بها في الرحلات السياحية مثل بقية أصدقائهم الذين يمتلك أولياؤهم سيارات.

- أغلب العائلات لا تمتلك سيارات. وقد وجدت حافلات النقل العمومي وطاكسي النقل الحضري وما بين المدن إلا لتلبية حاجة هذه العائلات الكثيرة ونحن إحداها.

يستعر غضبها الذي يتكشف من وجهها الذي تحول إلى الحمرة ومن عينيها اللتين بدتا للتو متهدجتين ومن صدرها الذي يعلو ويهبط بأنفاسها المتسارعة وكأنها توشك أن يغمى عليها بسبب الارتفاع الملحوظ لضغط دمها. رغم ذلك، تتحكم في نفسها وتصبح كسطح البحر الذي يخبئ تحته الأمواج العاتية التي توشك على الانفجار وتأتي على الأخضر واليابس.

- مرت عليك سنوات وسنوات ولم تمتلك سيارة نفعية ولا مسكنا لائقا مستقلا خارج هذه العمارات البائسة التي تزدحم بساكنيها الغرباء عن بعضهم بعضا. أين تذهب أموالك؟ هذا ما يتساءل عنه الناس ولم يجدوا له جوابا مع أنك لست شخصا

منحرفا حتى يهدر أمواله فيما لا ينفع. ولعل نشاطي التجاري في شراكتي مع أهلي سيغرحالنا إلى الأبد.

يقرأ جيدا إشارات عينيها وهي تنظر إليه شرزا، فيفهم مرامي كلماتها. يدرك أن ما تقوله هو من وحي بيئتها النسوية الملوثة، وأن أسئلتها التي تطرحها عليه كإنسان غريب عنها هي أسئلة جليساتهن من النساء اللاتي يعيرنها على مسكنها وعلى عدم امتلاك زوجها لسيارة. وها هي جاءت تطرح بنفسها عليه الأسئلة لتأخذ منه الإجابات وتنقلها إليهن حتى تشفي غليلهن. فوق ذلك، أن لويزة تريد أيضا من طرح تلك الأسئلة والإصرار على مطلب شراء السيارة والمسكن الجديد إحراجه ومغالبته؛ لأنها تعرف قبل غيرها بأنه مجرد موظف يمارس مهنة التعليم وأجور المعلمين متواضعة، وبإمكان لويزة وجليساتها أن يحسبن ما يجمعه من أجر في سنة كاملة ويرين ما إذا كان يستطيع شراء سيارة أو مسكن جديد؛ فهو بالكاد يعيل أسرته فكيف بتوفير مبلغ للسيارة أو للمسكن الجديد الذي تتحدث عنه لويزة ويساوي ثمنه أضعاف بيته الحالي.

في كلمات واضحة يجيبها:

- لا سيارة ولا مسكن جديد. ومن لم يعجبه الحال يضرب برأسه عرض الحائط.

لا تجيبه.. ولكنها تحدث نفسها.. إنه يقصدني.. لن أضرب برأسي عرض الحائط كما يتوعد.. ليذهب هو إلى الجحيم.. سأستنفر حياة وجلال وجابر وأحرضهم عليه حتى يتدبر مبلغ السيارة ولو بالاستدانة أو شراؤها بالتقسيط من البنك.. كما لابد أن يقنعوه بشراء مسكن جديد ولو بثمن متواضع في ضاحية بعيدة عن قلب المدينة أو يتبادل مع غيره السكن بسكن آخر على أن يسلم أي طرف للآخر مبلغ التعويض في الزيادة.. عندما يعجز عن الشراء سيطلب مني بلا شك التدخل لمساعدته بالمال الكافي.. عندئذ، سأتدخل بشرط أن أكتب كل شيء باسمي تحسبا لأي طارئ..

أمام إجابته المخيبة وعدم طلبه منها مساعدته بالمال، تحجم عن مصارحته باستعدادها لمساعدته بشروطها. تغادره متوترة بعد فشلها في إقناعه، وإن كانت تعرف مسبقا إجاباته التي طالما كررها أمامها وهي أن أوضاعه المادية لا تسمح له بذلك في هذا الظروف الزمنية الصعبة التي ارتفعت فيها تكاليف الحياة على نحو غير مسبوق. وهي بدورها، ستعيد إجاباته على صديقاتها الفضوليات لمعرفة ما يدور في خلد لدهم. بدون شك، سيهزأن منه ومنها. سيقلن لها أن الحيلة انطلت عليها وسيكررن أمامها الكلام نفسه بأن لدهم رجل مقتروبخيل مثل أزواجهن البخلاء الغامضين الذين لا يكشفون

عن مصادر دخلهم، ومنهم لدهم الذي لابد أن لديه مصدرا آخر للمال مثلما يفعل كثير من المعلمين والموظفين البزناسية.

أما لدهم، فيتنفس الصعداء عندما أوجعها كلاما قاسيا لا يحقق مرادها ولا يستجديها في طلب المال. بل ويتمتع برؤيتها وهي في قمة السخط والتوتر وهي في مطبخها تلعن نفسها على حظها العاثر فيما يختلي هو بنفسه في الصالة يتابع برنامجه المفضل وكله شعور بالراحة والفرحة بعد أن هزم لويزة وجليساتها.

(4)

تختار لويزة وكريمة طاولة بمقهى بانوراما في شارع الحبيب بورقيبة. في أغلب شوارع قلب تونس الخضراء، يكثر السياح الأجانب والعرب والمحليون المتجولون القادمون من أحياء العاصمة ومن مدن وقرى داخلية عديدة، الكل وحاجته وضالته. المقاهي والمطاعم والمحلات الفاخرة الممتدة على جانبي الشوارع لا حد لها ولا مدى تفتح صدرها للزبائن مرحبة بكل دينار ومليم.

في هذا الوقت من موسم الحرارة، تلبس النساء والمراهقات – هنا- كل أنواع الألبسة الفاتنة، ويتشحن بمغريات الزينة ويطلين وجوههن بألوان مختلفة من المساحيق وهن يتبخترن بأجساد شبه عارية فرادى ومثنى مع رفاقهن. وعندما يتعبون من التجوال، يلوذون

بالمقاهي والمطاعم يطلبون مشروبا باردا أو وجبات خفيفة لا تثقل بطونهم لكي يعودوا إلى تجوالهم بعد راحة قليلة.

لا تخلو هذه الفضاءات أيضا من فتيات ونساء يلبسن لباسا محتشما ورؤوسهن عليها خمارات إلا أنهن قليلات، أما المنقبات فنادرات حقا إن لم يكنّ غير موجودات في هذه الأماكن المفتوحة على عكس ما في مدينة لويزة بالجزائر حيث لا يمكن أن تخرج واحدة من النساء والمراهقات بمفردها وتسير في الشارع شبه عارية. أما هنا في قلب الخضراء وشرايينها، فقد اعتاد الجميع أن يُشبعوا عيونهم وأحاسيسهم وحتى أجسادهم بكل ما يرونه ويلتقونه ويواعدونه. لذلك، فإن مشاهد الفتنة والإغراء لا تثير كبير انتباه أو اهتمام بينهم وتمر وكأنها لا حدث.

تغطس كريمة عينيها في دفتر حساباتها لتراجع أرقام بعض مشترياتها وتقدر الأرباح المحتمل جنيها من بيع الفساتين التونسية رخيصة الثمن ولكنها باهضة في الجزائر خاصة تلك الثياب النسوية المثيرة.. فيزو.. شورت.. نصف قميص كاشف للبطن. أما لويزة، وأمام ذهولها بما تشاهده أمامها، يطير بها التفكير إلى مدينتها.. مدينتي صفراء قاحلة من مثل هذه الأنفس المتوهجة والأجساد المثيرة الجريئة.. هنا في قلب الخضراء كل شيء يجري في العلن، أما في

مدينتي، وبعيدا عن أعين الرجال داخل الجدران، نمارس نحن النسوة طقوسنا الأنثوية ذات الأحاسيس الجنسية الأشد إثارة في مواسم الأعراس.. في ليلة زفاف العروس ويوم الحزام تلبس نساؤنا ومراهقاتنا أكثر الثياب إغراء وعراء.. فساتين مفتوحة الصدر والظهر وسراويل مثقوبة كاشفة للسيقان والأفخاذ وفيزوات ضيقة ترسم بدقة متناهية مواضع الفتنة.. لا تستثنى من ذلك الرشيقة ولا البدينة الممتلئة ولا المترهلة التي انسدل بطنها على فخذيها واختفت مؤخرتها تحت كومة الشحوم التي تتأرجح يمنة ويسرة كلما تحركت من مكانها أو اقتحمت دون خجل حلقة الراقص بين الرشيقات لتثبت وجودها بينهن.. عندما تعجز إحداهن عن إحداث الإثارة بجسدها أو لباسها لافتقادها الجمال الفاتن، تكتفي برفع يديها عاليا وتحريك صدرها وخصرها في حركات بهلوانية وهي تظهر ما تراكم عليها من حلي ذهبية اكتنزتها أو استعارتها من صديقة غائبة، غير معنية بالعرس.. شقشقة الخواتم والأساور والأقراط وعقد الرقبة والسلاسل وحزامة الخصر، كلها تسمعها النسوة من بعيد ويرين بريق الحلي المتلألئة، فينبهرن بذلك ويعضضن على أصابعهن حسدا وغيضا، وتلعن بعضهن في صمت آفة الفقر التي أصابتهن وبعولتهن في مقتل. عندها، ترفع المتزينة بالذهب رأسها في أنفة وتكبر

لشعورها بأنها تمكنت منهن حينما جعلتهن ينحنين في ذل لسطوة المعدن الأصفر وينجذبن إلى فتنة الحلي الكثيرة التي حالت دون انتباههن إلى دمامة وجهها أو عيوب قوامها وعدم تناسق لباسها مع جسدها المترهل. تستغل بعض الخاطبات فرصة ممارسة هذه الطقوس لتصطاد لابنها أو قريبها أو أحد معارفها فتاة جميلة أو ثرية ولو قليلة الجمال.. في العادة، يضعن معيار الجمال في المقام الأول حتى أن النساء، متزوجات وعازبات، يتخابرن عن جمال العروس قبل أن يرينها. وعندما تطل من مخدعها قاصدة حلقة الحزام، يتدافعن للاقتراب منها ويتتبعنها بعيونهن الغامزة وهي تختفي لتغيير فستان بآخر عند كل ساعة وكأنها عارضة أزياء فيما النساء المتفرجات يصدرن أحكامهن وسط الزغاريد على جمال العروس خلال هذه الفرجة الاستعراضية.

كل الألبسة النسوية الفاتنة التي اشترتاها من قلب الخضراء موجهة لممارسة طقوس الفتنة والإغراء لدى نساء مدينتها.. كل فستان وسروال به ثقوب على مستوى الفخذ والساق ونصف قميص يكشف البطن وشورت وفيوز وتنورة قصيرة وحذاء رياضي أو ذو كعب عال وما شابه إنما تم شراؤه وفقا لطلبية صاحبته التي دفعت من أجله ثمنا باهظا..

لويزة تتابع الأجساد الفاتنة التي تمر أمامها بأشكالها وألبستها المغرية في شارع بورقيبة. من حين لآخر، تلتفت يمينا وشمالا ومن حولها لترى طاولات المقهى وقد امتلأت بكل غريب وجديد ومثير بما فيه بعض الأجنبيات الجالسات وهن يلامسن مرة على مرة رفاقهن دون أن ينشغل أحد بذلك.

كريمة مازالت منهمكة في حساباتها، أحيانا ترفع رأسها لإشعار لويزة بأنها حاضرة معها ولكنها سرعان ما تعود فتغرق عينيها في دفتر الحسابات. تقول لويزة في نفسها.. في أعراسنا نتبادل -نحن النساء- الفتنة والإغراء ونعب منها حتى الثمالة غنجا ورقصا و إثارة جنسية وتفاخرا بالجمال حتى إذا بلغ السيل الزبى هجمنا على رجالنا عند العودة إلى بيوتنا بعد قضاء سهرات نسوية شبه ماجنة مشبعة بأحاسيس الجنس والميوعة ومنا من تحسد العروس في ليلة دخلتها.. المراهقات يتمنين أن لو كن بين أحضان فوارس أحلامهن والعجائز يحلمن بالعودة إلى أيام شبابهن ويعشن مرة أخرى أفراح زفافهن.. في هذه الطقوس لا فرق بين المرأة المتزوجة والأرملة والبائرة والعازبة التي على وشك الزواج والمراهقة البالغة للتو.. لا مكان في هذه الطقوس للتفكير خارج عالم الفتنة والإغراء والأحاسيس العاطفية

والجنسية.. لا مكان هنا للعلم والتربية والأخلاق والدين.. كل هذه الأشياء يتم الحديث عنها قبل أو بعد انتهاء طقوس العرس..

لويزة تعود إلى نفسها. تدرك أنها لم تعد كالنساء ولم تعد تهمها طقوس الفتنة الحسية التي كانت تعيشها مع لدهم. لم يبق من سنواتها الجميلة سوى هوة عميقة من الفراغ العاطفي بعد تصحر أحاسيسها تجاه لدهم. تعترف في دخيلتها بأنها لم تأت إلى قلب الخضراء للبزنسة فقط مع شريكتها كريمة وإنما أيضا لقتل الرتابة التي تعانيها مع لدهم والهروب من مطارداته الكلامية التي صارت شبه عادة يومية لديه. تعرف أن لدهم ما كان ليسمح لها بالسفر مع جارتها لولا أن الحيلة انطلت عليه. ادّعت أمامه بأن جارتها كريمة مريضة وتريد مرافقتها طيلة رحلات العلاج إلى قلب الخضراء. ذكرت له بأنها تريد أن تستغل الفرصة لعلاج ركبتيها اللتين بدأ يتسلل إليهما مرض تآكل الغضاريف مثلما أكده طبيب العظام. استطاعت إقناعه بأنها ترغب في التأكد من ذلك بنفسها من أطباء في خارج الوطن، فصدقها كما اعتاد تصديقها دائما في مثل هذه الأمور دون الحاجة إلى أن تقسم أمامه بذلك.

تثور على نفسها بصوت شبه مهموس (لويزة عليك اللعنة أيتها المنافقة الكذوب العنود). تسمعها كريمة وترفع رأسها باتجاهها

(لويزة ماذا قلت؟). تجيبها (لعنت نفسي عندما تذكرت كيف خدعت لدهم واحتلت عليه. عليك اللعنة أنت أيضا أيتها الماكرة الغادرة!). تقهقه كريمة وهي تطلق كلماتها بصوت عال (طريق الثراء محفوف بالكذب والمكر والخديعة.. سنبيت ليلتنا في فندق تاكسون وغدا نعود الى الديار.. لقد كلمت هاتفيا سي البدري صديقنا الفروديست صاحب سيارة سمبول وقد حجز لنا مقعدين).

فندق التاكسون الذي يقيمان فيه متواضع وأسعاره زهيدة.. 30 دينارا لليلة الواحدة بدون تكييف، و50 دينارا بالتكييف.. أما الفنادق الر اقية فيتجاوز سعر الليلة الواحدة فيها 200 دينار كأقل تقدير..

الجو حار نسبيا ولكنه بالتدريج ها هو يصبح رطبا. يبدو ذلك من السحب العابرة في السماء محملة حينا ببعض الرطوبة وحينا آخر يتلاشى السحاب وتطل منه شمس حارقة، ومع ذلك، فإن الجو داخل غرف الفندق مازال مقلقا بسبب حرارة الغرف غير المكيفة. لقد اختارتا غرفة دون تكييف وتحملتا الحرارة قصد اقتصاد المال بسبب فيروس البزنس الذي أصاب الجارة. الغرفة متآكلة الطلاء بها حمام وسريران وكرسي وطاولة وخز انة قديمة.. أحيانا تمر خيوط من النمل المتحرك يتلمس طريقه على الأرض أو على الطاولة ليلتقط

بعض فتات الساندويتش زهيد الثمن والذي يفضلانه على الوجبات الفاخرة في المطاعم الفخمة. تصبران على لسعات البعوض التي تترك ندبات حمراء ظاهرة على الوجه والأذرع والسيقان.. عملية تغيير المخدات والأغطية بأخرى نظيفة وتنظيف الغرف في هذا الفندق لا تتم إلا بعد مغادرة الزبون ولو بقي عدة أيام وتعاد تهيئتها فقط قبيل ولوج زبون جديد.

عندما تكونان في مقهى فرياندز القريب من فندق التاكسون، فإنهما كثيرا ما تثيران انتباه الزبائن بسبب اللغط الصادر منهما وهما تلتفتان نحو بعض الزبائن وتعلقان على كل ما تقع عليه عيونهما.. هذه امرأة مذ دخلت المقهى لم تكف عن تعاطي السجائر الواحدة تلو الأخرى.. وهذه فتاة يبدو من محفظتها أنها تلميذة في الثانوية ولكنها تواعد حبيبا أخذ منها كل وقتها على ارتشافات مشروب الكوكا و أنغام (آه يا ليل) لفيديو كليب الفنانة شيرين المبثوث على شاشة كبيرة مثبتة على أحد جدران المقهى.. وذاك رجل مكفهر الوجه، يحمل خديه داخل كفيه وهو يتأمل قهوته السوداء دون سكر.. لقد عرفت لويزة أنها دون سكر حينما هم بارتشافها فأسمعته صوتها دون وعي (السكر.. السكر)، فرد عليها مبتسما وشاكرا (أتناولها هكذا دون سكر.. اعتدت ذلك.. حياتي مُرة مثل قهوتي.. المرارة تملأ حياتي!؟)..

تنتبه إلى نفسها وتصمت. لم تفهم ما قاله عن العلاقة المتجانسة بين حياته المرة والقهوة المرّة. خشيت أن تعلق فتدخل في محادثة مع رجل غريب خاصة بعد أن لكزتها كريمة بحذائها على قدمها أسفل الطاولة.

لا يوجد في التاكسون فطور الصباح ولا وجبات الغداء والعشاء. كل ما هنالك، هو أن تطلب مساعدة خادم الفندق أن يدلها على أي مقهى وأي محل للوجبات الخفيفة يقدم خدماته بأسعار زهيدة. لذلك، اختارتا التاكسون القديم في شارع شعبي وبجواره مقهى فرياندزومحل للوجبات الخفيفة بهدف الادخاروتوفير المصروف ولو على حساب راحتهن وصحتهن. لم يختارا التاكسون صدفة، بل عرفتاه من فم إلى أذن عبر سلسلة طويلة من البزناسية والفروديست وقاصدي العلاج إلى تونس العاصمة.

(5)

في آخر يوم من هذه السفرية وبينما هما ساهرتان في غرفتهما بفندق التاكسون يتفقدان أغراضهما استعدادا للعودة إلى الجزائر، يخرج سي البدري الفروديست من غرفته بعد منتصف الليل ويتجه نحوهما ويطرق عليهما الباب. يبدو أن النوم طار من عينيه ولم يستطع التمدد على سريره ليرتاح قبل أن يعود في صباح

الغد بمركبته محملا بما أمكن جمعه من الزبائن الذين يتواصل معهم عبر الهاتف بسبب عدم وجود محطة مخصصة لسيارات الفروديست. سي البدري هو اسمه؛ لأنه الابن البكر لوالده، وقد عاش مدللا في عائلته كما يقول دائما لزبائنه. تفتح كريمة البزناسية الباب وتخرج إليه في الرواق. يتهامسان بعض الوقت فيما ملامح الأرق بادية على وجهه وعينيه المتهدجتين.

تقول مستغربة:

-هل شربت؟ لم تصبر على البيرة! قد اعتدت عشية رجوعك للبلاد أن لا تشرب شيئا، بل حتى وجبة العشاء كنت تختارها خفيفة حتى لا تصاب بالمغص المعوي أثناء الطريق.

يتهامسان مرة أخرى في شيء من التنازع. تتنصت لويزة عليهما عبر الباب المفتوح قليلا. أحيانا يلتقط سمعها بعض الكلمات الخافتة، تارة مفهومة وتارة غير مفهومة وهما يتبادلان حديثا متقطعا مع كم هائل من الإيماءات والإشارات.

فجأة يصبح صوت كريمة واضحا وهي تثور في وجهه:

-مستحيل أن أسمح لك بذلك. هل جننت؟ أتريدها أن تصرخ، فيتجمع حولنا نزلاء الفندق ولعل الشرطة تأتي وندخل في سين وجيم وفي مأزق كبير لا نهاية له.

تحاول إقناعه بالتراجع وعندما يرفض، تقدم له العرض:

- خذني بدلها، فقد تعودت عليك منذ رحلتنا الأولى. لنترك لويزة جانبا، ولتكن لديها صورة حسنة وانطباعا طيبا عنا. لويزة مازالت جديدة ولم يحن وقتها بعد، كما أنها لا تعرف شيئا عني وعنك.

تجتاح لويزة نوبة فزع شديد وهي تسمع ما يصل إلى أسماعها بجلاء. تستعيد إلى ذهنها ما كان يرسله نحوها سي البدري من إشارات في كل السفريات. الآن فقط بدأت تتذكر كيف كان يتلطف معها بالكلام الجميل تسليما ومعاملة تمييزية كتسديد بعض المشروبات والوجبات الخفيفة. تنتبه إلى تصرفاته عندما كان يحاول في كل مرة الانفراد بها فيحدثها عن أهمية التجارة وفوائد حرفة البزناسية الذين يعبرون الحدود ذهابا وإيابا خاصة النساء اللاتي هن أكثر حذقا من الرجال في التعاملات التجارية. حكى لها مرة في إحدى السفريات بأنه جرب قبل سنوات البزنسة الصغيرة بالحقيبة، ولكنه فشل في النهاية فيما نجحت كريمة البزناسية. بعدها اختار أن يكون فروديست ويعبر بركابه الحدود بالكورسة أو بالمقعد. تستعيد إلى ذهنها كيف أنه في إحدى السفريات طلب منها على انفراد أن تبيت في غرفة مستقلة بالفندق حتى يستطيع محادثتها بعيدا عن البزناسية،

فهو يريد أن تشغل له بعض ماله في تجارتها على أن تعطيه ثلث الأرباح، فهو يريد أن يزيد من دخله لكي يستطيع تلبية حاجات أسرته من الإنفاق اليومي المتزايد. تتذكر كيف أن سي البدري صفعته مرة شابة وصرخت في وجهه.. كانت مرافقة لأمها للعلاج بتونس. عندما أنزلها وأمها مع الركاب، اختلى بها ليحصل منها على مواعدة. لكنها ردته بعنف شديد ولطمته على وجهه. من وقتها لم يجرؤ على الاقتراب ممن يستشعر منها التحفظ، وهي من هذه الفئة رغم روحها المرحة مع الجميع.

تعود لويزة إلى سريرها بعد أن هدأت قليلا. تتمكن من تفكيك شفرات كلامه وتدرك نواياه المبيتة ولا حاجة لها الآن لمعرفة ما كان يجري من همس وكلمات إيحائية حولها، فكل شيء بات الآن معروفا.

ترجع كريمة إلى الغرفة بعد أن صعد سي البدري إلى غرفته متماوجا على السلّم ومغمغما بكلمات متقطعة غير مفهومة.

-لويزة حبيبتي عذرا علي أن أصعد إلى غرفة حليمة وسعدية وغرفة إبراهيم والسعيد لأجمع وأحزم ما لديهم من السلع التي اشتريناها وساعدونا في نقلها من المحلات إلى الفندق حيث وضعوها لديهم بانتظار رجوعنا من السوق.

- في هذا الوقت بعد منتصف الليل؟

- جاءني سي البدري للتو لكي يبلغني أن عودتنا للبلاد ستكون في الصباح الباكر وليس بعد الظهر بسبب ظروف طارئة خاصة به فرضت عليه الرجوع سريعا إلى بيته.

لم تعلق لويزة بشيء. تومئ إليها برأسها بالموافقة على مغادرة الغرفة في آخر الليل والتوجه إلى أصدقائها وصديقاتها لتوضيب المشتريات من السلع الرخيصة والغالية. ولكنها في قرارة نفسها تعرف الوجهة الوحيدة لكريمة التي لن تدخل أي غرفة أخرى سوى غرفة سي البدري والتي ستجدها بكل تأكيد مفتوحة قليلا حتى تتسلل إليها دون إثارة انتباه أو إزعاج لنزلاء الفندق الغاطين في نومهم.

تغادر كريمة فجرا غرفة سي البدري وتعود إلى لويزة التي تتظاهر بأنها لا تعلم من أمرهما شيئا. أخبرتها كريمة بأن سي البدري تراجع عن السفر في الصباح الباكر، وقرر العودة في الموعد المعتاد بعد الظهر. قالت لها بأن سي البدري تكلم هاتفيا مع قريب له لينوبه في الذهاب إلى المدرسة التي طردت ابنه لعراكه مع زميله ومطالبة إدارتها بوجوب إحضار وليه. كما أبلغتها بأنها قضت بقية ليلتها مع حليمة وسعدية في غرفتهما وحزمت السلعة في الصباح الباكر.

أثناء طريق العودة، تفضل لويزة أن تكون متأخرة عن ركوب السيارة حتى تختلف عن كريمة البزناسية التي صعدت على المقعد

الأمامي بجانب سي البدري حيث صارا أكثر من صديقين وبينهما من الأسرار الكثيرة ما لم يحط به أحد. لعل القليل من الأسرار عنهما يعرفه بعض الزبائن. بدأت تتساءل في نفسها عن سبب مجيء حليمة وسعدية إلى تونس وتظاهرهما بالبزنسة مرة، وادعاء العلاج مرة أخرى، بينما لم يفعلا أي شيء من ذلك كما لاحظته طوال إقامتهما في الفندق.

تركب لويزة في المقعد الخلفي بجوار إبراهيم الذي يبدو من ملف الوثائق الذي بين يديه بأنه جاء فعلا لعلاج مرض من الأمراض مع أنه لم يبلغ أحدا من الركاب بذلك. لا تدري لويزة هل تلعن هذه الرحلة التي كانت بالنسبة إليها أسوء رحلة عاشت خلالها أخطر ليلة أم تحمدها؛ لأنها اكتشفت خلالها حقيقة الجارة المتشحة بجلباب البراءة والأخلاق والتجارة النظيفة في حين أنها داعر وتستقدم الجميلات من الجزائر إلى تونس. تعترف لويزة بأن الجارة علمتها فنون النفاق والكذب فأخفت عن لدهم حقيقة شراكتها في البزنسة مع الجارة وإيهامه بأنها شريكة في محل أهلها وادعائها أمامه بأنها مرافقة لكريمة في رحلات علاجية إلى تونس.

تنظر إلى المقعد الأمامي حيث الجارة ترسل قهقهاتها في أرجاء المركبة فينتبه من بدأ يخالج عينيه التعب والنعاس. بعد قطع

مسافة طويلة تقترب مركبتهم من المعبر الحدودي الفاصل بين البلدين الجارين. تقرر لويزة إحداث قطيعة مع جارتها بعد أن تصفي معها جميع حسابات البزنسة بعد العودة إلى الديار. تتحدث في دخيلتها.. هذه المرأة اللعوب أساءت حتى لمهنة البزناسية الشريفة بممارستها لأقدم مهنة في العالم بعد وفاة زوجها. لويزة لا تعرف بالضبط متى بدأت الجارة تتعاطى هذه الجريمة المرتكبة في حق نفسها وحق أبنائها والمساس بذكرى زوجها الراحل الذي كان جارا طيبا يحبه الجميع.

طوال رحلة العودة لم تكن لويزة تسمع ما يدور من كلام وتعاليق وضحكات متبادلة بين الركاب وسي البدري الذي كاد يعتليها غصبا عنها ويفعل بها الأفاعيل ويسقطها في عالم مظلم لا نهاية له. تسترجع إلى ذهنها بعض إرشادات لدهم، فما أحوجها الآن إليها. طالما كان ينصح نفسه وينصحها عند الشدة بأن تجعل من كل تجربة قاسية في الحياة درسا يفيدها في أحداث صعبة لاحقة، وأن الذي ينجح بعد تجربة فاشلة أفضل من الذي ينجح بسرعة في أول تجربة. هذا الأخير قد لا ينهض أبدا بعد سقوطه في تجربة جديدة صعبة وفاشلة بعد نجاحه الأول السريع فيما الثاني لا يمكنه إلا أن ينجح في تجربته الثانية لأنه تعلم الكثير من تجربته الأولى.

تطمئن نفسها حتى لا تدخل في أزمة نفسية وتعتبر أن ما حصل لها هو امتحان صعب كان لا بد من اجتيازه. يبدو أن نصائح لدهم التي كانت لا تصغي إليها وتصر على رفضها بسبب عنادها تجد لها الآن موطئا حسنا في قلبها وعقلها. ولكن يا ترى هل ستمتلك الجرأة وتصارحه بحقيقة ما تخفيه عنه كل هذه الشهور من ممارسة البزنسة مع الجارة وادعائها بأن سبب مظاهر بذخها من لباس فاخر وحلي وعطور هي نتيجة شراكتها مع شقيقها في المحل التجاري التي تديره عائلة أهلها؟ هل تتجرأ وتقول له صراحة أنها منافقة ومخادعة وكانت تكذب عليه فيما كان هو يصدقها ويضع ثقته فيها رغم الخلافات الحادة بينهما؟ هل تستطيع أن تقف بشجاعة أمامه وترمي إليه بحقيقتها كاملة غير منقوصة مثلما هي معتادة أن تقف أمامه متحدية معاندة ورافضة لأفكاره ونصائحه ورامية بها عرض الحائط؟

ترد على نفسها بأنها بالتأكيد لا تستطيع أن تجيب عن كثير من الأسئلة المعقدة التي تعتصرها. فهي أعجز من أن تفعل ذلك لأنها لو فعلت، لوقعت فورا على ورقة طلاقها بنفسها لأن لدهم ومهما يكنه لها من احترام وتقدير في إطار العشرة الطويلة التي انتكست في السنوات الأخيرة، فإنه مهما كان، لن يقبل الإهانة، وممن؟ من

زوجته وأم أبنائه؟ لدهم لن يتحمل منها ما كان ينعته بالخيانة والدياثة عندما كانا يحكيان لبعضهما في سنواتهما الأولى من الزواج عن تجارب وممارسات خطيرة لرجال ونساء لهم عائلات وأولاد. تفزع وتقول في نفسها.. لقد وقعت حقا في مصيبة لا فكاك منها.. عند رجوعي إلى بيتي سأقطع علاقاتي بالماكرة بعد أن تعطيني حصتي من الأرباح وسألتزم الصمت وأسدل على نفسي ثوب الستر عسى الله أن يغفر لي وليسامحني لدهم حتى لو كان طلب المسامحة يبقى في قلبي لأن لساني سيصيبه الخرس وسيعجز عن التلفظ بذلك أمامه لو فكرت في الأمر.

بدءا من الأسبوع الأول من عودتهما من تونس، تتوقف لويزة نهائيا عن الزيارات المتكررة لبيت الجارة التي لم تعرف بدقة السبب. يسود برود واضح في علاقتهما. تستبعد كريمة أن يكون السبب هو اكتشاف لويزة لسلوكها المنحرف خاصة ما جرى بالفندق. تقول في نفسها بأن لويزة بالتأكيد لم تسمع شيئا مما دار بينها وبين سي البدري في تلك الليلة المجنونة أو حتى علمت بمبيتها في غرفة سي البدري الذي اعتاد أن يبيت في كل ليلة مع حليمة أو سعدية أو غيرهما.

لويزة لم تعد تستطيع النظر في عيني لدهم. تجتهد في رفع رأسها نحوه إذا طلب منها شيئا، ولكنها سرعان ما تخفض رأسها وتوجه نظرها إلى الأطراف الجانبية مخافة أن يقرأ مخبوء عينيها فتنهار أمامه وتعترف له بكل شيء وهي لا تستطيع تحمل نتائج أفعالها. لم تعرف من قبل هذا العذاب الذي يلتهم داخلها ويكاد ينفجر كحمم بركانية في أي لحظة خاصة في حضور لدهم. عندما يغيب خارج البيت تنسى مؤقتا عذابها وتنشغل عنه ببعض الشؤون، ولكنه لما يعود وتراه في الصالة أو يتحرك من غرفة إلى غرفة أو حتى تتذكره وحسب، فإنها تدخل مجددا في دوامة من العذاب النفسي القاتل.

كريمة لم تسأل عن لويزة منذ الزيارة الأخيرة الوحيدة التي قامت بها إليها وطلبت منها تصفية حساباتها وإنهاء الشراكة معها. أخبرتها بأنها لا تريد أن يكتشف لدهم أمرها. وعدتها كريمة أن تعطيها حصتها من الأرباح على مراحل، كما طلبت منها مهلة لترتيب أمورها وتسوية ديونها ومستحقاتها مع زبائنها وأصحاب المحلات.

يأتي جابر لوالده، كل مرة، بخبر عراك لفظي بين الجارة كريمة ورياض التاجر أمام بيتها أو في سلالم العمارة. يلاحظ لدهم كثرة تردد رياض على بيت الجارة. تستقبله حينا هي بنفسها وحينا آخر يفتح له

الباب أحد أبنائها أو بناتها. تخمن لويزة بأن رياض ما جاء يطلب منهما مستحقاته بنفسه إلا لأن كريمة تملصت من التزاماتها بتسديد ديونهما، فقد كان يبيعهما بالجملة على أن تسددا له المستحقات بعد بيع السلعة، ولا شك أن الجارة وسعت علاقاتها مع البزناسية وتجار الجملة والتفصيل ودخلت في متاهات أخرى متشعبة ربما سببت لها الإفلاس حتى أن كريمة لم تتمكن من إعطائها في الشهر الأخيرة ولو بعض الفوائد وطلبت منها أن تمنحها مهلة غير محددة للوفاء بالتزاماتها نحوها.

بعد عدة أسابيع، يأتي رياض لطرق باب الجارة فلم يجدها ولا حتى أبنائها. سئم تكرار تردده على بيتها دون جدوى. فالباب، على ما يبدو، مغلق بإحكام ولا تظهر عليه علامات غلق حديثة، حتى أن الغبار منتشر أمام الباب وفواتير الماء والكهرباء متناثرة في المكان ما يشير إلى أن السيدة غائبة مع أبنائها منذ فترة طويلة. لو كانت في سفرية قصيرة لتركت أبناءها في البيت. لقد اعتادت أن تتركهم حينما تسافر لإيام قليلة خارج الوطن للبزنسة أو لأشياء أخرى. لقد تركتهم وحدهم حتى حينما سافرت من أجل البزنسة بالكابة إلى تركيا.. ماليزيا.. الإمارات.. المغرب.. تونس.. ليبيا..

يطرق رياض باب بيت لويزة؛ لأنه على سابق معرفة ببيتها. دلته عنه كريمة من قبل عندما أخبرته بأنهما جارتان. تفتح لويزة الباب.

-آه أنت رياض ! صباح الخير.

-بيتها مغلق منذ أيام على ما يبدو. ولم تترك خبرا ولا عنوانا. لقد أبلغتني منذ شهرين بأنها تتواصل مع زبائنها وتقوم بجمع مستحقاتي وطلبت مهلة انتهت في الأسبوع الماضي.

-لعلها تظهر قريبا. وما عليك سوى انتظارها في محلك ولا تثير الضجيج هنا.

-أنتما شريكتان، وتأخذين مني مثلما تأخذ هي مني من السلع، وكل شيء مسجل عندي باسمها وباسمك. أرجو أن تسددا لي مستحقاتي في العاجل. علي أن أسدد ديون باعة الجملة الذين وضعوا ثقتهم في شخصي.

لم تجب لويزة بشيء، ولكنها طلبت منه مجددا أن لا يعود إلى طرق باب بيتها حتى لا يتسبب في حدوث مشاكل عائلية مع زوجها الذي لا تريده أن يتدخل في شؤونها.

مع الأيام، يلاحظ لدهم انكفاء لويزة على نفسها. فلم تعد تلك العنود ذات العيون الحارة التي ترمي وجهه بسهام غضبها عندما

يناقشها في أمر ما. أضحت أكثر هدوءا وصمتها يثير الريبة. صارت ضعيفة أمامه وعاجزة عن النظر إلى عينيه مباشرة. بات جسمها يهتز حتى عندما يصرخ على أحد أبنائه فتحسب الصرخة عليها. يتساءل.. هل من المعقول أن تكون هذه لويزة؟ انقلبت شخصيتها رأسا على عقب.. من عناد إلى إذعان.. من حركة إلى سكون.. من يقظة في النهار إلى رغبة في النوم.. من ظهور وحضور دائم في البيت إلى توار وشبه غياب حتى عن الأكل وجلسات الأسرة.. هل يا ترى أصابها مرض ما؟! من يدري؟!

بعد عدة أسابيع، يسوء أكثر حال لويزة، لم تعد كما كانت تلبس كل جميل وتتزين بالحلي على رقبتها ويديها وتزدهي بحزامة خصرها الذهبية بعد أن أودعت كل نفيس عندها لدى كريمة بغية استثمارها في مشاريع جديدة مربحة مثلما وعدتها بذلك، وها هي كريمة تختفي ولا أثر لها.

يتجرأ لدهم ويسألها :

-لويزة هل أنت مريضة؟ هل ألمّ بك شيء؟ مهما كان من خلاف بيننا، ومع أن أموالك -ما شاء الله- كثيرة فأني لدهم -زوجك- استطيع التدخل.. هل تحتاجين طبيبا أو مستشارا نفسانيا؟ هل آخذك إلى

شيخ راق عسى أن يخفف عنك ما أنت فيه بما يتلوه من آيات قرآني؟

-ما بي شيء.. شكرا. لعلها أعراض سن اليأس التي تصيب النساء وتؤثر على نفسياتنا وأمزجتنا.

تتمكن لويزة من إقناعه بذلك وهي تعلم في قرارة نفسها بأنها تخفي عنه حقيقتها وأنها تخشى من هول أن يكتشفها. تصرخ بشدة في نفسها بصوت كالرعد يهز جبالها الداخلية.. أنا كاذبة.. منافقة.. خائنة.. جبانة.. ماكرة.. شيطانة.. اللعنة.. علي اللعنة!

(6)

تمضي بضعة أشهر ولا أثر للجارة و أبنائها ولا يعرف أحد أي أرض ابتلعتها أو أي سماء أخذتها. لم يترك رياض جارا لها ولا تاجرا أو بزناسيا أو صاحب مركبة يعتقد أنه ممكن أن يدله عليها إلا وقصده. يزداد عليه يوميا زائرو بيته وطارقو باب محله للمطالبة بمستحقاتهم بعد أن انقضت كل المهل التي منحوها إياه لتسديد ديونه. لم يعد أمامهم سوى التوجه للقضاء لاستردادها أو تعدي بعضهم عليه وحجز سيارته وبعض أملاكه خاصة بالنسبة للبزناسية الذين ليس بينهم وبينه وثيقة إقرار بالديون.

لا يجد رياض من حيلة أمامه إلا ترصّد زوج لويزة لعدة أيام من أجل معرفة أماكن تردده ووقت خروجه من البيت ودخوله إليه ليشكوه زوجته فلعله يرغمها على تسديد مستحقاته. يصل إلى أن المقهى هو مكانه المفضل، فلا حاجة له الآن إلى لويزة التي حذرته من المجيء إلى بيتها. في هذا الصباح، يقرر رياض أن يخبر لدهم عما بينه وبين زوجته، فليس لديه ما يخسره بعد أن أفلسته الديون وغدرت به كريمة ولويزة اللتين تنصلتا من تعهداتهما نحوه. لويزة تنكرت له فيما غيرت كريمة إقامتها نهائيا وهربت، كما يبدو، إلى الإقامة في منطقة أخرى بعيدة دون أن تترك عنوانا أو خبرا عنها.

يقترب رياض من لدهم وهو يرتجف لأنه لا يدري كيف يبدأ معه الحديث ولا يعرف كيف تكون ردة فعله.

-عمي الحاج سامحني أجلس معك قليلا.

-تفضل بنيّ. مرحبا.

-أنت الحاج لدهم بكل تأكيد. زوج لويزة.. الله يبارك في أسرتك.. أخبرتني عنها جارتها كريمة البزناسية.

-شكرا.. أهلا وسهلا ومرحبا؟

-عفوا.. أبحث عن عنوان جارتكم كريمة. بيني وبينها حسابات ومستحقات، وأرجو أن تساعدني في الوصول إليها لأنها على ما يبدو غيرت عنوان إقامتها دون أن تترك لي خبرا أو رقم هاتفها.

-لا علم لي بعنوانها. صحيح لم نعد نسمع صوتها. الأكيد أنها غائبة منذ أشهر في مكان ما، كما لم تعد لويزة تتواصل معها.

رياض مازال يبحث عن طريقة سلسة للدخول في موضوع لويزة، ولكنه مصمم على المضي للآخر مهما كلفه الأمر.

-الحاج لدهم كما تعرف وربما أخبرتك لويزة من قبل بذلك بأنهما شريكتان مع بعض في البزنسة بالألبسة والأحذية النسوية ومواد تجميل ولطالما سافرتا معا لهذا الغرض إلى تونس. ولدي سجل الديون به اسم لويزة واسم كريمة ومبلغ الديون المتراكمة. وقد جئتك لمساعدتي والتدخل من أجل استعادة مستحقاتي المالية من لويزة بانتظار استرداد البقية من كريمة التي سأعثر عليها عاجلا أم آجلا؛ لأنها بالتأكيد هربت بالأموال أو أفلست وعجزت عن التسديد.

يظل لدهم صامتا متفاجئا غير قادر على تناول الكلمة. يضع رياض سجل الديون على الطاولة بعد أن مسحها النادل وأخذ ما كان عليها من فنجان القهوة وزجاجة الكوكا كولا. يفتح رياض السجل ويساعد لدهم على تقليب صفحات أسماء الزبائن المسجلين في

الجداول حتى الوصول إلى صفحة كريمة ثم يطويها ليفتح صفحة لويزة، ويطلب من لدهم أن يلقي نظرة.

يقرأ لدهم الاسم (لويزة امرأة لدهم).. يتابع بعينيه قائمة السلع وتفصيلاتها مع سعر كل مادة منها. ينتهي لدهم إلى آخر إلى خانة المجموع. تهزه صدمة ما يكتشفه.. يردد في صوت مسموع يثير انتباه رواد المقهى الذين يجلسون غير بعيد عنه..

- 75 مليون سنتيم.. مستحيل أن تكون لويزة بزناسية وعليها كل هذه الديون. أنا لا أعرف شيئا عن ذلك! ما علمته منها من قبل هو أنها شريكة شقيقها في محل تجاري تمتلكه عائلتها وكانت تحصل منه على أرباح معتبرة غيرت حياتها وحياتنا.. مستحيل أن تكون لويزة قد ترددت على تونس للبزنسة مع كريمة وليس لمرافقتها للعلاج كما ادعت أمامي..

يتمالك لدهم نفسه بعد أن يهدئ رياض من روعه ويعتذر منه؛ لأنه كان يظن أنه على دراية من قبل بنشاط لويزة مع كريمة. يطلب لدهم من رياض أن يبقي هذا اللقاء سرا بينهما إلى غاية أن يتحقق بنفسه من الأمر.

ينطلق لدهم نحو بيته يتماوج يمينا وشمالا من شدة الصدمة النفسية التي ألمت به. طوال الطريق وهو يراجع كل الأحداث صغيرها

وكبيرها التي تدور حول لويزة أو السلوكات التي تصدر منها.. يقول في نفسه.. منذ أن صارت عنودا ناشزا دخلت في متاهات غريبة وتغيرت أفكارها وتصرفاتها.. كان من حقها أن تطلب الانفصال حتى لا تستمر في تعذيبي وتعذيب نفسها..

يدخل بيته وهو يجر أقدامه جرا. دون أن يتناول غداءه أو حتى يرتشف كوب ماء يرطب به حلقه الجافّ، ينادي عليها بصوت يحمل تلك النبرة القوية التي كانت تميزها من قبل من بين نبرات كل الرجال.

-لويزة جاءني رياض صاحب المحل، وحكى لي عن كل شيء.

تتفاجأ.. تنهار.. تسقط مغشيا عليها.. يسارع إليها الأبناء كل بصوته.. أمي.. أمي.. الاستعجالات.. نحملها إلى الاستعجالات!

يرفض لدهم:

-اتركوها على حالها!

تفيق من نوبة الإغماء حينما رشت حياة وجهها بماء بارد ووضعت على أنفها شيئا من العطر النفاذ. تتمالك نفسها وفي شيء من الحسرة واليأس تتكلم:

-لدهم. اعترف لك بأني شريكة كريمة في البزنسة ولست شريكة في تجارة أهلي.. سافرت معها مرارا للبزنسة وليس للعلاج.. أنا متورطة في الديون.. دون الدخول في تفاصيل لا يسمح بها الموقف

أمام الأولاد أطلب منك أن تطلقني.. طلقني فورا.. لا نستحق بعضنا بعضا..

تجهش بالبكاء وتتهاوى على الأريكة مغشيا عليها مرة أخرى فيما يحيط بها الأولاد من كل جهة بين مستغرب وخائف على صحتها وعلى مصير العائلة. يتوارى لدهم في غرفة الاستقبال تاركا الأولاد في حيرة من أمرهم. تستعيد وعيها قليلا قليلا. بعد لحظات، تستجمع قوتها وتأخذ هاتفها. تكلم شقيقها الأكبر وتطلب منه المجيئ فورا لكي يحملها و أبناءها في سيارته إلى بيت أهلها. تشعر بأن المكان يضيق بمن فيه فلم يعد لدهم يحتملها. حياة وجلال أدركا ما حدث ولو من دون تفاصيل. لذلك، ها هما يلتزمان الصمت. أما جابر الذي لا يعرف شيئا عن حقيقة ما يجري، فيتمسك بأذيال والده ويتوسل إليه لمر افقتهم إلى بيت جده كما اعتاد أن يفعل من قبل عند كل زيارة. جابر يظن أن ما حصل بينهما أمر مألوف. فقد تعودا على الاختصام والتصالح. لكن هذه المرة، يتخلص لدهم من ابنه ويطلب منه أن يلتحق بأمه.

بعد أسبوع، يتصل أحد أشقاء لويزة برياض من أجل تسديد ديونها حيث قرر أهلها التكفل بذلك وتجنب الفضيحة التي حملتها إليهم ابنتهم. يتفاجأ شقيقها حينما أخبره رياض بأن لدهم قد سدد

كل الديون بعد أن تدبر الأمر لدى بعض أصدقائه ومعارفه على أن يعيد لهم مستحقاتهم على أقساط وفق مهل زمنية متفق عليها.

لويزة عندما تسمع بما فعله لدهم من أجلها، تتحرك فيها لويزة الأخرى المقيدة في أغلال نفسها، فتهتز في أعماقها وتذرف دموعا ساخنة تمسح مساحيق الغدر والخيانة البادية على تقاسيم وجهها الذابل كزهرة تفقد روحها شيئا فشيئا. تنظر أمامها حيث جابر ابنها يراقبها. تطلق زفرات عميقة متحسرة على ما فات. تردد في صوت مهموس تناهى إلى بعض أفراد عائلتها.. لدهم لم ينتقم مني.. لعله سدد الديون إكراما لحبه المغدور. يطوف بها شبح لدهم الشاب وهو يلاعبها ويمازحها كلما عاد إلى البيت من عمله في سنوات الزواج الأولى. تعض على أصابعها ندما على تلك الأيام السعيدة التي ركنتها عواصف الزمن في أرشيف الماضي.

الفصل الثالث

(1)

سنة كاملة تمر و أفراد عائلتها متغافلون أمامها عن ذكر ما حدث لها وتسبب في انفصالها عن لدهم عسى جروحها تلتئم ولعل الأيام تنسيها عذاباتها وتطوي للأبد سجلات ذكرياتها المريرة. رغم ذلك، فهي مازالت لحد الآن تعاني من الوحدة القاتلة، مشوشة التفكير وضائعة في مفترق طرق الحياة بعد أن خلا عقلها من أي مقدرة على النهوض من كبوتها والتركيز في رسم مسار جديد لحياتها. لويزة التائهة المعذبة بتأنيب الضميروالتي كانت ذات يوم قوية، ها هي تزداد انهيارا واكتئابا عندما يداهمها شبح لدهم الذي تراه في يقظتها ومنامها يطاردها بعصا فضيحتها وخيانتها وقد كان دائما سندها المتين رغم فيروس التمرد والنشوزالذي أصابها في مقتل.

تزداد لويزة مع الأيام ضعفا نفسيا، بل صارت شبه خرساء حتى عن الحديث في المو اقف العادية مع أفراد عائلتها خاصة مع

أبيها وأمها ولم تعد كما كانت تفعل من قبل حينما كانت تصول وتجول وتستشار في أي شيء حتى وهي بعيدة عن أهلها ولا أحد كان يستطيع تجاوزرأيها حتى وهي مع لدهم في عش الزوجية الذي تطايرت حطباته في مهب الريح وقد أضحت الآن في عراء الحياة خائرة القوى كغراب منتوف الريش.

أفراد عائلتها، والداها وأشقاؤها وشقيقاتها وخالاتها وأعمامها الذين يعرفون قصة انفصالها عن لدهم لا يجرأون على التفوه أمامها بكلمة تسوؤها أو تجرحها حتى لا تتضاعف معاناتها مع أنهم في أعماقهم وعندما يكونون مع بعضهم بعضا يثيرون من حين لآخر ما حصل لها ويتأسفون لفر اقها عن لدهم الذي طالما وصفوه بالرجل الشهم والمخلص الذي قل نظيره. لم يتهكموا أبدا بها أو يوجهوا لها الاتهامات، بل يشفقون عليها دائما ويعتبرون تصرفاتها وسلوكاتها الغريبة في إخفائها حرفة البزنسة عن لدهم وزياراتها خارج البلاد بادعاء العلاج من ركبتيها حينا ومر افقة كريمة للعلاج أيضا حينا آخر، بأنه شيء مكتوب ومقدر لها، فهي ليست ملاكا طاهرا و إنما هي بشر يخطئ ويصيب، كما أنها ليست أولى ولا آخر من انفصلت عن زوجها وهذه هي الحياة قائمة على المتناقضات، فيها الحلو والمر

والتعاسة والسعادة والطلاق والزواج والليل المخيف بظلمته والنهار المؤنس بضوئه.

أما بعض غريماتها في مدينة أهلها من صويحباتها وجاراتها النفعيات، فإنهن كلما التقت إحداهن بأخرى أو تصادف وأن اجتمعن ببعضهن بعضا في حفلة فرح أو جنازة ولاحظن غيابها المعهود، أثرن من جديد فضيحتها وازدرينها وشمتن فيها خاصة وأنها كانت في سنوات زواجها الأولى تفاخر أمامهن بأنها فازت عليهن بزواجها من لدهم، الشاب الشهم الشجاع والمعلم المؤدب ذي الوجه الصبيح والعقل الرجيح. كن لا يستطعن مواجهتها لقوة شخصيتها وخوفا من ردة فعلها، فيكتفين بالنظر إليها شرزا وزم شفاههن وتبادل الغمزات خفية عنها.

أما الآن فما أضعفها أمامهن! صرن يتوعدنها ويضمرن لها الشر. ينتظرن أي فرصة سانحة يلمحنها فيها في حفلة من الحفلات أو حتى في زيارة لها عادية لعائلة من عائلات الحي للانقضاض عليها كفريسة سهلة ولا يهمهن أن يكشفن سبب طلاقها انتقاما منها حتى تنتشر فضيحتها بين النساء. غير أن لويزة المنطوية على نفسها، لم تترك لهن الفرصة لافتراسها لكونها دوما غائبة عنهن، فلم تعد تغادر بيت عائلتها، وترفض حتى اقتراح والدها أن يخصها ببيت مستقل

مجاور لبيتهم، فهي تخشى أن يفتح ذلك الباب لزيارات الجارات وغيرهن من النساء وهي لا ترغب في أن تراهن يفضفضن أمامها بالحديث عن عائلاتهن وأزواجهن وحياتهن بحلوها ومرها في عش الزوجية، فيذكرها ذلك بماضيها المؤلم الذي مازال ينخر عظمها ولحمها ويحفر عميقا في نفسها كمرض مزمن.

من حين لآخر، تنادي على جابر الذي أضحى أنيسها الوحيد، فتحتضنه بقوة في صدرها خاصة عندما يذكر أمامها أنه يفتقد والده. تشعر وهو في حضنها بأنه الرابطة البريئة التي بقيت نابضة بالحياة وتجمع بينها وبين لدهم. يدق قلبها دقا قويا وتهتز أوصالها، فتتذكر لدهم وأيامها وسنوات سعادتها معه، فتزيد من ضم جابر إلى صدرها. فقد صار طفلها مقترنا بطيف لدهم؛ لأنه كثيرا ما يذكر أمامها اسمه. تسيل من عينيها رغما عنها دموع ساخنة تلامس وجه جابر الذي لا يعرف حقيقتها ويرجعها إلى الأحزان المتراكمة التي تلازم والدته منذ طلاقها من أبيه.

تقول في نفسها.. جابر فلذة كبدي.. صار يتيما حقا. مع أن لدهم يزوره من حين لآخر أو يأتي لأخذه ليقضي أياما معه في فترات العطل المدرسية، فإن جابر في قرارة نفسه يتألم بشدة وينتابه التوتر

والقلق عندما يرى أصدقاءه برفقة آبائهم في السوق أو في ملعب كرة القدم أو يتجولون معهم في سياراتهم.

تتذكر لويزة بأنه في عيد الأضحى الأخير قال لها والدموع تسيل من عينيه بأن كل الأطفال من أصدقائه كانوا مع آبائهم في يوم العيد إلا هو كان وحيدا عندما دخل يصلي مع الأولاد ولما خرج من المسجد شاهدهم مرفوقين بآبائهم يمشون في الشوارع نحو بيوتهم أو إلى أقاربهم للمعايدة، وكلهم فرحة وسرور. أدركت –وقتها- بأن جابر كان يفتقد والده الذي يحبه كثيرا وكان شديد التمسك به.

ولكنها في بعض المرات، عندما يراودها شبح لدهم وتتذكره في موقف نزاع معه، خاصة في الأشهر الأخيرة قبل انفصالها عنه، عندما كانت نار نشوزها وتمردها مستعرة، تطمئن نفسها بأنها في الحياة وهي طليقة حرة أهون عليها من حياتها وهي في قبضة لدهم الذي كانت تراه سجانا يكبل يديها وقدميها بأغلال ثقيلة لا فكاك منها. تقول في نفسها إن سلوك النشوز لديها جعل الجارة كريمة البزناسية تستغل الوضع وتسحبها إليها. سولت لها نفسها أن تصبح غنية مثلها، وتلبس هي أيضا ما غلا ثمنه وقل وزنه وتتستر عن نشاطها وتختلق ألف مبرر عندما يتساءل لدهم أمامها عن مصدر ثرائها. ولكن ها هي اليوم لا تقف فقط على فاجعة حادثة انفصالها

عن لدهم، بل عن حقيقة مآل نشوزها والمصير البائس الذي انتهت إليه.

تعترف في دخيلتها.. المرأة دون رجل لا تساوي شيئا.. الزواج عشرة طويلة حبلى بكل التقلبات والمتناقضات.. الحياة امتحان حقيقي للصابرين إلى أن تتغير أحوالهم للأحسن كما أنها نهاية مؤلمة لكل من يفقد الصبر على المكاره والخصومات بين الأزواج.. تمردت عن لدهم زوجي وحبيبي الذي لم يخطئ معي بل كان يدعوني ويرشدني إلى كل ما فيه خيري وصلاحنا جميعا، ولكني كنت أرفض أي شيء يصدر منه نحوي سواء كان إيجابيا أو سلبيا.. كنت أحيانا أقبل النصيحة ذاتها من غيره من أفراد عائلتي أو من جاراتي ولكني لا أقبلها منه بسبب كرهي له في السنوات الأخيرة.. كنت أحيانا أرد عليه بالرفض حتى قبل أن يكمل حديثه أو أفهم مقصده.. كنت لا أريد سماع صوته أو النظر إليه..

كلما تهم إلى فراشها تتقلب يمينا وشمالا وبالكاد تنام بسبب الأرق والوحدة والندم عن كل ما اقترفته في حق لدهم الذي لن يعود إليها؛ لأنه طلقها بالثلاث دون رجعة. لذلك، فهي تذرف دموعا حرى لا تتوقف. أحيانا لا تستطيع حبس دموعها نهارا أمام أفراد العائلة، فيشفق عليها الجميع، وتبكي لبكائها أمها الكبيرة في السن والتي لم

تعد تتحمل منظر ابنتها التي تتعذب أمامها ولا تستطيع فعل شيء للتخفيف من مصابها ومعاناتها التي طال أمدها.

(2)

في مثل هذا اليوم من كل جمعة اعتادت ابنتها حياة التي تزوجت مبكرا أن تزورها في البيت. لقد تزوجت من أحد أقاربها قبل أن يمر على طلاق أمها بضعة أشهر. و افقت لويزة على الزواج دون تردد؛ فهي لا تريد أن تثقل على أهلها بابنتها المراهقة التي بلغت سن الزواج خاصة أنها انقطعت عن الدراسة بعد أن فشلت في نيل شهادة البكالوريا. جلال المقيم في الإقامة الجامعية في مدينة والده، يزورها في عطلة الأسبوع ويجتمع بها مع شقيقته وجابر الصغير الذي يدرس في المرحلة المتوسطة. مرة على مرة، يتفقد جلال والده في البيت، وإن لم يجده، يتوجه إليه في المقهى ويجلس معه بعض الوقت. لدهم لا يتردد في إدخال يده إلى جيبه ويسلمه بعض مصروف الجيب الذي يحتفظ به له ويظل هذا المبلغ معه أحيانا لمدة أسابيع لكي يمنحه إياه عندما يلتقيه.

لدهم لا يريد أن يفقد ابنه جلال ويسعى دائما للمحافظة عليه وتوطيد العلاقة معه. حياة ابنته، يزورها في بيت زوجها وجابر يخرج إليه من بيت عائلة أمه إلى الشارع إن كان على عجل أو يستقبله في

صالة البيت ولو لفترة قصيرة دون أن تراه لويزة أو ينبس ببنت شفة باسمها أمام ولده؛ لأنها صارت مطلقة ولا تحلّ له.

في بعض المناسبات، مثل عيد الأضحى هذا، تدعو حياة جلال وجابر لزيارة والدهم ببيته في اليوم الثاني من العيد. يطرقون عليه باب البيت، فيجدونه مغلقا. يتساءل الجميع.. أين عساه يكون يا ترى؟ وهل حصل له مكروه؟ ثم تلوح لجلال فكرة، فيطلب منهم الانتظار أمام الباب بعض الوقت وينطلق مسرعا باتجاه المقهى.

لدهم يجلس وحيدا والنادل من ساعة لأخرى يتنقل بينه وبين بعض الجلوس من شذاذ الآفاق يقدم لهم مرة القهوة، ومرة عصير الليمون ومرة أخرى قارورة ماء؛ لأنهم يقضون –مثله- طوال نهارهم في المقهى خاصة في مناسبة العيد. المكان يخلو من زواره الطبيعيين الذين يلزمون أيام العيد بيوتهم لاستقبال أقاربهم أو يسافرون إلى أصهارهم و أقاربهم لأداء واجب المعايدة بعد أن يتمتعوا و أبناؤهم في يومهم الأول من العيد بالأضحية ويطعمون من لحمها شواء لذيذا على الجمر أو على الفرن أو مطبوخا ليؤكل في وجبة الكسكسي أو الشخشوخة التي تسيل اللعاب.

-أبي عيدك مبارك وسعيد وكل عام و أنت بخير

لا يستطيع لدهم الكلام وهو يتفاجأ بفلذة كبده أمام عينيه. تسبقه الدموع ويجيب:

- هذا أنت جلال.. أتعبت نفسك في المجيء إلي وقطعت كل هذه المسافة الطويلة وحتى سيارات النقل قليلة.

- لم آت وحدي أبي.. جابر وحياة ينتظران أمام باب البيت.. هيا نذهب إليهم.

لم يجد لدهم بدّا من الانطلاق. هذه المرة لا يتلكأ في مشيته كما كان يفعل من قبل عندما يمشي بهدوء. قدماه تدفعان به دفعا نحو الأمام كسيارة تحركت عجلاتها بسرعة حتى أن جلال صار يتأخر من حين لآخر بخطوة أو خطوتين عن والده، وبالكاد يلحق به. في الطريق، جلال يسمع والده بعض عبارات التهاني بالعيد ولكن لدهم لم يكن يسمعه. كل همه هو الوصول بأقصى سرعة إلى فلذتي كبده والاجتماع بالجميع في بيته. يتحسر قليلا في داخله؛ لكونه لم يمكث في بيته في هذا اليوم السعيد حتى يفتح لهم الباب بنفسه فيطمئنون عليه أكثر لا أن يجدوه مشردا في المقهى.

يرتمي عليه جابر وحياة

- أبي.. أبي..

لم يستطيعا التفوه بالتسليم والمعايدة. تنطلق دموعهما مدرارة على خدودهما. ينضم جلال إلى حياة وجابر اللذين يحتضنانه. يريدون أن يشبعوا عواطفهم القاحلة من عطف الأبوة وحنانها حتى أنهم لم يهتموا بساكني العمارة من رجال ونساء وأطفال يمرون بجانبهم بل ويحتكون من حين لآخر بأجسامهم لفسح المرور نظرا لضيق سلالم العمارة.

بعد برهة من الوقت، يفتح لدهم الباب، ويتوجه إلى الصالة حيث التلفاز والمكان المفضل لجلوسه ونومه. حياة وجلال ينطلقان في أرجاء البيت يتفقدانه غرفة غرفة ويتفحصان كل شيء حتى أو اني المطبخ والحمام وخز انة ملابسه. يريدان الاطمئنان على والدهم ولكي يعرفا أسلوب عيشه بعد هذا الفراق الطويل عنهم.

أما جابر، فقد ظل مع والده يحادثه ولا يفارقه لحظة واحدة ولم يتوجه إلى تفقد البيت. بعد مدة، تدخل عليه حياة وجلال. حياة لم تستطع صبرا. تسبقها دموعها وهي تقول:

-أبي الحبيب.. الغبار يملأ الغرف وكل أثاث البيت مبعثر حتى ثيابك مرمية عشوائيا فوق السرير، وبقايا بعض الوجبات التي تحضرها في المطبخ أو الجاهزة التي تأتي بها من المطاعم، متيبسة وشبه متعفنة بلون أخضر جراء الفطريات.

يغير جلال الحديث إلى وجهة أخرى لأنه لا يريد أن يحرك مواجع والده.

- بالنسبة لي، آتي من حين لآخر من الجامعة و أتفقد والدي بالبيت أو في المقهى. هيا نفرح بالعيد.

تفتح حياة الحقيبة الممتلئة وتخرج منها ما لذ وطاب من حلويات العيد وكمية من الفواكه والسلَطة والبطاطا المقلية المحشية في الخبز وكمية من الشواء المحضر على الجمر الذي أتت به حياة من بيتها.

ينهمك الجميع في الأكل إلا حياة فتأكل قليلا ثم تتركهم يتحدثون وتتسلل إلى حيث لاحت لها الفكرة لتنفيذها. بعد فترة من الزمن قضاها مع جلال وجابر في الصالة، يتحرك لدهم متعقبا حياة التي أثارتهم بقعقعة الأواني في المطبخ. يجدها وقد نظفت الغرف والبهو والأرائك من الغبار العالق ومسحت البلاط بالماء والصابون والجافيل، كما غسلت أواني المطبخ وأعادت ترتيب كل شيء في البيت حتى لباسه المترامي في كل مكان أعادت توظيبه وترتيبه بادئة من غرفة والدها وخزانة أثاثه. كما رذّت في كل أرجاء البيت عطرا زكيا مزيلا للروائح الكريهة وجدته في الحمام. لم يبق إلا أكياس القمامة الممتلئة عن آخرها تنتظر إخراجها من البيت.

يسارع جلال:

-سأتولى نقل هذه الأكياس إلى صندوق النفايات.

يبتهج لدهم قائلا:

-عمت البيت رائحة طيبة منعشة، شكرا أبنائي. أحبكم كثيرا من كل قلبي.

قبل أن يغادروا، يتمسك جابر ببدلته ويتوسل إليه لمر افقتهم أو أن يبقى معه أياما أخرى، ولكن لدهم يعتذر ويدعوهم إلى العودة دونه، متعهدا أمامهم بأن هناك فرصا كثيرة قادمة سيغتنمها لزيارتهم ناصحا جلال وجابر بالاجتهاد والنجاح في دراستهما. بعد أن يفكر قليلا في المآل الذي وصل إليه، يتوجه إلى ابنته ناصحا إياها بأن تتعلم من تجارب الحياة والمحافظة على بيتها وزوجها. حياة ذكية تفهم مرامي كلام والدها دون الحاجة إلى أن يذكرها صراحة بوالدتها التي أجهضت تجربة حيهما ولم تعرف كيف تحافظ على عش الزوجية. يغادرونه في سيل من الدموع والأحضان فيما يتجلد هو بالصبر، فلا تغرورق عيناه بالدموع مثلما فعلها عندما رآهم ينتظرونه أمام البيت. هذه المرة، يحبس دموعه ويدسّ ضعفه في أدغال نفسه حتى لا تتضاعف لديهم الحسرات والآلام على فر اقه

وعيشه وحيدا من دونهم ومن غير زوجة تحبه وتؤانسه وتعينه على شدائد الأيام.

(3)

ها هي شمس الضحى تطل من زجاج النافذة مسلطة خيوط أشعتها مباشرة على وجهه. يستشعر بعض الألم في رأسه، فيستيقظ من نومه. يقوم متكاسلا ثقيلا من مكانه لشدة السهر وحيدا ويتجه إلى الحمام عساه يسترد بعض حيويته. عندما كانت لويزة برفقته كان إذا صلى الفجر في المسجد لا يعودان إلى سريرهما الدافئ للنوم مرة أخرى. كان النشاط في بيتهما يدبّ باكرا، يقضيان بعض الوقت يتحدثان في المطبخ فيما هي تحضر فطور الصباح ثم توقظ الأولاد من نومهم للصلاة وتجهزهم للذهاب إلى دراستهم.

لويزة في الأشهر الأخيرة قبل الانفصال، كانت متذبذة في نهوضها الباكر. كانت بالكاد تستيقظ وكثيرا ما كان ينخزها من يدها ويرفع صوته مناديا حتى تغادر سريرها وهي في أشد التعب وكأنها لم تنم قط، أو أنها كانت تعمل كل أمسها بصباحه ومسائه في عمل بدني فهدّها التعب فاستسلمت لنوم عميق كأنه الموت.

أما الآن، وهو في أتون وحدته، فقد صارت له عادة جديدة، وهي أن يخلد للنوم بعد صلاة الفجر. ربما لأن لويزة ليست معه حتى

تشوش عليه بشقشقة الأواني عندما تكون في المطبخ أو تشغله ببعض الحديث عندما تنتهي من تحضير فطور الصباح. بل إنها حتى لو بقيت في فراشها تغط في نومها، فلم يكن يعرف النوم بعد صلاته ويستغل هدوء الفجر في قراءة ما تيسر من القرآن. ولكنه حاليا ها هو يفقد شيئا فشيئا عادة البقاء مستيقظا بعد الصلاة، ويكتسب عادة جديدة سيئة؛ وهي الاستسلام للكسل والعودة إلى النوم إلى غاية الضحى ولا ينتبه من نومه لوحده بل أشعة الشمس المركزة على رأسه هي التي توقظه بلسعاتها التي يزيدها حدة وتركيزا عبورها من زجاج نافذة الصالة.

خلال شهور الانفصال، لويزة لم تغادر خياله أبدا، فهي حاضرة بطيفها في سريره وفي المطبخ وفي الصالة وفي كل مكان كانا يرتادانه معا. رغم تمردها عليه قبل طلاقها، فقد كان دائما يأمل أن ينصلح أمرها أو يهتدي إلى طريقة تجعلها تعود إلى رشدها.

في أيامها الأخيرة كانت تزوره بعض الأفكار التي كان يعتزم تنفيذها خاصة عندما طرح أمر نشازها على صديقه عمي علي صاحب المقهى، فنصحه بالانتباه وبضرورة أن يعرف صديقاتها اللاتي لا شك أنها وإياهن على نفس الأفكار والسلوك. كان عمي علي يستدل على ذلك بالمثل القائل "الصاحب ساحب، إما إلى الجنّة وإمّا

إلى النار". كان لدهم يو افقه على صحة رأيه ويخبره بأنه يلاحظ بأن زوجته منذ أن توطدت علاقتها بالجارة كريمة انجرت إليها بقدر المسافة التي ابتعدت بها عنه.

لدهم كان من قبل يساوره الاعتقاد حينا بأن الجارة هي سبب تغير لويزة وحينا آخر يرجع الأمر إلى النشوز الذي ينتاب بعض النساء، فيكرهن أزواجهن، ويقول إن النشوز ظاهرة نفسية واجتماعية مرتبطة بالإنسان وحده ولها أسباب معقدة لا تعرف حقيقتها إلا المرأة الناشز أو تلك التي تجرأت على التصريح بذلك أمام زوجها أو أمام من ترى من أهلها أو أهله لكي يوصل رسالة الكراهية إلى الزوج. بعض الأزواج يفعلون الشيء نفسه مع زوجاتهم إلا أن الرجال أكثر جرأة، فيصارحون زوجاتهم بذلك، فيطلقونهن أو يتزوجون عليهن بنساء أخريات فيقبلن بالأمر الو اقع والعيش في ظل تنافر عاطفي رهيب لأسباب عدة كالحفاظ على الأبناء أو البقاء في حماية الزوج العائل ودفعا للشبهات، أو استجابة لضغط العرف الاجتماعي، أو أن تضطر الزوجة إلى خلع نفسها إن كانت مازالت شابة ووجدت في غيره بديلا ولأبنائها مستقرا لدى أهلها أو في بيتها الخاص لا سيما إن كان في مقدورها التشمير على سواعدها والخروج إلى العمل لجمع قوتها وقوت أبنائها.

لدهم يتذكر كيف كانت تدور في خلده كل هذه الأفكار والوساوس التي منها ما يمكنه تنفيذه ومنها ما هو مستحيل التجسيد. غير أن رأيه كان يستقر دائما على نصيحة صاحب المقهى الذي جعله يقرر وقتها أن يعرف بعمق علاقة لويزة بصديقتها الجارة وأن يصل إلى كل شيء يربط بينهما، ولو تطلب منه الأمر دفع المال وتسخير أي امرأة ذكية تساعده في ذلك.

لدهم كان يعرف غاية المعرفة منذ سنوات طويلة بعض المعلمات اللاتي يعملن معه في المدرسة ويحترمنه كثيرا. فهن يعتبرنه بمثابة والدهن، ولا يقبلن أبدا بتشتت أسرته ولا بسلوك لويزة الشاذ إزاء زميلهن. كان يقول في نفسه إنهن سيعملن دون أدنى ريب في مساعدته على التخلص من مشكلته العائلية فلطالما ساعدهن أيضا في تحضير دروسهن وإرشادهن تربويا تجاه التعامل مع التلاميذ عندما كن يطلبن عونه ونصحه وهن في بداية الطريق. كان متيقنا بأنه سيصل إلى السر الذي سحرت به الجارة كريمة زوجته لويزة فشكلتا معا ثنائية بشرية لا تكاد تنفصل عن بعضها بعضا. ثم ها هو يتأسف؛ لأنه قبل تنفيذ قراره، إذا بهذه الثنائية البشرية المركبة من معدنين غير متجانسين ينفك لحامهما فتنشطران إلى شظيتين

متابعدتين تطاردهما اللعنات وفضيحة البزنسة والكذب والخيانة وسرقة أموال الناس.

يردد في نفسه.. لماذا يا لويزة تفعلين ذلك؟ فأنا لم أقصر في حقك يوما.. لقد تسببت لي في عذاب مرير مازال يكوي بناره قلبي وكل أوصالي.. مزقت أسرتي وبعثرتي أبنائي ومسستني في شرفي.. تلاعبت بعواطفي وهزأتي بعقلي وحولتني إلى طرطور لا يعلم عن زوجته شيئا.. جعلتني استيقظ من غفلتي على فضيحة مدوية ألحقت بي عارا كبيرا.. لويزة في الصائفة الأخيرة كنت تتذرعين بالمحافظة على ميزانية البيت بتشغيل مكيف واحد هو مكيف بهو البيت فنرتاح وننام ليلتنا مع الأولاد.. ولكني فهمت الآن لماذا كل ذلك.. كنت في الحقيقة لا تريدين الاجتماع بي في غرفة واحدة.. غرفتنا التي جمعتنا أياما وليال ولسنوات مديدة صيرتها قفرا خاويا كصحراء عواطفنا الجرداء التي لم ينمو بها أي أخضر ولا نزل بها القطر..

يتذكر موقفا حصل بين أمه ولويزة ولم يفك شفراته إلا الآن.. قالت لي أمي ذات يوم عندما زراتني.. يا ولدي إن لويزة حليلتك لم تستقبلني بالأحضان الدافئة كما كانت تفعل في كل مرة تلتقيني.. لويزة.. لقد سلّمت على أمي بيدك وحسب ولم تقبليها على خديها.. كانت يدا شبه باردة.. لا تقولي إن يدك كانت باردة من أثر غسل

الثياب، بل إنها كانت بدون حرارة تدب في أوصالك.. أمي ذكية.. سرعان ما أحست بتغيرك.. قد خبرتك منذ كنت طفلة.. لكم احتضنتك في صدرها الحاني عندما كنت تهربين إليها مستنجدة من مطاردة أمك أو أبيك لما ترتكبين خطأ من الأخطاء في المنزل.. كم ردتهما عنك متذرعة بأنك ما زلت طفلة صغيرة.. كانت تفلتك من قبضة والديك وأشقائك الغاضبين فأقوم باصطحابك للعب معي في شارع بيتنا القريب من بيتكم..

لوزيرة.. صحيح أن غلطتك كبيرة ولا تغتفر.. ولكن حبك الطاغي عليّ ملأ سمائي وغطى أرضي فلم أعد أرى إلا إياك يا حبيبتي التي اختفت من ناظري في لمح البصر ولكنك تسكنين في قلبي إلى الأبد.. فضيحتك كبيرة.. تمردت وكذبت وتطاولت.. رفعت صوتك في وجهي لأتفه الأسباب.. ونعتني بأبشع الأوصاف.. فؤادك الذي كان يخرج منه لهيب العواطف الجياشة صار بركانا يقذف حمم الكراهية والبغض.. الحب يتطلب الصبر والحلم حتى يدوم مهما كانت العثرات والنكبات إلا أنك لم تصبري ولم تحلمي وغلبتك العثرات وهزمتك النكبات..

لويزة يا حبي الأول والأخير.. نعم الأخير لأني لا أستطيع حتى التفكير في امرأة أخرى قد تكون أجمل منك، وأكثر حكمة وتعقلا

منك، وأرفع ثقافة ووعيا منك، ولكني لا أجرؤ على القرب منها واتخاذها زوجة لي ما دمت أنت الجمال والحكمة والعقل والثقافة والوعي.. فأنت عندي جامعة لكل شيء يا حبي.. لويزة.. أفكر حقيقة في العفو عنك وأنت الظالمة الناشزة الحرون.. الصفح والعفو شيمة الرجال المحبين الذين يحول حبهم دون هجران الحبيب مهما يرتكب من أفعال خطيرة.. كم هي القصص الحقيقية التي تحكي عن اصطلاح حال أزواج وزوجات اقترفوا الخيانة والسرقة وتعاطوا الممنوعات من مخدرات ومسكرات في أوقات انفرد بهم الشيطان وغزاهم الطيش وحب الشهوات وانزلقوا في لعنة المصالح والمنافع الخاصة إلا أنهم غفروا لبعضهم بعضا بسبب جذوة الحب المشتعلة في شغاف قلوبهم ولم يجدوا عنها عوضا لدى غيرهم..

سأعفو يا حبيبتي.. بل إني عفوت عن كل شيء منذ أحببتك.. ولكنك لم تمهليني حتى أفكر.. قلت أننا لا نستحق بعضنا بعضا حينما واجهتك بفعلك المخفي عني.. سارعت إلى طلب الطلاق وأصررت على ذلك رغم التردد الذي أبديته أمامك.. ربما كنت غاضبة من نفسك تريدين الانتقام منها لأنها سولت لك بما يغضب زوجك وربك.. ما أشده من عقاب ارتكبتيه في حق نفسك ونفسي.. لولا أنك أسرعت إلى شقيقك تهاتفينه وتطلبينه أن يأتي وينقلك على الفور إلى

بيت أهلك لكان لنا الآن طريقا آخر غير الذي سلكناه ولكنا الآن تحت سقف واحد دون أن تتقطع بنا السبل، ولا نقبل أن تظل حياة وجلال وجابر مشردين كاليتامى بعد أن فقدوا الرعاية والحماية الحقيقية.. حياة مع أنها في بيت زوجها فهي تبكي كلما رأتني لشعورها بوحدتي القاتلة في بيت مخلع الأوصال لم يعد يجمع بين جنباته الحب والدفء المعهود.

(4)

الأيام والليالي القاهرة تتقاذفها بعنف في كل الاتجاهات مثل كرة قدم توجعها ركلا أقدام اللاعبين. تفقد بوصلتها، فلا تعرف أي وجهة تنحوها ولا أي مأوى تقصده، فيقيها ضربات الزمن. بحر ماضيها المضطرب يجر قليها الممزق جرا إلى أنياب أمواجه العاتية فتغدو بلا قلب ولا روح فيما يسحلها مصيرها سحلا على أرض شائكة نحو غد مجهول لا تعرف عنه شيئا منذ أن أبلغتها أمها بما سيغير حياتها للأحسن لو تضاعف فقط من دعواتها وتكثر من الصلوات والصدقات.

عندما تخبرها أمها بالمآل الجديد الذي ينتظرها، ترتعب ولا تتقبل الأمر، فهي لا تستطع تخيّل نفسها على فراش الخاطب الجديد، الحاج البكري، الإمام السابق لمسجد الحي الذي بلغ من العمر سبعين سنة. بعد أن توفيت زوجته العجوز، قرر أن يتزوج ويخلف ولو ابنا أو بنتا واحدة؛ فهو مازال في كامل صحته وقادرا على الانجاب مثلما أخبر بذلك والدها وهو يتقدم لخطبتها.

الحاج البكري له رغبة ملحة في إعادة الزواج ولا يريد أن يلقى الله أرمل، كما يبتغي أن يرى له مرة أخرى قرة أعين بعد أن غادره كل من في البيت، أبناؤه مع زوجاتهم وبناته مع بعولتهن. حتى عجوزه هرب

بها الموت إلى القبر بعد أن أفلّ جسمها المرض و أثقلت كاهلها السنون الطوال. كان عندما يتحدث في حلقة من حلقات الدروس الدينية في المسجد، يتسلل بحديثه نحو موضوع الزواج ويبين أهميته وخطورة أن يبقى الرجل أرمل أو مطلقا.

الحاج البكري يردد نفس الموضوع عند مجالسة أصدقائه، لكن لا أحد تنبه إلى مرامي كلامه ولا أحس برغبته في إعادة الزواج. عندما يئس من الجميع، قام بنفسه وتشجع مستغلا علاقته الطيبة مع والدها و أبلغه برغبته في الزواج من ابنته. أخبره أيضا بأنه يلقى مقاومة شديدة من أبنائه وبناته الذين رفضوا زواجه من جديد عندما يثير أمامهم هذا الموضوع بطريقة غير مباشرة كأن يخبرهم عن قرائته فاتحة الكتاب عن رجل أعاد الزواج بعد الطلاق أو فترة من الترمّل. كان أبناؤه وبناته يرفضون ذلك، ولعلهم أدركوا تلويحاته من خلال أخباره المتكررة عن موضوع الزواج، ربما بسبب الغيرة على أمهم حتى وهي في دار الآخرة؛ لأنهم لم يكونوا يتحملون فكرة أن تحتل امرأة أخرى غرفتها حتى لو كانت غرفة دون روح، باردة وخاوية على عروشها.

حينما قام مرة بردة الفعل وطالبهم بأن يعود أي منهم للإقامة معه في بيته من أجل السهر على خدمته استعصى عليهم جميعا تقبّل

الأمر خاصة زوجاتهم اللاتي رفضن فكرة أن يصبحن كنّات ويتولين خدمة شيخ طاعن في السن خاصة إذا تعلق الأمر بتحميمه وتنظيفه وتلبيسه وهن الزوجات اللاتي اعتدن على خدمة أزواجهن وحسب.

الحقيقة، أن الحاج البكري يريد أن يعيش في بيته بدونهم جميعا حتى يستقدم زوجة ثانية تؤانسه في وحدته، وما طلبه من أبنائه بأن يقيم ولو أحد منهم معه حتى تخدمه الكنة بصفة دائمة فهو من باب إقامة الحجة عليهم.

الحاج البكري لا يريد أن يبقى عالة على أبنائه وبناته يرسلون له يوميا طعامه ويغسلون ثيابه كل أسبوع ويتفقدونه في حالة الضرورة، وأحيانا يقوم أحدهم بالإقامة معه عندما يشتد عليه المرض. مرة، حينما أشفق عليه ابنه الأكبر و اقترح عليه أن يقيم معه في بيته حتى تخدمه زوجته، انتفض ورفض الاقتراح لشعوره بفقدان حرمته خارج بيته، وفكر بأنه ربما لن يزوره أحد من معارفه لكونه صار يسكن في بيت غير بيته. بل لعل أبناءه وبناته و أقاربه وبعض أصدقائه وجيرانه يأبون زيارته؛ لكونه ليس في بيته وهو يعرف أن بين بعضهم مشاكسات ومشاحنات تمنعهم من زيارة بيوت بعضهم بعضا، ولهذا لن يقبلوا بزيارته عندما يكون مقيما في بيت أحدهم.

تحدث الحاج البكري إلى والد لويزة عن معاناته الشديدة ووحدته القاسية في غياب امرأة حلال. وضع أمامه قفة مليئة بالهدايا وظرفا يحتوي على مبلغ ضخم من المال وترجاه أن يو افق على طلب يد ابنته. عندما قصت عليها أمها بالتفصيل خبر زيارة الحاج البكري إلى بيتهم ورغبته في طلب يدها، انهارت قواها على الفور وأغمي عليها. رشتها أمها بماء بارد على وجهها وحركتها قليلا شقيقتها الكبرى التي سارعت إليها فانتبهت من غشيتها. لما لاحظتا أنها استعادت وعيها غادرتاها وتركتاها وحيدة تفكر في الأمر فيما راحت أمها تولول في نفسها.. يا إلهي.. أي نهاية لابنتي مع شيخ طاعن في السن يتلكأ في مشيه ولا تفارق يده عكازته.. لا يمكن أن نقبل بزواج لويزة منه مهما تلطف معنا وأغرانا بهداياه وبمسكنه الفخم ومزرعته الكبيرة.

تهطل من عيني لويزة دموعا حرّى وتحزن لما وصل إليه حالها من بؤس وعذاب ووحدة بعد فراق لدهم. تردد في نفسها.. يا رب.. كيف انتهى بي المآل إلى حد الحاج البكري؟ أذكر جيدا عندما كنت طفلة صغيرة بصحبة والدي، كيف كان يرفعني من الأرض عاليا ثم يضعني في حضنه.. كان يعطيني الحلوى ويدعو لي ويقبلني على خدي وهو يقول لوالدي ابنتك جميلة جدا.. ما شاء الله تبارك الله لها مستقبل

زاهر ينتظرها.. هل جاءت اللحظة لأجد هذا المستقبل الزاهر ينتظرني على باب الحاج البكري بلحمه وعظمه..

تتذكر كيف كانت وهي صغيرة تلعب مع الأطفال في أرجاء الحي.. كنا نستغل، مرة على مرة فترة الصلاة ونتسلل إلى المسجد فنحدث فيه بعض الجلبة.. يرفع بعض المصلين القريبين نحنحات حناجرهم حتى نخاف ونهرب ولكننا كنا لا نأبه بهم.. كنا نعرف أنهم لا يقطعون صلاتهم. كان الحاج البكري وبمجرد انتهاء الصلاة يقوم على الفور من مكانه ويلحق بنا جريا ويطارنا في الشوارع وفي يده نعله يرميه على كل من يقتنصه.. مرة قبض علي عندما تعثرت قدمي على كومة من الحصى فنلت منه عدة ضربات قوية على خاصرتي وتوعدني بالضرب الشديد إن عدت مرة أخرى إلى فعلتي.. شكوته إلى والدي الذي وبخني بشدة على فعلتي ولم يهتم للمواضع المحمرة في جسدي خاصة وأنها لازمت خاصرتي لعدة أيام.. ها قد جاء الآن يخطبني لكي أكون أنيسة فراشه، ولعله سيتذكر ما حصل لي معه في طفولتي، فيضع يده مجددا على مواضع الاحمرار والألم ذاته بخاصرتي ويمسح برفق تأثيراته على نفسي محاولا التكفير عن ذنبه القديم في حق طفلة لم تكن تفرق بين المسجد والشارع.. لعله أيضا يتذكر الطفلة الصغيرة التي لاعبها واحتضنها وقبّلها على خديها وجبينها عندما كانت

ذات يوم برفقة والدها، فيقبلها هذه المرة، ولكن أين؟ الآن أمي قلقة وكذلك والدي؛ لأني عبرت لهما عن رفضي المطلق للزواج منه بعد أن خيّرت والديّ بين الهروب وعدم رؤية وجهي نهائيا أو أن يستيقظوا على جثتي تتأرجح من مروحة سقف غرفتي.

يغزوها طيف لدهم، فيخرجها من أوجاع تفكيرها وتتخيل نفسها في حضرة الحاج البكري في غرفته.. تتأوه.. وا أدهماه! لا يمكنني تحمل كل هذا العذاب.. لدهم.. تركتني في جحيم مستعر.. أين أنت يا حبيبي؟ ها أنا أصرخ في أعماقي وأستغيث.. هل من مخلّص مما أنا فيه بعد أن دارت علي الأيام و انقلب ضدي الزمان.. وبات كل شيء يجري في طريق مجهول لا أعرف نهايته؟

لدهم.. عندما قلت لك في حالة غضب لا نستحق بعضنا.. كنت غاضبة على نفسي وليس عليك.. كان يجب أن لا تتركني أهرب منك وأكلم شقيقي الأكبر ليحملني وأولادي إلى أهلي.. كانت لحظة فارقة تقاس ربما بدقيقة أو أقل.. كان يجب أن تحتقر مطلبي وتصمت.. كان يكفي أن تقول تريثي و انتظري إلى الغد أو فكري في الأمر.. فلعل رشدي كان سيعود إلي، فلا أصرّ على طلب الطلاق و أنا في حالة جنونية كان خلالها شيطاني يدفعني دفعا إلى خيار الانفصال عنك.

حبيبي.. لا أدري هل مازلتُ حاضرة في تفكيرك وخيالك؟ أنت بالنسبة لي مازلتَ حاضرا في قلبي وروحي، وستظل تملأ علي كل دنياي وخيالي وتفكيري.. يا ملاك روحي.. هل تدري من جاءني خاطبا؟ إنه الحاج البكري الذي تعرفه دون ريب.. يا لسخرية القدر! هل تذكر؟ أكيد أنك تذكر حينما كان يلاحقنا بنعله وعثرت أنا أمامه فأوجعني ضربا فيما تمكنت أنت من الهروب.. كنت أنت تضحك وتهزأ بي على عدم الانتباه إلى كومة الحصى التي تعثرت بها و أنا هاربة من قبضته الشديدة.. ها قد جاءني راغبا في أن أكون حليلة له و أنام في فراشه وهو الشيخ العجوز فيحول قبلاته القديمة البريئة على خدي عندما كنت طفلة إلى قبلات حميمية على شفتي تلك الطفلة التي نضجت وكبرت وجربت وخبرت الحياة..

لدهم.. غزالي المنيع.. وفارس أحلامي المختفي في غيوم الحياة.. هل يمكنك الظهور فتطل علي كما يطل القمر المنير على الكائنات العاشقة في ليلة مظلمة؟ بالتأكيد لن تطل ولن تنير ظلمتي.. فقد طارت الغيوم بالفارس الأبيض ودس الضباب كل أثر له بعد أن اختار الغزال بيئة أخرى لا أعرفها فيما حططت رحالي في بيئة حزينة بائسة؛ لأنك لست فيها لكي تسعدني وتريح نفسي.

البارحة لم يتفقد النوم أجفاني ولم تغادر لعنات الماضي نفسي ولا هواجس المستقبل قلبي لأنك من منع الكرى عن أجفاني وحرك مواجع الماضي وألهب نيران قلبي.. لدهم حبيبي.. حينما قلت لك طلقني، لم أكن أقصد أني أكرهك، بل لأني انتبهت إلى غلطتي التي لا تغتفر وذنبي وظلمي لك، فندمت على ذلك وأردت أن أعاقب نفسي بالانفصال عنك لا أن أعاقبك..

ها أني اعترف مع أنه لم يعد الآن للاعتراف قيمة بأني خنتك بالكذب عليك والادعاء بالسفر إلى الخارج لزيارة الطبيب ومرافقة كريمة للعلاج في الخارج لعدة مرات.. هي من دبرت وخططت ونفذت وكنت أنا مجرد تابعة.. انسقت لها طمعا في المال وقد كنت في كفاية من حالي معك.. كانت كريمة تغدق علي بالمال حتى حينما نخسر في صفقة من الصفقات.. كانت تدعي بأنها حصتي من الأرباح حتى تبقيني إلى جانبها في حين كانت الصفقة خاسرة في الأساس كما علمت ذلك من بائع الجملة، رياض، عندما كان يحذرني بأن انتبه إلى الخسارة.. كنت أشكك في نصائح رياض لأن كريمة كانت تعطيني دائما حقي من الفوائد وتغضب عندما أحدثها عما أخبرني به رياض، وتقول لي لا تستمعي إليه.. وبالفعل رفضت تنبيهاته وصرت لا أصغي إلا إليها..

لدهم حبيبي.. خيالك أنيسي الآن في وحدتي.. ربما لم تعرف كل الحقيقة عن خيانتي.. وها أنا أقولها لك مغلفة باللطف لهولها حتى لا تنهار أو تثور فيك الرجولة التي عهدتها فيك فتنتقم لي ولك من أولئك الأوباش حتى وأنا بعيدة عنك بعد أن فصلت بيننا أيدي الأقدار.. تم استدراجي نحو الهاوية وأوشكت على السقوط في دنيا الغواية بسبب إغراءات الهدايا من أموال وحلي ذهبية بسبب جمالي وقوامي الذي كان يغري كل من يراني في الأسواق.. في الأسفار.. في الفنادق بالخارج.. كنت أتلقى عروضا بالهدايا غالية الثمن مزدانة بالكياسة والكلمات اللطيفة الحلوة.. كنت لا أحكي لك شيئا من ذلك؛ لأني كنت متمردة عنك وأشبع خوائي العاطفي بالتمتع بكل ما أحصل عليه حبا في الثراء بعد أن انسل حبك من قلبي في فترة التمرد عليك.. وما أتعسها من فترة! ويا ليتني مت قبل ذلك حتى لا أشهد ما شهدته!

لكني رغم كل هذه الإغراءات التي لا يمكنك تصورها، أقسم لك حتى وأنا منفصلة عنك بأن جسدي لم يلمسه غيرك.. كدت أتعرض للاغتصاب في أحد الفنادق.. أخفيت تحت مخدتي خنجرا لحماية نفسي.. كنت سأغرسه في قلب كل من يلمس جسدي أو كنت سأقتل نفسي قبل أن يقربي أي شيطان منهم رغم محاولات كريمة

التي أوقعت بالكثير من العازبات والمتزوجات والمطلقات الجميلات.. أعترف أني كنت أخطط للطلاق حينما كنت في أشهري الأخيرة متمردة عنك وكارهة لفراشك.. أقصد فراشنا.. استغلت كريمة فراغي العاطفي بل طلاق أحاسيسي منك وطلبت مني أن أتحرر من قبضتك ومن سجن بيتك حتى أسافر معها إلى تركيا و أندونيسيا والخليج.. فقط التفكير في مصير الأولاد هو ما كان يحول بيني وبين اتخاذ قرار خلعك ..

لدهم.. عرفت الآن ولكن متأخرة وبعد فوات الأوان أن حرص بعض الزوجات، و أنا واحدة منهن، على جمع المال والرغبة في امتلاك السيارة الفاخرة والذهب والفساتين الر اقية خفية عن أزواجهن، هي طرق معبدة بالحرير تؤدي إلى هاوية تخمد عواطف الأزواج وترحل بهم نحو النشوز.. أعترف بكل هذا لك عساك تغفر لي خطيئتي وعسى نداء قلبي يصل صداه إليك.. فالقلوب العاشقة تتحسس بعضها بعضا وتتناجى فيما بينها مهما بَعُدت المسافات وتقطعت بها السبل، ولها لغتها الروحية الخاصة غير اللغة التي عهدناها نحن البشر.

(5)

تمر أشهر قليلة وتهدأ شيئا فشيئا العاصفة الهوجاء التي أحدثها الحاج البكري في نفسها. والداها يقلقان أكثر من حالتها النفسية المتفاقمة وهما يلاحظانها تتعذب ندما على انفصالها من لدهم مع تردد بعض الخطّاب على بيتهم، أرامل ومطلقين، من كل الفئات الاجتماعية الغنية والفقيرة، شيوخا وكهولا. بعضهم يلقى الرفض من أهلها، وبعضهم الآخر ترفضهم هي مع شعورها بأن رفضها يعذب والديها اللذين يشفقان عليها وعلى ابنها ولا يريدانها أن تعيش بقية حياتها وحيدة وعليها أن تقبل بالو اقع وبسنة الحياة من أجل تكوين أسرة جديدة.

في هذا اليوم، تبدو الأم على غير عادتها متوترة تنتابها المخاوف كلما اقتربت من ابنتها. ومع ذلك تتشجع بدعم من زوجها الذي بقي في غرفته ينتظر النتيجة. تمهلها أمها بعض الوقت حتى تتناول فطور الصباح ثم تتقدم منها برفق وتودد وهي ترسل نحوها الإشارات والتلميحات مخافة أن ترفض طلبها بالزواج من عمار الميكانيكي الذي تقدم لخطبتها البارحة. أمها تشفق عليها كثيرا ولا تريدها أن تضيع الفرصة من يديها، فقد تعبت من رؤيتها تتعذب من الوحدة ومما حصل لها من اكتئاب وانهيار نفسي حتى أن وجهها بات مصفرا على

الدوام وأصاب جسمها هزال شديد يكاد يعصف بما تبقى من قوتها وجمالها.

تدرك لويزة من كلام أمها أن هذه رغبة أبيها وأيضا كافة العائلة إلا أنهم لا يريدون إحراجها بدفعها مكرهة إلى الزواج ثانية وكأنهم يرغمونها على ذلك. الوالد يتألم في صمت كبير، ولكن تفضحه أحيانا بعض دمعاته الحارة على خديه حينما يتحدث إليها وجها لوجه ويرجوها أن تطلب منه أي شيء تشتهيه لكي يجلبه إليها من أي مكان. فقد كان دائما يحبها منذ كانت صغيرة ولطالما عبر عن إعجابه بذكائها وحذقها في شؤون البيت وتأدبها معه ومع أمها وأشقائها وشقيقاتها. لم يتحمل مثلها الصدمة النفسية التي أصابتها واتهام الجميع لها بالخيانة. كان يواسيها بأن الحياة لها وجه مظلم مثلما أن لها وجه مشرق، والإنسان في ابتلاء وامتحان مادام على قيد الحياة، وهناك لدى الله مكان طيب للتائبين من عباده. كان يتمنى أن تواصل دراستها حتى تنال شهادة البكالوريا ثم تدخل الجامعة وتتخرج بشهادة عالية ترفع بها عاليا هامة الأسرة وتبني بها حياتها وتخدم وطنها، غير أن الثانوية بعيدة جدا عنهم وغياب وسائل النقل العمومي جعلها تنقطع مبكرا عن الدراسة مكتفية بمستوى السنة الرابعة متوسط وبشهادة الأهلية .

بعد أسبوع عقب الانتهاء من وجبة العشاء، تختلي بها أمها في غرفتها وتصارحها:

-عمار سنه في الخمسين. يعمل ميكانيكيا لحسابه الخاص في محل عمله الذي يدر عليه ربحا كثيرا؛ لأنه متواجد بأقصى المنفذ الشمالي للمدينة على جانب الطريق الرئيسي حيث دخول وخروج المركبات. طلق زوجته بعد سنة واحدة من زواجه. يقال إنهما لم يكونا على توافق وازدادت نزاعاتهما في الأشهر الأخيرة قبل انفصالهما.

لويزة ترد على الاقتراح بالإيجاب بإيماءة من رأسها وترتمي على أمها تحتضنها وتبكي فيما الأم راحت تقبل فلذة كبدها على رأسها وخديها ويديها ثم تنصرف وهي باسمة مرددة.. طمأنتني يا ابنتي.. الحمد والشكر لله.. إن شاء الله تخرجين من هذه المحنة الكبيرة التي وقعنا فيها جميعا.

مهما كانت العاقبة، فإن لويزة ستتحمل نتائج موافقتها على عمار الميكانيكي ويجب عليها إرضاء والديها وإعادة الزواج. رغم مشكلة الفضيحة التي تعاني منها طوال سنتين، فلابد أن تتزوج ثانية ولا يهم وقوعها في مشكلة أخرى مع زوج لم تعرف عنه إلا القليل. تقول في نفسها.. الإنسان لا يستطيع تجاوز مشكلة عويصة لديه إلا

بالارتماء في مشكلة أشد منها أو مثلها حتى تنسيه مشكلته الأولى.. لن يخرجني من دوامتي العاطفية والنفسية بعد انفصالي عن لدهم سوى الزواج مجددا وقبول العرض الجديد.

في الواقع، لم يطلب عمار الميكانيكي رؤية لويزة ليأخذ رأيها فيه بعد أن جاءته شقيقته الكبرى بأخبارها الطيبة. كما لا يهمه إلا تحقيق رغبته في أن يجد امرأة صالحة يرزق منها بأولاد. أما الحب في رأيه، فينشأ بعد الزواج مع الزمن والعشرة الطويلة. يردد دائما أمام أصدقائه بأن عديد الأزواج والزوجات كانوا عشاقا ومتحابين قبل زواجهم، ثم انفصلوا عن بعضهم بعضا بعد ذلك، وقضايا الطلاق من هذا النوع تملأ المحاكم، وكم من الزيجات نجحت بعد أن لمسها الحب بعد الزواج.

يلتقي بها عمار في بيت والدها الذي أصرّ عليه أن يراها قبل الدخول عليها، كما أنها رغبتها أيضا؛ لكونها تريد أن تطرح عليه بعض شروطها.

-ما شاء الله تبارك الله. جمال وقوام.. لويزة أرجو أن نبدأ معا رحلة حياة جديدة والمحافظة على عش زوجية دافئ ومستقر؛ فكلانا ذاق مرارة الطلاق وعذاب الوحدة.

-شرطي للزواج بك أن يرافقني ابني جابر الذي ليس له غيري.

-شرطك مقبول. اطمئني، سيكون بمثابة ولدي. فأنا بحاجة إلى أبناء، فقد طلقتها دون أن أنجب منها مثلما أخبروك.

عمار يترجاها أن تزف إلى بيته بعد أسبوع على الأقل ولكنها ترفض طلبه. هو يريد أن يسرع بالزفاف خوفا من أن تتراجع عن الزواج، فهو يخشى من ألسنة الناس، فكثيرا ما أجهض القيل والقال خُطوبات وهدم زيجات وفرق بين المرء وزوجه. لذلك، يفضل عمار أن يسرع في أمر زواجه ويغتنم فرصة موسم الحرارة الذي ينخفض فيه مستوى نشاطه، كما يرغب أن يستغل الصيف ليسافر و إياها إلى شاطئ البحر أو يأخذها إذا شاءت إلى الخارج ليتمتعا معا بالفرجة السياحية في بلاد أجنبية يختارانها سويّا.

لويزة على العكس منه تماما، لا تستعجل حفل الزفاف وتريده أن يكون في بداية الخريف بعد انقضاء موسم الحرارة. هي تريد المزيد من الوقت وبررت ذلك أمامه بأنها ترغب في ترتيب شؤونها حتى تنتقل إلى بيتها الجديد. يخضع في النهاية لرغبتها ويؤجل موعد الزفاف إلى موسم الخريف، ومن ثم، يزفها إلى بيته في موكب متواضع جدا متكون من سيارتين أو ثلاث دون شوشرة أو زعيق مثلما أخبرها وو افقت على ذلك.

يقلب حدث استعداد لويزة للزواج كل من في البيت رأسا على عقب. صارت حياة تزورها أسبوعيا لمساعدتها في تحضير شؤون الزفاف والانتقال إلى بيتها الجديد. وكذلك تفعل خالاتها اللاتي فرحن بالخبر السعيد. أما جلال الذي يقضي كامل أسبوعه في الدراسة ويبيت بالإقامة الجامعية، فقد سرّه خبر إعادة زواج أمه، ولكنه بدا قلقا عندما عرف بأنه سيظل في بيت جده ولن يقيم مع والدته عدا جابر الذي قبل به عمار لصغر سنه، ولكنه في كل الأحوال، فإن بيت والدته الجديد سيظل مفتوحا له لزيارتها متى أراد.

تساور لويزة المخاوف من حين لآخر وكأنها ستزف لأول مرة لرجل لا تعرف عنه سوى القليل، على العكس من طليقها لدهم الذي كانت تعرفه منذ كان طفلا. إنها تخشى من تجربتها الجديدة من الزواج أن تؤول إلى فشل ذريع فتحمل نفسها مسؤولية ذلك، بل سيحملها أهلها وحتى أقرباؤها وكل الناس تبعات انهيار زواجها الثاني لو يحدث طلاقها مرة أخرى. العرف يقضي بأن المرأة التي تطلق مرة واحدة، قد يغفر لها الناس سبب طلاقها ويعتبرون فشل زواجها امتحانا لم تنجح فيه، وقد يحملون مسؤوليته إلى الزوج. أما إذا تطلقت مرة ثانية أو ثالثة فإن طلاقها لا يغتفر وستكون هي المسؤولة عن ذلك في نظر الناس وسيتهمونها بالسوء وخفة العقل وعدم صلاحيتها

بالكامل؛ لأنها لم تحافظ على زواجها الثاني ويفترض أن تكون قد تعلمت من تجربة زواجها وأخذت العبرة من طلاقها الأول.

لويزة تعدل من بعض عاداتها في البيت تحضيرا للزفاف. لأول مرة تتحرك خارج مدينتها مع ابنتها حياة إلى السوق المركزي في مدينتها الأولى حيث إقامة لدهم لكي تقتني ما يناسبها من فساتين وعطور نادرة وحتى بعض الأواني الخزفية للزينة. ينقلها إلى هناك شقيقها الأكبر في سيارته كل أسبوع تقريبا. تختار دائما شارع محلات النساء غير ذاك الشارع اللعين الذي يوجد به محل رياض الذي تشعر إزاءه بالمرارة والفزع. كلما تذكرته عاودتها مواجع ماضيها الحزين. ولكنها تمني نفسها بأن ترددها على السوق إنما هو مؤقت ولفترة محدودة تشتري خلالها بعض مستلزمات زفافها المفقودة في مدينتهم.

لويزة الآن كالنواس المتأرجح يمينا وشمالا؛ فهي تعيش في مرحلة صعبة وفي صراع نفسي بين الرغبة في التخلص من فراغها العاطفي والاجتماعي الذي عاشته في فترة طلاقها في بيت والديها وبين هواجس الانتقال إلى بيتها الجديد مع رجل شبه غريب قبلت الزواج به لتحقيق رغبة والديها وأيضا محاولة منها لتجاوز وحدتها القاتلة وسعيا منها أن تعيش كزوجة صالحة فتتعفف ككل النساء الصالحات حتى لا تصبح عرضة للشبهات وشماتة الشامتين في حالة

بقائها مطلقة، وما أكثر اتهامات الناس وقذفهم في شرف المطلقات والأرامل خاصة إن كن –مثلها- جميلات وقابلات للزواج.

تقبل لويزة أخيرا بما سيؤول إليه مصيرها وتستعد بكل قلبها وعقلها لإسعاد الزوج الجديد مهما كلفها الأمر من صعوبات. لقد تعلمت الدرس جيدا من طلاقها الأول ولن تقبل مرة أخرى بتجربة فاشلة مع عمار الميكانيكي الذي ستخدمه بعينها خاصة و أنه قبل أن يتربى جابر معها في بيته ولن يشعر بأنه يعيش كاليتيم وحيدا في بيت جده. سيظل دوما إلى جانبها وترسله إلى المدرسة وإلى جده وجدته وإلى خالاته وأخواله لزيارتهم، كما سيتعود على عمار الذي سيرسله إلى السوق أو لاقتناء حاجة للبيت أو يرسل معه وصية إلى صديق. سيكون بلا شك ابنا عزيزا لديه وسيحبه مثلما تحبه. وإذا أنجبت منه، سيفرح جابر بأخته أو أخيه من أمه. ستعمل على إسعاد أسرتها الجديدة وإدخال السرور يوميا إلى قلوب الجميع. فلن تعرف السعادة والهناء إلا إذا كان عمار و ابنها جابر و أبناؤه سعداء في بيت واحد يعمه دفء المحبة والتضامن. سيكون عشها الزوجي القادم مضرب الأمثال، وسيحسدنها غريماتها مرة أخرى على زواجها الثاني مثلما فعلن في زواجها الأول، ولكنها لن تسمع لهن أبدا ولتذهب أقاويلهن إلى الجحيم حتى تعيش حياتها في استقرار وطمأنينة.

(6)

صباح متشح بلون المغيب لم تعهده من قبل، وشمس يكاد ضوؤها يتلبس لون الغبار المتطاير هنا وهناك في ساحة نفسها بعد أن سكن وتلبد على مدى سنتين. ليلتها لم تكن ككل الليالي التي عرفت فيها ألم الوحدة. البارحة، هوت عليها ظلمة غاشمة دون سابق إنذار، فخار جسدها الضعيف تحت قبضته الشديدة. لم تستطع حتى أن تتبين مواضع جسده أو تتحسس ملامح وجهه بعد أن غرقت في ظلام بهيم ودون أنوار تضيء الغرفة.

عندما كانت مع لدهم في أول ليلة زفت إليه، لم تنطفئ أنوار غرفتها. لدهم كان يقول لها أنه لا يخجل أن يراها في ثوب جمال خلقتها، وهي أيضا كانت تبادله التفكير والشعور وهي تتملى بسحنة وجهه القمحية الأخاذة وتتفحص جسده بعضلاته المفتولة.

أما ليلتها البارحة، مع عمار، فقد كان كل شيء مختلف. عندما دخل عليها، سرعان ما غادرته أمه وأخته. قالتا لبعضهما بأن العريسين ليسا جديدين على الزواج ويتمتعان بخبرة سابقة ويعرفان جيدا ما يجب أن يكون عليه الحال في ليلة الزفاف. صفقتا باب البيت خلفهما بعد أن تركتا في المطبخ صينية كبيرة مليئة بالشواء والحلويات وقهوة وحليبا. عمار بمجرد دخوله سلم عليها ثم مباشرة

أطفأ النور. في البداية تمنت أن تظل الغرفة مضيئة، ولكن حينما رأتها وقد أظلمت غيرت رأيها، فهي لا تريد أن ترى وجهه أو تتحسس عضلاته القوية؛ لأنها مع عمار مجرد جسد بلا مشاعر بعد أن قتلت مشاعرها ودفنتها في قبر ماضيها ونسيت حتى مكانه.

جابر لم يصطحب والدته في هذه الليلة وربما سيظل منقطعا عنها لعدة أيام. أمها أرادت أن تعيش ابنتها كعروس تزف لأول مرة لعريسها حتى تنسى أوجاعها ومعاناتها وظهور جابر ولو قليلا في بيتها الجديد في أيامها الأولى سيعيدها إلى ذكرياتها التعيسة، ولعله يعكر صفو عمار الذي بلا شك سيرغب في الانفراد بها في بيته. لذلك تركت الوالدة موضوع جابر إلى ما بعد الزيارة الأولى التي سيقوم بها العريسان إلى بيتهم حيث سيتعرف أهلها عن قرب على صهرهم الجديد.

بعد أن تركها عمار نائمة منهكة في فراشها حتى الصباح، يغادر البيت نحو السوق، وما هي إلا ساعتين ويعود ويضع أمامها قفة فيها خضر وفاكهة ولحم وموادّ غذائية ويطلب منها تحضير وجبة الغداء ثم يغادر نحو أصدقائه الذين اعتاد مجالستهم.

يستحسن عمار طعامها اللذيذ الذي أخذ منها وقتا طويلا في التحضير. فهي كما توصيها أمها دائما، سواء عندما كانت مع لدهم

أم كما هي الآن مع عمار، بأن تهتم جيدا بوجبة طعام أسرتها، وقد أورثتها الأم ما تعلمته وخبرته من والدتها خاصة طعام الكسكسي وكسرة المطابيق. ليست كل النساء يُجدن تحضير طعام شهي، وهناك نساء تعرضن إلى الطلاق لمجرد أنهن لا يعرفن فن الطبخ ووضعن أزواجهن في حرج كبير أمام الأصدقاء والضيوف حينما يتذوقون طعاما لا يؤكل لطعمه المقيت فينقطعون عن تناوله ويعوضونه بالفاكهة.

لذلك، كثيرا ما يشكرها عمار على طريقة تحضيرها للطعام ويخبرها أن أصدقاءه طالما أثنوا عليها في ذلك. لويزة تعرف أن وجباتها اللذيذة تسيل لعابهم بدليل أنهم لا يتركون أي أثر منها على المائدة عدا قشور أو نوى الفاكهة أو بعض الخبز. عمار لا يريد أن يقارنها بسميرة، زوجته السابقة، التي جعلته يكره وجباتها التي ليس لها أي مذاق حتى أنه صار يطلب منها تحضير وجبات باردة على رأسها السّلَطَة الخفيفة التي لا تسمن ولا تغني من جوع. وغالبا ما كان يعود إلى البيت من عمله إلا بعد أن يتناول وجبة غداء في أحد المطاعم حتى لا يتحول البيت إلى ساحة معركة ضروس بينهما يضطر معها أهله وأهلها لفض النزاع. سميرة كانت تقبل بالتزام الصمت ولا تلومه على تناول طعامه خارج البيت؛ لأنها تدرك بأنه لو شاع هذا الأمر بين

الناس ستصبح عُرّة بين النساء ومحل تهكم وسخرية بينهن، بل وقد تجرؤ إحداهن على إحراجها بذلك في حالة تبادل الاستفزازات في موضوع نسوي معين.

لويزة تحرص على تمتين علاقتها الجديدة مع عمار وتحاول أن تستثمر أي شيء طيب يصدر منها وتلاحظ أن زوجها يستحسنه بدءا من الطعام اللذيذ الذي تقدمه له. بل ها هي تزيد في خدمته، فيجد ثيابه نظيفة كل صباح، وغرف بيته مرتبة أيما ترتيب. ولكم شكرت والدته وشقيقاته لويزة على حذقها وحسن تدبيرها، وكذلك، والده وأشقاؤه حينما يبادلونهم الزيارات حيث لم تفتأ لويزة تستقبلهم بحرارة وتغدق عليهم أجمل عبارات التسليم والتقدير وتقدم لهم بعض الإكراميات والهدايا.

لويزة تنصح يوميا جابر أن يعتبر عمار بمثابة الوالد وأن يأخذ بنصائحه وأن يطيعه عندما يرسله إلى السوق أو إلى صديق أو يطلب منه مساعدة في محل الميكانيك عندما يكون موجودا هناك. وكان جابر يأخذ بنصائح أمه ويطبقها حرفيا. حتى جلال الذي يزور بيت أمه من حين لآخر فهو دائم التحية والابتسام في وجه زوج والدته، ويتمنى من كل قلبه أن ينجح زوج أمه في امتحان حياته معها، فيخرجها من دوامة التفكير وأحزان الماضي التي تطاردها.

في إحدى السهرات العائلية شكرتها سعيدة، شقيقة عمار الكبرى، على حسن صنيعها واهتمامها وحرصها على إسعاد عمار وأنها امرأة مختلفة تماما عن تلك المتهورة زوجته السابقة.

-ما يهمني اليوم هو حياتي الجديدة وسأضع عمار في عينيّ وأخدمه من كل قلبي.

تقول ذلك بشفاهها فيما قلبها المسكون بحب لدهم لا يطاوعها، فهي لن تجد شخصا آخر نظيرا لفارسها الذي اختفى عن الأنظار وتركها جريحة كسيرة الجناح. ولكنها مع عمار ستحاول مع الأيام إقناع نفسها بحبه وسيعلمها الزمن بأن الماضي لن يعود وأن صفحة حياتها مع لدهم قد طويت للأبد.

تستأنف سعيدة وقد غزتها ذكرى سوداء:

-تلك الفاجرة فضحت نفسها وفضحتنا جميعا وعمار كاد يصاب بالشلل مثلما سمعت عن ذلك دون شك!

ترد مستغربة:

-ماذا تقولين؟ تتهمينها كل هذا الاتهام.. ما سمعته أنهما لم يتفقا في عدة أشياء وحسب، فاختار كلّ منهما طريقا آخر. وها هو عمار تزوج من جديد و أتمنى أن أقدر على إسعاده.

تبتسم سعيدة وتعلق:

-لذلك نحبك جميعا. عمار يتحدث عنك كثيرا بإعجاب ويرجو أن يخلف منك ذرية صالحة. أما تلك الخائنة فعليها اللعنة، حتى أن أهلها غيروا بسببها مكان إقامتهم وسكنوا في حي شعبي بعيد حتى لا يصل إلى هناك خبر خيانتها.

-عن أي خيانة تتكلمين؟

-لقد فاجأها عمار مع عشيقها في غرفة الضيافة. كانا يتعشقان في شبكة التواصل الاجتماعي ويتواعدان خلسة عنه. ذات يوم أبلغه خلال سفره أحد أصدقائه، ولما تأكد بنفسه من ذلك لم يشأ أن يرتكب جريمة فيدخل السجن بسبب عاهرة وعشيقها الذي لم يكن إلا خطيبها السابق. فقام بإبلاغ النيابة والشرطة التي حضر أفرادها و اقتحموا عليهما البيت، وكانت ليلة مشهودة. أغمي وقتها على عمار و أبي وأمي من هول فضيحة الخيانة. هما دخلا السجن وعمار كاد يصاب بالشلل والجنون ودخل في أزمة نفسية مازال يعاني من آثارها، ولكنها خفت بنسبة كبيرة.

تتذكر لويزة على الفور غلطتها وما اقترفته في حق لدهم. كما تتذكر خيانة كريمة البزناسية المختفية التي انحرفت بعد ترملها وصارت توقع من استطاعت إغواءهن من نساء عازبات ومتزوجات شابات في حبائل الدعارة.

-الشيطان لعنه الله. يفعل الأفاعيل بالأقوياء والضعفاء إلا من رحم ربي.

تكتفي لويزة بهذا القول كمن يريد توقيف المحادثة فيما كانت تشعر بآلام في رأسها بسبب وخز الماضي. تطلب استكمال الحديث إلى فرصة أخرى، وفي قرارة نفسها، رغبة شديدة في عدم فتح بوابة ماضيها من جديد وما يحمله من ذكريات مع كريمة وفضيحتها مع لدهم.

(7)

لا شيء يعكر صفو هذه اللحظات الجميلة بين لويزة وابنها جابر المنهمكين في حديثهما بعيدا عن عمار. رغم مرور بضعة أشهر على زواج أمه ووجوده في بيتها الجديد، فإن جابر مازال يكلم والدته بهمس ولا يجرؤ على رفع صوته بالكلام في حضرة عمار كما كان يفعل من قبل في حضور والده لدهم. في البيت الجديد يخشى أن ينتهره زوج أمه ولو بالخطأ، فمهما كان، فإن عمار ليس والده وسيبقى ضيفا في بيته. وفي أي لحظة بإمكانه طرده ليعيش بعيدا عن أمه في بيت جده مع أنه يحبها ولا يريد أن يعيش بعيدا عنها.

عمار العائد للتو بعد الظهر من عمله يتناول بنهم وجبة غدائه اللذيذة، ومن حين لآخر، يرفع رأسه نحوهما ويطلب منهما أن يتحدثا

إليه بأي شيء حتى يغير مزاجه، ولو بقص بعض النوادر والنكت، فهو يريد أن يغير قليلا جو العمل الذي أنهكه طوال النهار.

تطلب لويزة من جابر أن يتكلم وأن يحكي قليلا عن دراسته. فيعبر عن إعجابه ببعض معلميه، ويقول أنهم أفضل من معلمي الموسم الدراسي الماضي، لذلك فهو يعول على النجاح متعهدا بالاجتهاد وبالحصول على نتائج ممتازة.

يكلمه عمار ناصحا:

- احذر يا بني من الشيطان!

تعقب لويزة وهي تلتفت إلى ابنها محاولة زرع الثقة بينهما:

- هل سمعت ما قاله أبوك؟ الشيطان! عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

يعقب عمار ضاحكا:

-ذاك الشيطان اللعين الذي عصى الله ولم يسجد لآدم معروف. لكني أقصد شيطان شبكة التواصل. فقد دمّر عقول التلاميذ والشباب وأتلف حكمة كبار السن وهدم عائلات بكاملها وفرّق بين الأزواج. إنه خطر كبير كتعاطي المخدرات والخمور ومن الصعب الإقلاع عنه إذا أدمن عليه الإنسان.

لويزة كانت منذ قليل تعتزم إخراج هاتفها الجوال من حقيبتها وتسلمه إلى جابر ليلهو به قليلا مثلما كانت تسمح له بذلك من قبل وهي في بيت والديها. ولكنها تراجعت بعد أن سمعت تحذيرات عمار. هاتفها الجوال جلبه لها جابر بناء على رغبتها بعد أن تركته في بيت أهلها قبل الزواج بنية استعادته لاحقا. وقد راح جابر يهمس إليها بأن تسلمه إياه لبعض الوقت فهو مازال غير قادر على أن يطلب من عمار هاتفه، فقد يرفض طلبه وهو غير مستعد للإلحاح عليه كما كان يفعل سابقا مع والده الذي يتحمل دلاله ويلبي حاجاته.

يتمدد عمار على سريره، ويطلب من لويزة الاقتراب منه فيما يفتح هاتفه الجوال ويروح يقلب صفحات الفيسبوك واليوتيوب. عمار يفضل مشاهدة الأشرطة التي تتحدث عن ميكانيك السيارات وتصليحها. من حين لآخر يجد نفسه مدفوعا بقوة إلى متابعة فضائح الخيانات الزوجية وانحراف المراهقات والمراهقين وأخبار الطلاق وتعدد الزواج ومغامرات بعض العوانس في عالم الشعوذة بحثا عن فارس الأحلام أو انقطاعهن لخدمة والديهن الطاعنين في السن أو التفرغ لأي شغل يمضين به الوقت بعد اقتناعهن بفوات قطار الزواج.

لويزة تحاول بكل وسيلة أن تتجنب تلك المشاهد، بل وتندم أشد الندم حتى عن الاقتراب منه بسبب إصراره عليها بمتابعة أخبار الفضائح التي تعتبرها مضيعة للوقت وطريقا للغواية حتى لو كانت ظاهريا تحمل الكثير من التحذيرات والعبر. لويزة ترى أن أخبار العشق والخيانات الزوجية ربما تمكن بعض النساء والرجال من إيجاد الحيل والخداع لإخفاء انحرافاتهم. فهي تعتبر بأن كل خصومة حادة بين الأزواج تبقى دون حل أو تصالح بينهم هي باب للتنافر العاطفي، كما أنها قنبلة موقوتة تهدد بتفجير عش الزوجية. لذلك، فإن بعض المتزوجين والمتزوجات ممن هم عاجزون عن الطلاق الحقيقي عن طريق القضاء لأسباب عائلية أو عرفية يتخذون خليلات وأخلاء في السرية التامة. بعضهم يعلم عن الطرف الآخر كل شيء، ويسمحان لبعضهما بهذه السلوكات المجرمة اجتماعيا ودينيا، بل ويفضلان العيش، على كره، تحت سقف واحد، بسبب ظروف قاهرة حالت دون انفصالهما، وآخرون لا تعلم زوجاتهم عنهم شيئا كما لا يعرفون عن زوجاتهم شيئا مما خفي.

تتذكر لويزة كيف أن لدهم حدثها عدة مرات قبل انفصالها عنه، عن قصص خيانة بعض الزوجات لأزواجهن وقصص بعض الأزواج والزوجات. في إحدى المرات ذكر لها حوادث عن خيانات فيها

حتى النفاق في الدين، فبعضهم ممن لديهم خلافات مع شريك الحياة أو مات الحب بينهما، يعوضه بغيره في أماكن العمل أو في الفنادق أو الأسواق أو حتى في الحارة التي يقيمون فيها. بعد المواعدة واللقاء الحميمي، يتوجه بعض الأزواج إلى الحمامات والمرشات العامة فيغتسلون من الجنابة ومن أي أثر عالق بأجسادهم وثيابهم من مساحيق أو رائحة عطور عشيقاتهم، ثم يدخلون بيوتهم متظاهرين بالطهارة أمام نسائهم وكأن شيئا لم يكن، بل إن منهم من يؤدون صلواتهم أمامهن حتى لا يثيرون أي شبهة وشكوك.

لا ترغب لويزة على الإطلاق في سماع أخبار الخيانات الزوجية مهما كانت غرابتها. فقد صارت الآن أميل إلى اتباع ومشاهدة البرامج النافعة ولا تستعمل شبكة التواصل سوى في التواصل مع أفراد عائلتها وشقيقاتها وخالاتها لا سيما شقيقها في المهجر، عبد اللطيف، الذي افتقدته كثيرا ولطالما كان يرسل إليها ما تحتاجه من مال وكساء لها ولأبنائها.

في نهاية عطلة الأسبوع، يغتنم عمار الفرصة فيسهر طويلا مع لويزة ثم ينام عميقا ويستيقظ متأخرا فيما هي تستيقظ قبله باكرا، تحضر فطور الصباح وتنادي على جابر في الغرفة المجاورة. عمار يتناول فطوره منفردا مادام كل شيء جاهزا ويلتحق بهم في الصالة

حيث التلفاز مازال مغلقا. لكنه يجدهما في تواصل مع شقيقها المهاجر عبر شاشة هاتفها الجوال وسط ضحكات وتلويحات بالأيدي بين جابر ولويزة.

يسارع إليهما عمار ويختطف الهاتف من يدها لكي يرى ويسمع ما يدور في المحادثة.

- ماذا دهاك عمار؟

- أردت أن أسلم على أخيك. أليس صهري؟

- بلى، ولكن ليس بهذه الطريقة العنيفة، أطلب مني ذلك برفق، فليس لدي أي اعتراض أو مشكلة في أن تكلم وترى أخي.

راح يسلم على عبد اللطيف ويعتذر منهما عن مفاجأة تدخله بينهما متحججا بمخافته من انقطاع الانترنيت التي كانت دوما ضعيفة التدفق في المنطقة، وهو لا يريد أن تضيع منه فرصة التسليم والتعرف عليه. تقبل لويزة وعبد اللطيف اعتذاره وتغلق هاتفها بعد انقطاع المحادثة مع شقيقها بسبب ضعف الانترنيت. بعد أن استأذنت من عمار، تطلب من جابر أن يرافقها إلى بيت والديها للزيارة الأسبوعية و إبلاغهما عن أحوال عبد اللطيف.

(8)

تستيقظ، قبله، مع الفجر، وتحضر له ولابنها فطور الصباح. جابر عليه أن يخرج من البيت قبل نصف ساعة حتى يصل إلى المدرسة مع الوقت المضبوط للدخول. أما عمار فتتركه في فراشه يتمتع بالمزيد من النوم؛ فهو لا يكف عن التوجع دائما من التعب الذي ينهك جسده يوميا في محل الميكانيك. من عادتها النهوض باكرا، وتجهز بزة العمل النظيفة لزوجها، وترمي في الغسالة ملابسه المتسخة بزيوت محركات السيارات وبأثر الغبار الرمادي الذي يلتصق بلباسه عندما يتمدد تحت المركبات لتصليحها.

عمار ينهكه بشدة تصليح السيارات طوال يومه خاصة و أنه يعتمد على القوة البدنية لحركة ذراعيه ويديه اللتين تشدان على المفاتيح لفتح وغلق براغي قطع الغيار. مرة قص على لويزة كيف اختل نظام عمل آلة الرفع فهبط هيكل السيارة على ظهره وأصيب بجروح ورضوض مازالت آثارها ماثلة لحد الآن، من وقتها، حفر خندقا طوليا مناسبا وسط مرأب التصليح وثبت سلسلة البكرة الحديدية بأعلى السقف وصار يرفع بها للأعلى أي مركبة حتى يكون في أمان تام.

عندما يتشاحن مع بعض الزبائن تحت ضغط التعب، فعوض أن يدخل معهم في نزاع قد ينفرهم من التعامل معه، يفضل الانسحاب ونفسه تغلي كالمرجل تاركا محله إلى حين، ويهرب إلى المقهى القريب بحثا عن بعض الراحة حتى يستعيد هدوءه وطاقته مجددا بعد أن يغسل وجهه بماء بارد ويشرب كمية منه ثم يرتشف فنجانا من القهوة المضغوطة بدون سكر. عمار ليس مريضا بالسكّري حتى يمنع نفسه عن كل شيء حلو. ولكنه يستحسن استهلاك القهوة والشاي من غير سكر، بل حتى المشروبات الغازية المحلاة بهذه المادة البيضاء لا يستهلكها حفاظا على صحته استجابة لنصيحة قديمة قدمها إليه زبون طبيب عندما توطدت بينهما العلاقة أثناء تردده على محله لعدة أيام لتصليح أعطاب سيارته المتضررة بشدة في حادث مرور.

لويزة تحاول أن تقدم كل ما لديها لإسعاد عمار مادام لم يبدر منه أي شيء يكدر حياتها ولا حياة طفلها جابر. كما أنه لا ينزعج عندما يعود من العمل ويرى ابنتها حياة وابنها جلال في بيته، كما لا يقلق من وجود والديها وأخوالها وخالاتها وأعمامها إذا قاموا بزيارتها دون سابق إشعار. لذلك ازدادت شغفا بخدمته ليلا ونهارا مع أنها في قلبها لا تشعر إزاءه بأي عاطفة حب، على الأقل في الوقت الراهن.

تقول في نفسها.. لعل القدر يغير حالي البئيس المتسربل بذكريات أليمة من الماضي إلى حال آخر أفضل، فمن يدري؟ فأنا امرأته ولكني مازلت لا أشعر بأني زوجته.. أنا امرأته، اخدمه بكل طاقتي ومن كل قلبي.. لن أكيد له أو أخونه مهما كانت الظروف.. فلقد أخذت العبرة من فشل زواجي السابق.. ها أنا خادمته المطيعة منذ تزوجته.. أغسل ثيابه وأحضر له طعامه، وأعمل عمل العشيقة واستجيب لرغباته كلما يدعوني لإطفاء ناره المتأججة.. وها هي بطني جاهزة، أمنحها إياه لأنجب له قرة أعين..

تردد في نفسها.. أقبل بأن أكون آلة غسيل ثيابه وطباخة طعامه وجارية فراشه وحاضنة ذريته في أحشائي.. فأنا امرأته ولكن لست زوجته لأننا لا نتقاسم الحب والأحلام والأفكار.. لست شريكة روحه ولا نصفه الثاني حتى أكون زوجته بالتمام والكمال.. احترمه و أقدّره، ولكني لا أحبه ولم أحب يوما سوى لدهم وسأظل كذلك حتى و أنا منفصلة عنه..

تتذكر ما كان يدور بينها وبين لدهم من حديث عن معنى الحب والفرق بين المرأة والزوجة.. لدهم كان يقول لي إن امرأة الرجل ليست زوجته بالضرورة.. امرأة الرجل قد تخونه لأنها ليست و إياه على تو افق عاطفي وفكري و إيماني حول شؤون الحياة الدنيا والآخرة..

أما الزوجة فهي والزوج كيان واحد يشتركان في عاطفة الحب والتفكير والإيمان والمعتقد والمصير.. لدهم كان يستشهد بسيرة النبيين لوط ونوح عليهما السلام.. كانت لكل منهما امرأته ولكنهما لم تكونا زوجتيهما.. كانتا خائنتين.. لذلك وصف الله كلاهما في القرآن بالمرأة وليس الزوجة.. امرأة لوط كان تفكيرها كفري وليس إيماني بالله مثلما يؤمن لوط.. كانت تخونه وتكشف أسراره لقومها الفجرة وإخبارهم عن ضيوفه حتى يعتدوا عليهم.. وامرأة نوح هي الأخرى كانت كافرة ولا تؤمن برسالة زوجها .. كما لم تكن امرأة فرعون زوجته؛ لأنها مؤمنة بالله فيما هو كافر.. أما الزوجان فيشتركان في التفكير والرؤية والمعتقد والمصير مثل آدم وحواء حينما قال له الله تعالى "اسكن أنت وزوجك الجنة".. كان لدهم يقول لي إن الخيانة ليست في الفراش فقط، بل تكون أيضا في الدين والمعتقد والإيمان والأفكار والعواطف والحب..

تعترف في دخيلتها بأن ذاك الشرح الذي كان لدهم يقدمه أمامها وتقتنع به بعد مناقشات كثيرة ينطبق عليها ويجعل منها خائنة.. نعم خنته بإخفاء حقيقة أسفاري وتصرفاتي والطمع في تكوين ثروة كبيرة والتمتع بمظاهر الحياة.. خنته في التفكير والاعتقاد وحتى في الدين الذي يمنع الكذب والغش ويحذر من الصحبة

السيئة.. ولكني -والله شاهد عليّ- أني لم أخنه في الفراش.. فقدت كياني في سنواتي الأخيرة خاصة في الأشهر التي سبقت طلاقي بقليل، فتحولت من زوجة مخلصة وفية تقاسم زوجها كل شيء إلى امرأة خائنة متمردة تختلف عنه في كل شيء. لم يدر بخلدي أنه سيأتي عليّ يوم و أقع في مصيدة الحياة و أتجرع من كأس الخيانة التي ملأتها بنفسي سمّا زعافا بعد أن وقفت على كل ما كان يقوله لي في أحاديثه التي لن أنساها ما حييت.

تستيقظ من ماضيها وتنتبه إلى وضعها الحالي.. ها أنا أعيش مع عمار تحت سقف واحد، ولكننا لسنا على حب واحد وعواطف واحدة.. حتى لو أنه يحبني، فإن قلبي ظل مغلقا تجاهه. المؤكد أنه لن ينفتح له حتى لو حاولت كسر مغاليقه بمطرقة الرأفة والشفقة عليه. أذكر أنه حينما اقترب مني مرة بعد وجبة عشاء، حاولت أن أفكر فيه بحب و أقبله على شفتيه قبلة هيام، ولكن قلبي لم يطاوعني و انتابتني رعشة شديدة ثم غبت عن الوعي.. استفقت بعد أن رشني ببعض الماء البارد ووضع شيئا من العطر على أنفي.. أردت إكرامه، فقمت واجتهدت وطبعت على شفتيه قبلة واحتضنته بقوة عسى أن تتفجر مني طاقة حب جديدة نحوه كما يتفجر الماء العذب من الصخرة الصلبة.. حاولت ذلك بكل جهدي وفشلت؛ لأن بطارية

مشاعري المصفّدة بعلامة حب لدهم لم تستجب لعملية التفريغ ورفضت أن تمتلأ مجددا بعاطفة الحب نحو عمار.

الفصل الرابع

(1)

تقلّ زيارات أبنائه. يبدو أن كل واحد منهم شغلته شؤون حياته عن الاهتمام بالوالد. جلال غيّر جامعته إلى جامعة أخرى ليكمل دراسته في طور الماستر بعد أن حصل على شهادة الليسانس. جلال كان دائما يشعر بالمرارة ويريد أن يهرب إلى أي مكان آخر لكي ينسى الآلام التي يعاني منها جراء انفصال والديه عن بعضهما بعضا بعد أن أدرك مخاطر تشتت العائلة. صعب عليه فراق أمه و أبيه اللذين لم يعد يلتقيهما كما كان يفعل من قبل تحت أي ظرف وفي أي وقت. كما انتهت إلى الأبد لقاءاته بأخيه وأخته في العطل تحت سقف واحد. أبلغ جلال والده بالانتقال للدراسة في جامعة أخرى بمبرر أنه يريد تغيير البيئة الجامعية المحلية إلى بيئة أخرى أفضل حتى يتعرف على مدينة جديدة و أناس آخرين، فيوسع من ثقافته ويجتهد أكثر في دروسه خاصة وأن لدى الجامعة المستقبلة فرصا كثيرة للظفر

بمقعد للدراسة بالخارج ولا بد له من العمل الجادّ حتى ينال مراده. لدهم في البداية رفض انتقاله إلى جامعة أخرى وطلب منه التريث والبقاء. لكنه مع إصرار جلال على هدفه، قبل بمبرراته على مضض مع أنه لم يقتنع تماما بأقواله بعد أن ساورته بعض الهواجس وخشي أن يبتلع الخارج ابنه فلن يراه مرة أخرى.

أما حياة التي أنارت بيتها مريم الصغيرة فقد صبت كل اهتمامها بطفلتها وراحت تمتص منها قسطها من الحنان والحب والدفء، ولم يبق لوالدها إلا الشيء القليل، ولعل عاطفة البنوة لديها غلبت عاطفة الأبوة. كما زاد تباعد المسافات بينها وبينه بعدا ونأيا فالبعيد عن العين بعيد عن القلب. لذلك، فإنها تكتفي ببعض المكالمات الهاتفية من أسبوع لآخر وأحيانا تنسى الاتصال به إلا إذا هاتفها بنفسه، أو عندما يزورها جابر ويطلب منها أن يكلم والده. لدهم يحب جابر أكثر من إخوته، ربما لأنه كان شديد الالتصاق به أو لعله مازال صغيرا فيخشى عليه من ظروف الحياة المتقلبة. ومع ذلك، فإن جابر قلل من التواصل معه بعد أن ارتاح لزوج أمه الذي قد يكون وجد فيه بعض العوض عن فراق والده.

لدهم يتوقف عن زيارة بيت صهره بعد أن قطع طلاق ابنتهم رابطة المصاهرة، اللهم إلا إذا التقاه صدفة في الشارع أو سوق

المدينة عندما يزور ابنته. أما جابر، فلم يستطع زيارته في بيت والدته، ولابد أن يجد من يرسله إليه حتى يراه، وعادة ما تكون حياة هي التي تطلب من جابر المجيء إلى بيتها لأن الوالد معها. قال جابر مرة لوالده وهو يتنقل بنظره بينه وبين شقيقته بأن عمار اشترى له دراجة هوائية يذهب بها إلى المدرسة ويلعب بها في نهاية الأسبوع. أخبره بأن عمار نقله وأمه إلى شاطئ البحر في الصيف الماضي. كانت هذه الأخبار تسعد لدهم وتجعله يشعر بأن ابنه الصغير في أمان فيشكر من قلبه عمار على الرعاية لابن ليس من صلبه بعد أن أعجزه انفصاله عن لويزة عن توفير كل ما يحتاجه آخر عنقود من أبنائه.

في صباح كل يوم جديد يزداد به ألم الوحدة بعد أن كان أبناؤه يملأون عليه من حين لآخر فراغا كبيرا عندما يزورونه عند رأس كل شهر أو شهرين. أما الآن، فقد بات مسكنه شبه مهجور كخربة قديمة في الفلاة عافت سباع الغاب أن تتخذها مأوى، ولم يبق فيها إلا شبحه الذي قيده الزمن بأغلال الترك والهجران.

عندما يكون في الصالة، يوقف صوت التلفاز ويجعل المشاهد غير ناطقة حتى يترك العنان لتفكيره وهواجسه التي لا نهاية لها. لم يعد المقهى لديه بكاف حتى لاحتساء فنجان قهوة وقضاء بعض

الوقت. كل يوم يتضاعف اختناقه ويشعر بأن الدنيا تضيق عليه على رحابتها.

لم يستطع لدهم تقبل الأمر الو اقع والمآل الذي وصل إليه، لا زوجة محبة ولا أولاد، وأضحى وجوده كعدمه. يتناقص وزنه وتبرز عظامه من جلده مباشرة بعد أن فقد شهية الطعام إلا من خبز قليل وشيء من الحليب يسد به رمقه. ينأى بنفسه عن كل ما لذ وطاب من الأطعمة والفواكه ويقول لنفسه.. يحرم علي أكلها في غياب فلذات كبدي..

يفكر في ما حدثه به صديقه صاحب المقهى الذي صار يشفق لحاله بعد أن أخبره بكل شيء عن قصة طلاقه. نصحه بأن يتقبل و اقعه، ولربما كان في طلاقه كل الخير، ولعل ما حصل له كان أخف بكثير مما لو استيقظ يوما على الخيانة في فراشه أو اكتشف في شبكة التواصل مشاهد فيديو خطيرة صُوّرت في غفلة منها، أو أرسلها إليه أولاد الحرام لكي يطلقها فيدخلونها في جحيم أقدم مهنة في العالم بعد أن يطردها حتى أهلها ويتنكر إليها أبناؤها. عمي علي شخص مؤمن بالله وورث عن والده الذي كان جليسا للعلماء والفقهاء الكثير من الحكمة ورجاحة العقل. لم يسعفه الحظ في استكمال دراسته فغادرها عندما أخفق في نيل شهادة البكالوريا

وفتح له والده هذا المقهى الذي أخذ منه كل سنوات عمره. كما واصل قراءة الكتب والجرائد لمتابعة الأخبار؛ فقد ترعرع على حب المطالعة منذ صغره، فهو يعتبرها زاده الثمين مع ما يجنيه من قوت يومه في المقهى.

ذات مساء يقترب منه عمي علي ملحا وسائلا:

- ماذا قررت؟ لقد مر أسبوع وهم ينتظرون!

- لا أدري!

- إنك ترفض الخروج من الدوامة، وستبقى كذلك مادمت لا تقفز إلى خارجها.

- أنت تطلب مني أن أقدم دروس الدعم للتلاميذ والأولياء ينتظرون قراري. الحقيقة، أنه لم تعد لدي الرغبة في رؤية التلاميذ والسبورة والطاولات. إن المدرسة الحكومية تكفيني، ومع ذلك، فقد مللت التدريس ولا أستطيع مزاولته في مركز تعليم خاص تقترحه أنت عليّ الآن.

- كما قلت لك من قبل، فالهدف ليس التدريس ولا جمع ما يعطيك إياه الأولياء من أجر، ولكن القصد هو أن تغير البيئة البائسة التي أنت فيها وتتجاوز دائرة الأسى التي شدّت عليك الخناق

وطوقتك من كل الجهات. هيا اقبل الاقتراح فإنك لا تدري أين يكون الخير كما قلت لك.

يطلب لدهم مهلة للتفكير، فقد اعتاد أن لا يجيب بالموافقة الفورية على أي شيء يطلب منه أو يؤمر به إلا بعد تروّ وتريّث حتى لا يندم بسبب تسرعه في الإجابة. لعله في قرارة نفسه كان يرفض العودة إلى حجرة الدراسة ورؤية التلاميذ حتى لو كانوا في مركز التعليم الخاص خارج مدرستهم الرسمية؛ فهو يريد في مساءاته بعد نهاية عمله أو في عطلة نهاية الأسبوع أن يخلو بنفسه في المقهى أو يجالس بعض أصدقائه هناك أو يتجول في الأسواق والمحلات التجارية. بعض أصدقائه يدعونه لتناول الطعام معهم في المطعم القريب، كما يطلبون منه ممارسة رياضة الهرولة في ملعب الحي حتى يحافظ على صحته ومرونة جسمه. بعد جهد، يقبل بمصاحبتهم ويزاول معهم الرياضة التي يمارسها حينا وينقطع عنها حينا آخر.

(2)

لا يجد وسيلة للهروب إلى الأمام، فيقرر الاستجابة لاقتراح عمي علي ورغبة أولياء التلاميذ الذين لم يجدوا معلما كفئا غيره لأبنائهم بعد أن سمعوا من إدارة مدرسته وبعض زملائه عن كفاءته وخبرته الطويلة في تدريس مادة الرياضيات.

بدأت أعداد التلاميذ تزداد يوما بعد يوم على دروسه في المركز بسبب النتائج المبهرة في الامتحانات. لدهم يتعرف على عدة معلمين وأساتذة شباب يزاولون عملهم في مدارسهم ولكنهم يستغلون وقتهم بعد مغادرة مؤسساتهم في تقديم دروس الدعم التي يجنون منها الكثير من المال. المركز لا يقدم دروس الدعم فقط وإنما أيضا به مكتب للاستشارات النفسية والاجتماعية ومكتب لتنظيم المحاضرات ودورات التكوين في مهارات الإلقاء والقراءة والكتابة الفنية والتواصل والإرشاد الاجتماعي.

ينخرط لدهم في تعلم عدة مهارات جديدة لم يكن يعرفها من قبل نتيجة إخضاع نفسه لبعض الدورات التكوينية التي يقوم بها المركز. لم تمض سوى أشهر قليلة حتى صار مدربا ومحاضرا يقدم الندوات الاستشارية والمحاضرات الاجتماعية التي يبرمجها المركز مجانا لرواده، كما ذاع صيته في مجال تدريب بعض المهارات وتنشيط دورات تطوير الذات.

بفعل المهارات الجديدة، يزداد لدهم فهما لمغزى الحياة ما جعله يدرك أن أزمته العائلية التي انتهت بانفصاله عمن يحب وتشتت أفراد أسرته ما هي إلا امتحان أخفق فيه، وعليه أن يتعلم من دروس الحياة ويأخذ منها العبر. يحدث نفسه كلما ألمت به

الوحدة.. علي أن لا أستسلم لليأس ولابد من مقاومة أي تحديات في طريقي.. ربما كان اليأس يخفي في طياته الأمل ولعل في كل شر يكمن الخير..

يستعيد ذكرى طلاقه المؤلم ثم يشعر بالهدوء والطمأنينة بفضل تغيّر نظرته للحياة. يردد.. لكل حادثة مؤلمة أو سارّة في الحياة دلالة ومعنى.. إذا كنا لا نبحث عادة عن المعنى في الحادثة السارّة؛ لكوننا ننسى أنفسنا في غمرة السرور والسعادة، فإننا بالمقابل يجب أن نجتهد حتى نعثر على معنى ودلالة الحوادث الموجعة.. لعل ما عانيته من ألم بسبب طلاقي من لويزة يخبئ لي ما هو أجمل.. لعلها أيضا بانفصالها عني قد تعلمت درسا لن تنساه في حياتها، وربما انبثق من وحدتها ما يسرها مهما طالت أو قصرت مدة هذه الوحدة..

لدهم يتغير شيئا فشيئا. صار يفهم ويقدر الحياة بنظرة مختلفة. لم يعد يحمل همّا أبدا كما كان يفعل من قبل حينما كان يعذبه فراق لويزة. يقرر أن يترك حياته تجري لحال سبيلها دون أن يعرقل مسارها حتى لا يتأذى، تماما، كنهر يجري من أعلى الجبل باتجاه الأرض المنبسطة في الأسفل سواء كان ذلك في صالحه أو ضده.

يطمئن نفسه عندما يحدث له طارئ بأنه إن كانت النتيجة لصالحه، فبها ونعمت، وإن كانت ضده، فعليه أن يبحث في دلالة هذا الضد، فلعل في ذلك رسالة ما موجهة إليه وعليه أن يفكك شفراتها.. فمن يدري؟ ربما كان هذا الضد لصالحه أيضا لو يفكر بحكمة وعمق؛ لأن كثيرا من الأحداث السارة نفرح بها في أول الأمر ثم لا نلبث أن نندم أشد الندم بعدها، ونتمنى لو لم تقع البتة. فكم من عريس وعروسة يفرحان بزفافهما ولكنهما بعد مدة يكتشفان تعاسة حقيقية كامنة وراء سعادتهما الشكلية في أيام زواجهما الأولى. وكم من زوج تزف إليه عروسه وهو كاره لها؛ لأن قلبه يهوى عشيقته السابقة، ولكنه يجد في عروسه كل السعادة والبركة فتخلصه بحبها من أثر عشيقته ويتمنى لو لم يكن قد تعرف عليها أصلا.

يتعرف في المركز على عدة نساء ذوات مستويات تعليمية وثقافية مقبولة وممتازة. بعضهن يطلبن وده والقرب منه بعد أن عرفن بأنه طليق ووحيد وأدركن مستواه العالي في الثقافة والأخلاق والوعي.. يقوم بمحاولات الخطبة ولكنه يجد دائما صعوبات تقف في طريقه. مرة يرفض والد إحداهن طلبه بدعوى أن الأسرة مازالت تحتاج إلى خدماتها، ومرة تتحجج أخرى بأن لديها أبناء وعليها الاهتمام بتربيتهم حتى يكبروا، أو أنها ترفض الزواج لأنها تعيش على

ذكرى زوجها الراحل وهي عاجزة عن نسيانه. لدهم يبرر لنفسه بأن كل هذه العراقيل التي تقف دون عثوره على امرأة بديلة عن لويزة إنما لحكمة ما، وهكذا، يسمح بهموم التفكير والبحث عن زوجة تمر لحالها مرور الكرام في شارع الحياة، فلعل النصيب لم يحن أوانه أو أن القدر يخبئ له ما لا يعلم، وربما ظل إلى نهاية عمره يعيش طليقا من دون زوجة.

شيئا فشيئا تسترعي انتباه السيدة لطيفة مسؤولة مكتب المحاضرات والدورات شخصية لدهم وكفاءته. تتعرف عليه عن قرب مثلما يتعرف عليه كل من في المركز بعد أن ذاع صيته في التدريس واستفاد من خبراته وثقافته الواسعة التلاميذ والمدرسون والمدرسات بالمركز بمن فيهم الأولياء الذين كان يدعوهم المركز ليقدم لهم لدهم النصح والإرشاد قبيل إجراء الامتحانات الفصلية وامتحانات شهادات التعليم الابتدائي والمتوسط والبكالوريا.

تلاحظ السيدة لطيفة بأن لدهم متكلم جيد ومقنع بأفكاره وآرائه عندما يشارك في الاجتماعات. صار الأولياء لا يتغيبون عن الحضور ويستجيبون للدعوات عندما يعلمون بأن المعلم لدهم مشارك فيها حيث يخاطب الأولياء مرشدا وناصحا وموجها فيؤثر فيهم ويغير الكثير من قناعاتهم خاصة وأن بعضهم كان يؤمن بأن

النجاح أمر مكتوب على الجبين سواء تلقى التلاميذ دعوما دراسية أم لم يتلقوها، وإنما كانوا يبعثون بأبنائهم لدروس الدعم استجابة لهم من باب التقليد وعادة التلاميذ اتباع بعضهم بعضا لا أكثر من ذلك ولا أقل.

لدهم يشعر بأنه بدأ يسترد أنفاسه ويستعيد عافيته ودروس الدعم واجتماعات المركز تنسيه ما كان يعانيه من وحدة قاتلة بعد أن خصصت له الإدارة غرفة مجهزة يضع فيها أدواته المدرسية في جناح الأساتذة، كما يتناول وجبة الغداء والعشاء في مطعم المركز مقابل اقتطاعات زهيدة من راتبه الشهري. إدارة المركز تفعل ذلك من أجل مصلحة التلاميذ حتى لا يتأخر الأساتذة عن الحضور أو ينقطعون عن التدريس بسبب بعد المسافة وأتعاب ومصاريف النقل. يستفيد من ذلك أيضا زبائن المركز الذين يأتون للاستشارات والتكوين في الدورات فيحتاجون إلى الإطعام والإقامة إن طالت مدة التكوين، وفي كل الأحوال، فإن المركز يستفيد من اقتطاعات الأجور التي تسدد بها أسعار الإطعام والإيواء والدورات.

هذا الصباح، في فترة الراحة بين حصتي التدريس تتكلم معه السيدة لطيفة قليلا ثم تدعوه إلى مرافقتها إلى مقر مكتبها.

– يوم الخميس ليس عندك تدريس. أرجوك أن تساعدني في تنظيم بعض المحاضرات والدورات في هذا اليوم على أن تستفيد بعمولة محترمة فوق أجرة دروس الدعم.

يتردد لدهم قليلا لكونه يريد أن يعطي لنفسه مهلة للتفكير. ولكنه يتراجع وهو يقول في نفسه.. لما التفكير؟ وهذه فرصة حتى أتجاوز دوامة الماضي التي ألفيت نفسي غارقا فيها، ولابد أن أحقق طموحاتي و أبلغ مرتبة اجتماعية عالية كانت ستتحقق لولا طلاق لويزة.

تقول مبتسمة:

- ها إنك قد و افقت على العرض، وكنت متأكدة من ذلك.

يتفاجأ ويرد:

-كيف عرفت؟

- طوال سنوات عملي بالمركز خبرت الكثير من الناس، رجالا ونساء، متعلمين ومثقفين وأميين، وأغنياء وفقراء من كل الطبقات الاجتماعية.

- هذا لا يكفي، فأنا لم أظهر أمامك أي إشارة للمو افقة.

– خبرتي الطويلة زيادة عن تكويني في عدة مهارات في التواصل وعلم الفراسة ولغة الجسد والاستشارات النفسية

والأسرية والاجتماعية جعلتني أعرف طبيعة الأشخاص ونفسياتهم من خلال تجليات نواياهم وأفكارهم في سلوكاتهم وأقوالهم وأفعالهم.

- ما شاء الله!

- مع ذلك، فإن عينيك تشوبهما عتمة شديدة مشدودة بخيط رفيع ممتد إلى أغوار نفسك، لكن بريقا متلألئا يشع منهما على كل من حوله، وأكاد أراه.

لا يعلق بشيء ويكتفي بتحريك رأسه موافقا على عرضها فيما راحت تحدثه عن برنامج الخميس الذي يتضمن في الصبيحة محاضرة مجانية مفتوحة للجميع رجالا ونساء حول الإرشاد الأسري، وفي المساء دورة تدريبية مدفوعة الأجر حول مهارة المرونة بين الأفراد والتي تقوم -حسب ما أخبرته- على فن تجنب التوترات بين الناس أثناء عملية التواصل الاجتماعي. يستهويه حديثها المشبع بكثير من الأفكار والمعلومات التي لم يكن يعرفها. يود لو يبقى معها لأطول مدة حتى يستفيد أكثر، ولكن الوقت يداهمه وتوشك أن تنطلق الحصة الثانية للتدريس ولا يجب أن يتأخر عن التلاميذ.

يغادرها وهو يفكر في كل ما قرأه من كتب في شتى الميادين ومؤلفات حول سير العظماء. يرى بأن كثيرها ظل مجرد معلومات

وترف ثقافي يملأ رأسه ولا يعرف سبيلا إلى التطبيق على أرض الو اقع. بل إن ذلك لم يسعفه في وقت الشدة حيث لم يستطع أن يتحسس مسبقا تغيّر تفكير وسلوك لويزة في الأشهر الأخيرة قبل انهيار بيته وتشرد عائلته. يقول في نفسه بأن التكوين والثقافة التي اكتسبها على مدار حياته تختلف عما لدى السيدة لطيفة التي تتوفر، كما يبدو، على أشياء مهمة جعلتها تقرأ أفكاره وتصل إلى مخبوء نفسه وأن تفهم حتى بعض نو اياه ومقاصده. حتى ذاك الحلم القديم نحو حياة أفضل، والذي طالما راوده عندما كانت حياته مع لويزة سمنا على عسل، ها هي السيدة لطيفة تستطيع أن تتحسس جذوة ذاك الحلم من تحت رماد أيامه وتلمح بريق شعاعه في عينه عبر عارضة مستقبله المنكسر في ساحة نفسه.

(3)

في عطل نهاية الأسبوع، عند الدوام المسائي والليلي في مركز التعليم، يساعد لدهم السيدة لطيفة في تنفيذ برنامج الاستشارات النفسية والدورات التكوينية لرواد المركز في بعض المهارات الفنية للكبار والشباب، رجالا ونساء، حول فنون التواصل داخل الأسرة والتعامل مع الغير في المحيط الاجتماعي وتربية الأبناء، صغارا ومراهقين.

لدهم لم يعد يزر بيته إلا قليلا من باب التفقد لا أكثر ولا أقل. تصير المؤسسة الجديدة بيته، يحضّر في غرفته الخاصة الدروس لتلاميذه في المدرسة وفي المركز. بمجرد أن يغادر لدهم مدرسته التي يعمل بها طوال دوامه النهاري، عند انتهاء الفترة المسائية، ينتقل مباشرة إلى المركز.

أحيانا، عندما يجد لديه وقتا فارغا أو يغلق المركز أبو ابه كما في الأعياد الرسمية والدينية يتوجه إلى المقهى ويلتقي صديقه عمي علي، يتبادل و إياه الحديث والأخبار خاصة و أنه مداوم على قراءة أكثر من صحيفة تصله إلى المقهى من باعة الجرائد المتجولين. رغم التعب الشديد الذي يعانيه من التعليم في مدرسته والعمل بالمركز والإقامة فيه، فإنه يشعر بالراحة وبامتلاء فراغه النفسي والنأي عن شبح الوحدة القاتلة التي تلمّ به عند وجوده في بيته .

منذ صباح هذا اليوم تقرر السيدة لطيفة التحدث قليلا إلى زميلها لدهم و إبلاغه بإغلاق المركز بمناسبة عيد الأضحى. تجده في مكتب التدريب منهمكا في مراجعة برنامج الأسبوع. السيدة لطيفة ألفته وصارت تتبادل و إياه أطراف الحديث على سجيتها، بل وتروي له أحيانا بعض النكت والنوادر، فيضحكان معا وتصل أصوات ضحكاتهما إلى المكاتب المجاورة. لها أريحية جذابة و ابتسامة لا تغادر

محياها منذ أن تدخل في الصبيحة إلى المركز إلى غاية أن تغادره في المساء. فهي وإن كانت في سن الثلاثين، فإنها تبدو أكبر من عمرها الحقيقي بكثير بسبب حركتها المتثاقلة ووجهها رغم تظاهرها بخفة الحركة وبمسحة ماكياج خفيفة تحاول أن تمحو بها ملامح القتامة من وجهها.

تقترب منه فيما هو يرفع نحوها عينيه:

-لدهم. غدا عيد الأضحى، وسيغلق المركز أبو ابه ليومين كاملين.. عيدك مبارك، وكل عام أنت والأهل بخير.

يتفاجأ لدهم بكلامها، فهو قد نسي تماما موعد هذه المناسبة الدينية.

– بصراحة، ليس لدي عيد في يوم العيد.. بعده بيومين سيزورني أبنائي، فيخففون عني وطأة ما أعانيه من أسى.

يروح حزينا يحدثها عن أعياده وكيف كان يقضيها.. عندما كان مع لويزة وبين أولاده كان الجميع يتحلقون حوله وهو يجهز على كبش العيد فيما حياة وجلال يصوران بالكاميرا عملية نحره وسلخه وتقطيعه إلى أجزاء متساوية بينما جابر يقفز هنا وهناك، يصب الماء على الأضحية حينا ويسرق الموسى حينا آخر لكي يجرب تقطيع اللحم وكان ينهره عن فعل ذلك حتى لا يصيب يده. بعض لحم الخروف كان

يذهب صدقات للفقراء والمساكين وبعضه الآخر هدايا للأقارب مع الاحتفاظ بكمية هامة منه للاستهلاك المنزلي. يتذكر رائحة شواء الكبد الملفوف في قطع صغيرة من الشحم عندما يتصاعد دخانه في أرجاء البيت حيث كانت لويزة توزع عليهم هذه الوجبة اللذيذة السريعة التي هي أول ما تطعمه العائلة من أضحية العيد. ولما يطلب الجميع المزيد من ذلك، تقوم بمسك قطعة صغيرة من الشواء بالشوكة وتطلب من كل واحد أن يفتح فاه ثم تخفيها هناك.

تلاحظ السيدة لطيفة وجومه فتكلمه مجددا:

-لدهم أراك سرحت بعيدا.

ينتبه إليها. يدرك بأنه فعلا غاب عنها للحظات.

يرد معتذرا:

-المعذرة ! وعيدك مبارك أيضا.

عندما قدمت له التبريكات صار كمن تم اختطافه ورميه في ماضيه حيث تعذبه هناك ذكريات مؤلمة. تلاحظ السيدة لطيفة أن عينيه تفيضان بالدموع حتى أنها بالكاد سمعت إجابته. تتأكد بأن زميلها يخفي أشياء حزينة تكدر صفو حياته. تستبعد أن يكون ذلك بسبب مرض معين، أو مشكلة تتعلق بالعمل في مدرسته أو في المركز.

ثم بحكم الخبرة والذكاء تفهم بأن الأمر يتعلق بغياب أسرته عنه في هذا العيد.

-لدهم ما الذي حصل لك؟ دموعك أفزعتني. لم أرك من قبل في هذه الحال. يجب أن أعرف كل شيء لعلي أستطيع مساعدتك.

يشكرها لدهم على التعاطف. يتردد في مصارحتها بوضعه الأسري، ولكنه لم يستطع الهروب من سؤالها الوجيه عن حاله البائسة. لطيفة هي الوحيدة في المركز التي تساعده ويكن لها احتراما كبيرا. تغلق باب المكتب المفتوح وتجلس قبالته، فيبدوان وكأنهما في اجتماع رسمي. يشرع لدهم في سرد قصة انفصاله عن لويزة وعيناه ترمقان مرة سقف المكتب ومرة أخرى نحو الأسفل وأحيانا يوجههما نحوها، ولكنه قلّما ينظر إليها مباشرة مع أن عينيها لم تكفّا عن ملاحقة عينيه المتهدجتين المحمرتين.

يحكي لدهم عن معاناته في وحدته ببيته بعد أن تخلى عنه الجميع وكيف قبل بالإقامة في المركز مضطرا بدافع الحاجة لا بدافع الرغبة؛ لأنه بدون أسرة ولا أحد في بيته يحضر له طعامه ويغسل ثيابه. يقول لها بأنه قبل أن يقيم في المركز كان يتناول غداءه وعشاءه في مطعم خارجي وثيابه يأخذها كل أسبوع إلى محل غسل الملابس.

أما الآن، فهو يشكر من كل قلبه مدير المركز الذي وفر له غرفة خاصة ورخص له بالاشتراك في المطعم بسعر مناسب مثل بقية الرواد.

تتأثر لطيفة لحاله وتأخذها الرجفة. تتذكر حالها فتوشك أن تجهش مثله بالبكاء لولا أنها تتجلد بالصبر.

تقول له في صوت شبه مبحوح بسبب التأثر:

-عليك بالصبر. فحالك ليس أحسن من حالي. منذ أن فارقني زوجي إلى جوار ربه وترك لي بنتين صغيرتين وأنا أكافح من أجلهما. يسرى تدرس في المتوسطة وإكرام في الابتدائية. نحن نعيش في بيت أهلي أسهر على خدمة والديّ مع شقيقي الأكبر المتزوج.

يرفع لدهم رأسه نحوها مشفقا ويعقب:

-آسف على فراق زوجك وحفظ الله بنتيك.

تسيل من عينيها دمعات ساخنة سرعان ما تتضاعف. يلاحظ لدهم لمعان دموعها على وجنتيها كشلال صغير يتلألأ معانقا أشعة شمس ربيعية. يردد في نفسه.. هل كل هذه الدموع المهراقة من أجل ذكرى زوجها الراحل الذي كانت تحبه كثيرا دون أدنى شك؟.. أم أنها تخشى من مستقبل فلذتي كبدها بعد أن صارتا يتيمتي الأب؟

تمسح دموعها وتستعيد قواها وتضيف:

-إقامتي في بيت والدي يجعلهما في مأمن حيث يجدان كل ما يلزمهما من طعام ولباس ولعب وحماية. عندما أعود إليهما في المساء أو أكون معهما في عطلة نهاية الأسبوع أو في العطل فإني أمدّهما بما استطعت من حب وحنان وعطف عساي أعوضهما عن فراق أبيهما الذي توفي قبل بضعة سنوات في حادث مرور عندما كان يقود سيارته.

تزداد لقاءات لطيفة ولدهم في المركز ويصيران أقرب ما يكونان إلى بعضهما لكونهما يعدّان معا برامج التكوين. كلاهما يعطي الآخر من خبرته ومهارته في تقديم أفضل العروض مع الاستعانة بخبرات مدربي المركز الآخرين.

يلاحظ مدير المركز التقدم الملحوظ في ارتفاع معدل الرواد حيث صار المركز يحتل المرتبة الأولى بين مراكز المدينة تبعا لنتائج لجنة وزارية مختصة في تقييم وتوجيه مراكز التكوين الخاصة وفق توجهات الدولة في تكوين أفراد المجتمع في المهارات ومهن المستقبل.

ذات صباح في آخر يوم من نهاية الأسبوع، تأتيه لطيفة إلى مكتبه وتخبره بأن المدير يريد لقاءه بمكتبه وتسرّ إليه بأن هناك مفاجأة تنتظره دون أن تكشف له عنها شيئا رغم توسلاته.

يخاطبه مدير المركز وهو يقف احتراما عند دخوله:

-مرحبا لدهم. كيف الحال؟ أرجو أن تكون بخير.. تفضل بالجلوس.

يتهالك لدهم على الأريكة كما تجلس لطيفة بجواره ثم يلتحق بهما المدير بعد أن تخلى عن مقعد مكتبه.

يفكر لدهم في المفاجأة المحتملة ويخمّن بأنها ربما تكون سارّة؛ لأن المدير تواضع بالجلوس على الأريكة. تتبادل لطيفة والمدير النظرات وكأنهما يتساءلان من يبادره منهما بالكلام.

لكن المدير لم يمهل لدهم طويلا في حيرته، فيقطع عليه حبل تخميناته.

-لدهم. لقد حقق المركز منذ جئتنا وبتعاونك مع لطيفة أرباحا وفيرة رغم أسعارنا المنخفضة نتيجة العدد الهائل للرواد. كما تلقينا تهاني وزارة التكوين والتمهين على ما نقوم به من نشاطات وتكوين إسهاما في خدمة المجتمع.

- هذا ممتاز. الحمد لله على نجاح المركز في مهمته النبيلة.. لكل نجاح قائد.. لولا حسن تدبيرك وتسييرك للمؤسسة لما تحقق شيء مما تقول..

- قرر المركز رفع أجرتك الشهرية إلى ما يعادل أجرة ثلاثة أشهر دفعة واحدة. كنا نتابع أسلوب عملك في وضع برامج التكوين وفي

تسيير الدورات والندوات. لذلك، تم تعيينك من مجلس الإدارة نائبا لمدير المركز.. هذا يسعدنا كثيرا ويسعد زملاءك وزميلاتك أيضا حيث لم أجد من الجميع إلا الثناء على ما تقوم به لصالح المؤسسة.

يصطدم لدهم بمفاجأة العرض الذي لم يكن يتصوره إطلاقا ولو في الأحلام. يجد صعوبة في استيعاب كونه صار نائب المدير هكذا وبجرة قلم وبقرار من أعضاء مجلس الإدارة.

يتكلم معبرا عن رفضه للعرض:

-أشكرك على الثقة التي وضعتها في شخصي. ولكني لا أستطيع تحمل هذه المسؤولية، ولا تنس بأني أعمل أستاذا في المدرسة الحكومية، ويصعب عليّ التوفيق بين المهمتين.

-أعرف ذلك. ما يهمنا في المركز هو أسلوب التسيير والبرمجة والتخطيط ووضع إستراتيجيات العمل. يمكنك أن تأخذ وقتك خلال العطلة قبل انطلاق موسم التكوين وتضع برنامج العمل السنوي وتفصيلاته التطبيقية حسب فصول الموسم مستعينا ببعض الخبراء في الميدان الذين يدفع المركز أعباء خدماتهم. وبالنسبة إلى عملك في المدرسة الرسمية، لم نطلب منك الانقطاع عنها، بل ابق كما أنت ولكن في أوقات فراغك، كما الآن، عليك أن تكون بيننا في المركز. وستكون السيدة لطيفة مساعدة لك، فقد تم

تعيينها نائبة لك. ستساعدك في المهام أثناء حضورك وتنوبك عند غيابك.

يقف لدهم معبرا عن مو افقته ويصافح المدير:

- **أشكرك على الثقة الكبيرة التي وضعتها في شخصي.. أتمنى أن يكتب الله لي التوفيق في أداء هذه المسؤولية الجديدة. تقف لطيفة أيضا مهنئة ومتفاجئة:**
- **أشكرك كثيرا سيدي المدير على تعييني في المنصب الجديد.**

تصفق السيدة لطيفة لشدة الفرح. تسمعها إحدى زميلاتها فتدخل عليهم وتعلم بالخبر السعيد وتطلق زغرودة عالية تتناهى إلى بعض الأساتذة والعمال فيهرعون نحوهم ويهنئونهما على الترقية فيما يشرع أحد أعوان مخزن التموين بتوزيع كمية من البسكويت والمشروبات المعلبة على الحاضرين.

(4)

تقترب عطلة المركز الربيعية المتزامنة والعطلة المدرسية الحكومية. عادة ما يبرمج المركز على حسابه عطلة عائلية سياحية في بداية عطلة الربيع لفائدة الأساتذة والعمال.

يخاطب مدير المركز الحاضرين في نهاية الاجتماع:

-تعرفون أن عطلة الربيع قد أقبلت، والمركز قرر تنظيم رحلة سياحية الخميس القادم، ويمكنكم جميعا اصطحاب أفراد عائلاتكم. هيأنا حافلتين مجهزتين بكل ما يلزم لضمان رحلة ناجحة.

يتعالى التصفيق ويحيي الجميع المدير على هذه المبادرة الطيبة التي يتكرم بها عادة المركز ثلاث مرات في السنة، في عطل الخريف والشتاء والربيع. هناك أساتذة يحبذون قضاء عطلهم في المدينة أو يختارون قضاء عطلهم بعيدا عن رحلة المركز بينما هناك آخرون يصطحبون معهم بعض أفراد عائلاتهم. وبالنسبة للعمال العازبين والذين عددهم قليل بالمركز، فقلما يرغبون في هذه الرحلات العائلية الجماعية.

تتحمس لطيفة لهذه الرحلة حتى تسعد ابنتيها اللتين طالما انتظرتا عطلة الربيع لكي تتخلصا مؤقتا من أجواء المدينة الخانقة والتمتع بربيع التلال والوهاد والمناظر الخلابة من أنهار جارية وطبيعة خضراء وأزهار فواحة جميلة زاهية الألوان وبالفرجة على حيوانات المراعي وملاقاة بعض ساكني الأرياف الطيبين الذين يبادلونهم بعض الطعام ويهدونهم الحليب والزبدة البلدي.

منذ أن بدأ المركز نشاطه قبل سنوات لم تنقطع لطيفة عن المشاركة في هذه الرحلات السياحية التي كان زوجها الفقيد مشاركا

فيها على الدوام. ولكنها، منذ رحيله، صارت وحيدة في هذه الرحلات العائلية ولا أنيس لها سوى ابنتيها. في إحدى المرات اصطحبت معها شقيقها الأكبر الذي يعمل كهربائيا رفقة زوجته وأولاده، غير أنه لم يعد يشارك في هذه الرحلات بعد أن لاحظ بأن أغلب أحاديث الأساتذة والأعوان يدور حول التدريس ونشاط دورات المركز حتى أنه أثناء رحلة الربيع الماضي حينما نظم المركز دورة تكوينية في الهواء الطلق لفائدة الفريق القائم على دورات التدريب، لم يكن شقيقها حرا وكان وزوجته و أبناؤه غرباء تماما عن المجموعة.

لدهم لم يعتد المشاركة في هذه الرحلات مع أن زملاءه يطلبون منه ذلك ويلحّون عليه في الأمر. يختلق دائما مبررات رفض مرافقتهم، مرة بدعوى أنه لا يطيق برد الشتاء إذا كانت الرحلة شتوية، ومرة أنه يخشى الإصابة بمرض الحساسية إذا كانت الرحلة خريفية، ومرة أخرى يتعلل بزيارة أبنائه وقضاء العطلة معهم إذا كانت الرحلة ربيعية وهكذا. لكن هذه المرة، بعد الترقية التي حصل عليها من إدارة المركز والراتب المحترم الذي استفاد به، فإن لطيفة لا تدري كيف تقنعه أو تؤثر عليه من أجل مرافقة فريق العمل في هذه الجولة الربيعية التي لا شك أنها ستحول دونه والتفكير في همومه

وتزيل عنه بعض متاعب الحياة التي تثقل كاهله لا سيما شعوره بألم الوحدة وفراق أبنائه.

في السنة الماضية، لطيفة تكلمت معه من أجل المشاركة في الرحلة ولكن ذلك كان من باب التقدير وحسب. أجابها –وقتها- باستحالة ذهابه وحيدا معهم؛ لأنه لم يكن في قائمة المشاركين أي أستاذ آخر، مثله، دون أفراد عائلته حتى يشكلان فريقا ثنائيا ويرافق أحدهما الآخر طوال الرحلة. كما أن لطيفة تدرك بأنه من غير الممكن أن يختلط بأعوان التنظيف والصيانة والحراسة الذين هم دونه منزلة في المكانة والثقافة. أما هذه المرة، فهناك بعض الأساتذة الذين سجلوا مشاركتهم فرادى في الرحلة، ويمكنه مرافقتهم والتمتع بعطلتهم الربيعية كبقية الأساتذة والأعوان الذين ترافقهم عائلاتهم.

تخشى لطيفة في هذه المرة أن يرفض طلبها وهي تريده أن تخرجه ولو قليلا من وحدته القاتلة التي تدرك بأن آلامها ستتضاعف خلال هذه العطلة عندما يكون منعزلا عمن يحب من أفراد عائلته. لذلك، تزداد شفقتها عليه خاصة وأنه يكاد يكون الأستاذ الوحيد الذي يفهم عملها كما تفهم هي أيضا وبسرعة تخطيطه وأسلوبه في تحسين نشاط المركز فيما يتطلب الأمر من الأساتذة الآخرين عدة

أيام حتى يستوعبوا محتوى آرائه ومقترحاته ولا يستكملون فهمها بالكامل إلا بتطبيقها ميدانيا خلال حصص تكوينية مخصصة لهم يشرف عليها لدهم شخصيا.

تلوح في رأس لطيفة فكرة، فتتوجه لمدير المركز وتطلب منه أن يقنع لدهم بالسفر معهم في هذه الرحلة وتخبره بأنه طالما كان لدهم يرفض ذلك. يستغرب مدير المركز طلب لطيفة وإلحاحها الشديد على أن يكون لدهم ضمن الرحلة. يتساءل أمامها لماذا لا تتوجه إليه مباشرة رفقة بعض الأساتذة حتى يقنعوه بمرافقتهم. لكنها تجيبه بأن لدهم يختلق في كل مرة الأعذار تلو الأعذار حتى لا يشاركهم الرحلات.

عندما شعرت بأن المدير غير مهتم بطلبها أخبرته عن وضعه الأسري ومعاناته بعد طلاق زوجته وتشتت أفراد عائلته و أفهمته بأن مساعدة الأستاذ لدهم في الخروج من هذه الدوامة التي وجد نفسه فيها ستنعكس إيجابا على نشاط المركز وسيكون دون شك كثير الإنتاج والإبداع عندما لا تعيق طريقه مشاكله النفسية والأسرية. تطلب من المدير مراقبته إذا شاء أثناء الاجتماعات حتى يتأكد بنفسه من كثرة سهوه وغضبه أحيانا دون مبرر ولسبب بسيط. يوافق المدير على وجهة نظر لطيفة ويؤكد لها دعمه وتضامنه مع

الأستاذ لدهم ويعدها بعمل ما يمكن عمله حتى يقنعه بالمشاركة في هذه الرحلة لعلها تساعده في الترويح عن نفسه والتنفيس عن همومه ولو قليلا لعله يعود إلى العمل أكثر راحة ونشاطا وحيوية.

في المساء، قبل افتراق الجميع والاستعداد للرحلة التي لم يبق أمامها إلا يومان، يدخل عليه مدير المركز، فيقف لدهم محييا.

-أستاذ لدهم بعد ترقيتك إلى رتبة نيابة المدير، هناك دورة تكوينية لفريق المركز ضمن برنامج الرحلة السياحية، ولا يوجد غيرك للإشراف عليها وتسييرها.

يتفاجأ لدهم بطلب المدير ويرد رافضا المقترح:

-هذا غير ممكن. سأكون في العطلة بين أبنائي. كما أن هناك السيدة لطيفة ستقوم بالمهمة وهي كما تعرف في المكان المناسب.

يعقب المدير في نبرة ضاغطة:

- إن شئت اصطحب معك أبناءك لكي يغيروا من أجواء الرتابة ويتمتعوا أيضا بهذه الرحلة السياحية.

لم يجد مبررا مقنعا يلقي به بين أيدي المدير، فيبدي موافقته. لا يمكنه رفض طلب المدير الذي يقدره كثيرا بعد أن رفع من راتبه بشكل لافت ووفر له كل ما يحتاجه في المركز .

(5)

لا يبقى من أجواء الرحلة في رأس لطيفة سوى ما لاحظته من علاقة شديدة بين لدهم و ابنتها يسرى وإكرام خاصة ما كان يدور بينهم في الحافلة. كانت الطفلتان تتحركان من مقعديهما، وعندما تصلان إليه، يجلسهما إلى جانبه ويسمعهما كثيرا من الحكايات والنكت حتى أنه طلب منهما، مرة، أن يبادلاه دور الحكي ويرويان له حكاية سندريللا التي يحبها الصغار حتى يتأكد ما إذا كانتا تتذكران هذه القصة جيدا، فراحتا تتقاسمان سردها من خلال متابعتهما السابقة لأحداثها من مسلسل الرسوم المتحركة في التلفاز. إذا نسيت إحداهما حدثا ما، ذكرتها الأخرى به. كانت تثيرهما بشدة النكت حتى أن ضحكاتهما العالية كانت تصل إلى أسماع جميع الركاب، فينادي عليهما بعضهم ويطلب منهما سبب كل هذه الضحكات التي كانت تهز هدوء الحافلة. عندئذ، تتوزعان بين صفوف المقاعد وتشرع كل واحدة منهما في سرد ما كانتا تتبادلانه مع لدهم. عمال المركز كانوا يريدون زرع البهجة لدى أطفال الحافلة حتى يسعدوا برحلتهم، فالأطفال سرعان ما يقتلهم الروتين وصبرهم قليل على الاستقرار طويلا في مكان واحد، ولابد لهم من التغيير المستمر حتى لا يسأموا من

وضعهم. لذلك، شرع جميعهم، على شاكلة لدهم، في سرد الحكايات والنكت للأطفال.

مشهد البنتين السعيدتين كان يزرع البهجة في قلب الأم التي كانت تر اقبهما عن كثب وهما تتجولان داخل الحافلة وتسردان لها، مرة على مرة، نكت وحكايات لدهم ثم تعودان إليه لكي تستقرا إلى جانبه مفضلتين إياه عنها ولا تكادان تفارقانه إلا عندما تنادي عليهما لحاجة ما.

تتمنى لطيفة أن تجد ابنتاها لديه بعض العوض عن والدهما، على الأقل في المركز، حينما تغادران مدرستهما القريبة ويلتحقان بها في مكان عملها. أما هي، ولشدة تعلق ابنتيها به، فقد بدا لها أنهما سئمتا من حديثها ونصائحها وتحذيراتها المتواصلة، فصارتا حينما تكونان في المركز تختفيان عنها وتهربان إلى مكتب لدهم حيث يحتضنهما بقوة مثلما كان يحتضن أبناءه لما كانوا صغارا. صارت لطيفة لا تنتظرهما في مكتبها أو في مدخل المركز كما تعودت، بل تتجه مباشرة إلى مكتب لدهم حيث يكونان. مرة وجدتهما هناك وقد أحدثتا في المكتب جلبة وبعض الفوضى فيما كان لدهم يلاعبهما ويلاحقهما بين الأريكة والمكتب وبين كرسيه ومشجب معطفه ناسيا بأنه في مكان العمل. اكتفت لطيفة –وقتها- بإرسال ابتسامة عريضة

نحوه وطلبت منهما أن يتبعاها لكي تعطيهما بعض الكعك قبل أن تغادرو إياهما إلى البيت.

دون سابق إشعار، تغيب اليوم لطيفة عن العمل. من قبل، اعتادت أن تكلم عبر الهاتف الثابت أو ترسل إليه رسالة من هاتفها الجوال لتبرير غيابها. ولكنها هذه المرة لم تعلم إدارة المركز ولا أرسلت من هاتفها أي رسالة. ينشغل لدهم للأمر خاصة وأنها دأبت على أن تتبادل وإياه الرسائل الهاتفية حول بعض نقاط برنامج العمل اليومي أو بعض الاقتراحات أو اسم زبون جديد لتسجيله. وكان ينبغي، على الأقل، أن تخبره عن سبب غيابها والذي نادرا ما يحدث في المركز. يسرع إلى المدير لعله يعرف سبب غيابها، فيجده أيضا لا يمتلك أي معلومة عن عدم حضورها. يطمئنه المدير بأنها ستتصل بالمركز وسيعرف سبب غيابها الذي لا يمكن إلا أن يكون عاديا ولربما كان بسبب اهتمامها بوالديها أو زيارة قريب لبيتهم.

يطلب المدير منه تولي مهمة استقبال الزبائن بدلا عنها، فيقوم بالمهمة سريعا وبمجرد إحالتهم على مدربهم ودخولهم قاعة التكوين، يغادر المركز دون استئذان ويسرع إلى مدرسة يسرى وإكرام لعله يجد خبرا عن والدتهم. يبلغه مدير المدرسة أنهما تغيبتا دون إشعار بالغياب، يزداد انشغالا وخوفا هذه المرة من أن يكون قد حدث لها

مكروه. راح يستعيد في ذهنه حالتها الصحية ويتذكر كيف كانت خلال الأسبوع الأخير ثقيلة الحركة بالكاد تخرج منها الكلمات. وعندما سألها عن ذلك أجابته بأنها ربما بسبب التعب في العمل، أو لكونها لم تنم ليلتها جيدا جراء السهر على رعاية والدتها المريضة.

يعود لدهم مسرعا إلى مكتب المستخدمين بالمركز ويطلب بإلحاح من السكرتيرة أن تجد بسرعة عنوان مسكنها حتى ينتقل إليه ويعرف ماذا حصل لها بعد أن أبلغ المدير بأن ابنتها قد تغيبتا عن المدرسة. يشك في أن يكون قد ألمّ بلطيفة مكروه ما وإلا لكانت قد أبلغت المركز عن غيابها وقد مر من اليوم أكثره والوقت الآن بعد الظهر. يستغرب المدير من إصرار لدهم على البحث عن لطيفة، ولكنه يو افقه في النهاية على مخاوفه ويرسل معه السكرتيرة في سيارة المركز لكي تستعلم معه عن لطيفة فلعلها مريضة وغير قادرة على الحركة وعاجزة عن الاتصال بأي أحد.

بعد فترة، تخرج السكرتيرة من بيت عائلة لطيفة وهي مرتعبة وتخبره بأنه تم نقلها في حالة حرجة إلى المستشفى. يهتز لدهم كما لم يهتز من قبل وهو يلاحظ يسرى وإكرام أمام الباب تر اقبانه وهما تبكيان على أمهما. يقترب منهما ويضمهما إلى صدره ثم يطلب منهما عدم القلق ويطمئنهما بأن والدتهما ستعود إليهما بخير في أقرب وقت.

يسرع بالعودة إلى المركز فيما تكاد السيارة تنقلب أثناء الطريق لفرط السرعة رغم استغاثات السكرتيرة بأن يبطئ في السير. يضع السكرتيرة في المركز ويصطحب معه المدير ويتوجهان على الفور إلى حيث لطيفة طريحة الفراش في المستشفى.

تنتبه إليهما لطيفة حينما أيقضها الممرض لكي تستعد لاستقبال ضيوف. تتفاجأ بهما وتشكرهما على الزيارة ثم تخبرهما بأنها كانت من قبل تعاني من بعض الأتعاب والأوجاع حتى تضاعفت آلامها أكثر على مستوى البطن ليلة البارحة إلى أن أغمي عليها تماما حيث نقلها شقيقها إلى مصلحة الاستعجالات. بعد الفحص، أبلغها الطبيب بوجود ورم خبيث على مستوى الكبد. الآن تحمد الله لأنها تشعر بتحسن بعد تلقيها بعض العلاجات.

المدير لم يجد الفرصة للكلام فراح يتابع حينا ما تقوله لطيفة عن مرضها بصوت بطيء ومبحوح وحينا آخر يتابع كلام لدهم الذي كان متحمسا وكأنه المعني الوحيد بصحة لطيفة.

– منذ مدة لاحظت عليك ثقل الحركة وبعض قتامة الوجه واغماض عينيك قليلا أثناء اجتماعاتنا. المؤكد أن ذلك بسبب الأوجاع، ولو علمت بأنك كنت تتألمين –وقتها- لنقلتك إلى الطبيب. ليس من حقك أن تخفي ذلك عنا.

يستغل المدير الفرصة ويردد في لهجة شبه رسمية من مسؤول يخاطب موظفة لديه:

-نعم أخفيت ذلك عنا. لوكنت أعرف لحولناك إلى طبيب مختص.

يستأنف لدهم كلامه وهو يلاحظ أن شيئا منقوصا في المكان:

- سأعود بسرعة إلى المركز لأضع المدير ثم أذهب إلى بيتكم وأرجع إليك مع يسرى وإكرام، فقد تركتهما قلقتين جدا.

توجه نحوه ابتسامة بالمو افقة رغم حالتها الصحية الصعبة. يفهم مدير المركز رسالتها؛ فهو لا يخفى عنه شيء وتبلغه السكرتيرة وبعض الأعوان بمدى تجاوبهما مع بعض و أيضا بعلاقة العمل التي تجاوزت قليلا الزمالة وتوشك أن تتحول إلى علاقة عاطفية تشكل يسرى وإكرام رابطتها الوثيقة.

بعد خروجها من المستشفى، يفكر لدهم في زيارتها في بيتها. لكنه يتحاشى أن يذهب إليها بمفرده، فيطلب من المدير أن ير افقه مع السكرتيرة للاطمئنان على صحتها. يأذن له المدير بأن يذهب وحده معبرا عن اعتذاره؛ لأن لديه عملا يجب عليه استكماله، كما أن السكرتيرة أيضا لا يمكنها مر افقته لارتباطها بعمل المدير.

يفكر لدهم.. ماذا سيحمل معه إليها؟ هدية إلى يسرى وإكرام.. هما تحبان الشوكلاطة وقصص الأطفال.. سأشتري لهما ما تحبانه.. سيستقبلني شقيقها الأكبر وسيقدمني إلى والديها وبعدها ستستقبلني لطيفة في غرفتها.. هي بالتأكيد غرفة عادية.. سرير فردي وخزانة أثاث وسريران آخران إلى جانبها لابنتيها.. قبل أن تجردها الحياة من بيتها ومن متعة الزوجية كانت غرفتها دون شك وفيرة مزدانة بكل شيء تحبه مع زوجها الراحل.. بلا شك، يسرى وإكرام كانت لهما غرفتهما الخاصة.. هذه أول مرة سأدخل فيها إلى بيت والديها.. كيف ستستقبلني؟ هل ستقف لي؟.. أبدا، فهي طريحة الفراش.. ولكنها في كل الأحوال ستستقبلني بابتسامتها العريضة التي تغطي على وحدتها وتخفي آلامها..

ينتبه ويعاتب نفسه التي ذهبت به بعيدا في تخيلاته؛ لأن جميع من في المركز يعرفون بأن لطيفة وقفت نفسها على تربية ابنتيها بعد رحيل زوجها، وقد رفضت أي شخص يرغب في الزواج منها. كم قالت للسكرتيرة ولبعض زميلاتها حين يثرن أمامها مواضيع الحب والزواج بأن حبها دفن مع حبيبها الراحل وهي لا تعرف أن تكون للحب نسختان حتى تهب نسخة الحب الثانية لزوج جديد.

يتراجع لدهم عن الذهاب منفردا إلى بيتها حتى يردع اندفاعه. يطلب من المدير أن يستكمل عمله على راحته في هذا اليوم على أن يزورها وإياه مع بعض عمال المركز غدا؛ لأن لطيفة محبوبة من الجميع ولا يمكن لأحد أن يفاضل غيره بزيارتها والاهتمام بها. وبالفعل، يؤجر المركز حافلة صغيرة تحمل كل من يريد زيارتها إلا من أبى وكان له عذر أو شغل لا يستطيع تأجيله.

تسعد لطيفة بالزيارة، وتقوم بنفسها لاستقبال زميلاتها وزملائها وكان في مقدمتهم لدهم. يأخذ باقة من الورد اتفق عليها العمال ويسلمها إياها باسمهم، ثم يقدم لكل من يسرى وإكرام هدية مغلقة تحتوي على علب من الشوكولاطة وكتيبات لقصص الأطفال وتظلان إلى جانبه طوال فترة الزيارة. بعد أيام تتعافى لطيفة من مرضها وتستعيد شيئا فشيئا عافيتها فتستأنف عملها بشكل عادي.

تحل ذكرى المولد النبوي الشريف، فيستغل أبناء لدهم المناسبة ويقررون زيارته بمبادرة من حياة التي استطاعت ترتيب الزيارة. كالعادة، لم يكن لدهم في البيت، يتوجه جلال إلى المقهى ويسأل عنه عمي علي الذي يبلغه بأن والده في المركز التعليمي. يطلبه من هاتفه مبلغا إياه بأن أبناءه في انتظاره أمام البيت. ما هي إلى دقائق معدودة وتقف سيارة المركز أسفل العمارة وينزل منها لدهم.

يسرع الجميع نحوه وأولهم جابر. يحتضنونه ويقبلونه ثم تضع حياة في حضنه نورة، حفيدته الصغيرة، فيضمها بقوة إلى صدره وهو يقول إنها تشبه أمك. يهتز أبناؤه لتذكرهم لأمهم فينظرون إلى بعضهم بعضا في صمت وأسى وكأنهم أحسوا بأنه ينقصهم طرف آخر لتكتمل فرحتهم باللقاء. تطلب حياة بالإسراع إلى البيت، فهي تفتقده كثيرا.

عند دخولهم، يعاجلهم لدهم:

– لعل وضعية البيت لا تعجبكم. كما تعرفون أني وحيد وأهملت نظافته وصيانته.. الغبار في كل مكان وقلما أزوره بعد أن صرت أعمل في المركز عند نهاية دوامي في المدرسة.

تسأله حياة مستغربة:

– وهل أنت قادر على المهمتين؟

- على الأقل، أقتل فراغي. كما أن المركز يوفر لي غرفة خاصة للإقامة مجانا، كما استغل الفرصة لأتناول وجبات الطعام فيه بسعر زهيد.

بصعوبة يلجون إلى غرفة الاستقبال حيث اعتاد والدهم أن يجلس ويشاهد برامج التلفاز. يجدون الغبار يملأ المكان ويدركون أن البيت مهجور منذ زمن بعيد. تضع حياة بين يديه حفيدته وتطلب

منه أن يبقى بعض الوقت في غرفة الاستقبال، وتنادي على إخوتها بأن يرافقوها لتنظيف البيت.

بعد نحو ساعة، يعود البيت إلى وجهه الطبيعي وتلمع بلاطاته وجدرانه وتستعيد الغرف أنفاسها المنسدة بالهواء الملوث بالأتربة المتسللة من بعض النوافذ التي نسي لدهم أن يغلقها. تعم فضاء البيت رائحة منعشة بعد أن رذّت حياة عطرا زكيا في الغرف. تسيل دموع ساخنة على خديه، فيربت جلال على كتفيه ويحتضنه وهو يقول.. لا عليك أبي.. اعذرنا.. زياراتنا لك صارت قليلة بسبب انشغالاتنا.. أنا في دراستي.. وحياة مع زوجها وابنتها.. وجابر في بيت عمار..

لا يقول شيئا، ولكنه يقرر شيئا في داخله، يتظاهر بالتماسك حتى لا يتألموا لوحدته. في المساء، يصعدون معه في السيارة ويتوجه بهم إلى حيث يريد. يطوف بهم قليلا في أرجاء المدينة التي كادوا ينسون معالمها. يلاحظون بعض الشوارع الجديدة التي تم فتحها حيث تتضاعف المحلات والمقاهي والمطاعم. ما هي إلا ساعة وتقف السيارة أمام باب بيتها. يستغربون من يكون صاحب البيت الذي ينقلهم والدهم إليه دون سابق علم. بمجرد أن يطرق الباب، تفتح لهم لطيفة التي أخذت علما بزيارته مع أبنائه عندما كلمها بالهاتف وهو

في غرفة الاستقبال مع حفيدته. تسلم عليهم رفقة يسرى وإكرام ثم تطلب منهم بحفاوة الدخول إلى البيت.

في غرفة الاستقبال، تقدم إليهم بعض الكعك والحلوى وشيئا من المشروبات الغازية. تلاحظ كأن ابنتيها منزعجتين لعدم قدرتهما على الجلوس إلى جانبي لدهم حيث احتل المكان جابر وحياة. تحس لطيفة أن ابنتيها تغاران بالفعل من خلال ما يبدو عليهما من انكماش وصمت بعد أن كانتا عند استقباله فرحتين مسرورتين. يقدم لدهم لطيفة لأبنائه ويحدثهم طويلا عنها وعن يسرى وإكرام اللتين عوضتاه عن الفراغ الذي خلفته أسرته التي تمزقت وتفرقت. تحدثهم لطيفة بدورها عن أفراد عائلتها وعن حياتها السابقة مع زوجها الراحل، ثم تطلب منهم التحرك لمشاهدة اللوحة الكبيرة المعلقة على الجدار التي تحمل صورتها رفقة زوجها الراحل وابنتيها. تستغل يسرى وإكرام الفرصة فتسرعان إليه وترابطان إلى جانبيه حتى عندما يعود الجميع إلى أماكنهم.

ترى لطيفة كيف عاد السرور إلى ابنتيها وهما جالستان بالقرب منه، يضمانه إليهما ويقبلانه على خديه من حين لآخر وكأنه والدهما. يلاحظ أبناؤه سلوك البنتين، فتطلب لطيفة منهما الابتعاد لكي يعود جابر وحياة إلى مكانهما قرب والديهما، ولكنهما ترفضان. يضحك

الجميع لموقفهما فيما تتبادل لطيفة الابتسامات والنظرات مع لدهم وحياة وجلال وجابر.

تقول معتذرة:

- إنهما صغيرتان.. لقد ألفاه في المركز وحيثما تلتقيانه تتمسكان به.. خلف لهما والدهما فراغا كبيرا بعد رحيله، لذلك تجدان فيه بعض العوض.

تجيب حياة:

- لا عليك.. نتفهم ذلك.. حفظهما الله لك.

يتكلم لدهم أخيرا بعد تفكير وتروّ وهو يضم ابنتيها بشدة وحنان:

- لطيفة.. ها أنا بين فلذات كبدي وفلذتي كبدك، أطلب يدك للزواج وأريد أن تظل هاتان الجوهرتان بين عيني حتى لا تفارقاني.

تقف لطيفة متفاجئة وتنظر بعينيها حياء إلى الأسفل وتجيب:

- الحقيقة، فاجأتني.. سأفكر في الأمر.

ترتمي عليها ابنتاها وهما تلحّان:

-اقبلي أمي.. اقبلي.. إننا نحبه كثيرا.

ترد عليهما وهي تدفعهما برفق بعيدا عنها:

- استعجلتما الأمر ولم تسمحا لي بالتفكير.

تطلق حياة زغرودة مدوية وهي تقول:

-ألف مبروك أبي.. ألف مبروك أمي لطيفة.. لا تنسيا أن تعزمونا لحفلة الزفاف.

يتحول الموقف من مجرد استقبال حار بالضيوف إلى موقف سارّ يغير مصير طليق وأرملة لم يكن يتصور أي منهما أن يجتمعا تحت سقف واحد بعد أن كانا تائهين في الحياة تمزقهما الوحدة وألم الفراق.

لم يتفاجأ عمال المركز بزواج لدهم من لطيفة، فلطالما استشعراه من خلال التوادد الملحوظ بينهما خاصة ملازمة يسرى وإكرام له واللتين لا تكادان تفارقانه إلا لضرورة حينما تكونان في المركز. وإذا تأخر لدهم عن المجيء، كانت لطيفة، من ورائه، لا تكف عن السؤال عنه حتى يأتي، بل إنها، أحيانا، تطلب من المدير أو السكرتيرة أن تطلبه بالهاتف للاستفسار عن سبب تأخره بمبرر مساعدتها في العمل مع أنها في الحقيقة ليست بحاجة إلى مساعدته.

الفصل الخامس

(1)

رغم اجتهاد لويزة بأن ترتقي إلى مرتبة الزوجة المحبة لزوجها، فقد ظلت مع مضي الأيام والشهور قابعة في المكان والزمان دون أن تتمكن من تغيير نفسها نحو الأحسن. مازالت تشعر لحد الآن بأنها امرأة عمار وتنظر إليه باعتباره رب بيتها لا زوجها الحبيب. قلبها لم يطاوعها في حبه وعواطفها بقيت متجمدة رغم سعيها المتواصل لكي يتو افق عقلها الذي قبل به مع قلبها المغلق منذ أن زفت إليه محملة بالأنين والكآبة.

عقلها وقلبها يتصارعان في دخيلتها كثورين هائجين وهي بينهما مثل كرة قدم ضالة في ملعب الحياة. عقلها يحذرها على الدوام من مغبة أي تصرف متهور يكدر صفو عمار. يحثها على الاستمرار في خدمته وتنفيذ كل ما يطلبه منها حتى لا تنتكس تجربة زواجها الثاني، فتتسبب في طلاقها وتصبح معرّة النساء لدى أهلها و أقاربها وكل من

يعرفها، وربما لن تجد من يقبل بها زوجة للمرة الثالثة حتى لو تتذلل وتعرض نفسها على الحاج البكري الذي خيبت أمله وكسرت خاطره ورفضته حينما جاء يخطبها ويعرض أمامها ثروته وممتلكاته.

تميل كفة عقلها على كفة قلبها في هذا الصراع المرير.. قلبي الملتاع يجب أن يبقى بعيدا وضعيفا.. علي أن أكفن قلبي بأسمال عواطفي المتوجعة بذكرى لدهم.. أدفنه إلى الأبد في قبر ماضيّ.. أما عقلي، فعليه أن يتولى زمام أمري وعلي أن أصبر على قراري الذي اتخذته منذ قبولي بعمار.. يجب أن أظل ربة بيت ممتازة فأعمل على إسعاده مادام قد رضي بأن يبقى صغيري جابر إلى جانبي.. يجب أن أطيعه في فراشه كالجارية إذا لاحظت رغبته في ذلك.. علي أن أكون طباخته الماهرة فأقدم له أفضل الوجبات طهيا ومذاقا.. أحرص على غسل ثيابه حتى يكون نظيف اللباس جميل الهندام حين يخرج للعمل.. أنظف بيته وأرتب أثاث غرفه وأرش العطر الزكي في أرجاء البيت حتى إذا عاد من عمله منهكا من التعب وجد في انتظاره امرأة وفرت له كل الراحة والطمأنينة.

لويزة التي وهبت نفسها لعمار لم تفهم على مدى كل هذه الشهور لماذا تخلص منذ فترة من هاتفه الجوال الذي يحتوي على العديد من تطبيقات شبكات التواصل وقرر امتلاك هاتف عادي لا

يحمل إلا أرقام هواتف أصدقائه وزبائنه. استفسرته مرة عن ذلك، فأجابها بأنه لا يريد أن يضيع وقته هباء في متابعة شبكات التواصل وبأنه إذا رغب في ذلك لسبب ما فسيستعمل هاتفها الجوال. وبالفعل، عماريطلبه منها من حين لآخر، بل وتتركه معه لوقت طويل خاصة بعد عودته من العمل أو في الليل، اللهم إلا إذا جاءتها مكالمة، فإنه في هذه الحالة، يسلمها إياه بعد أن يقرأ اسم المتكلم .

مرة، في نهاية العطلة الأسبوعية، تركت معه هاتفها الجوال فيما كانت هي منشغلة في غرفة الاستقبال مع والديها وابنها جلال وابنتها حياة الذين جاؤوا لزيارتها وتفقد أحوالها. لما غادروا البيت، طلبت من جابر أن يسترد هاتفها من عمار، فإذا بها تلاحظ بأنه اتصل ببعض الأرقام ثم مسحها ولكنه غفل عن مسح بعضها الآخر.

لم تلق أهمية لذلك في البداية، وأرجعت الأمر إلى أنه ربما اتصل من هاتفها ببعض أصدقائه وحينما مسح سجل اتصالاته بهم مسح معها أيضا ودون انتباه سجل بعض اتصالاتها الخاصة مع أقاربها وصديقاتها.

تتكرر تصرفات عمار الذي لم يكن يطلب هاتفها لمتابعة شبكات التواصل، بل -كما يقول لها- لإجراء اتصالات مع بعض زبائنه وصحبه. لم تنتبه للأمر إلا حينما ازداد الاتصال بها من بعض

صديقاتها وأخوالها وأشقائها وحتى ابنيها جلال وحياة. ذكرت لها حياة أنها تلقت مرة مكالمة منها ولكن رجلا كان على الخط فعرفته من صوته، بادلها قليلا التحية ثم أغلق الهاتف، ولم تفهم حتى الآن لماذا كلمها. نفس الشيء حدث مع جارتها رشيدة التي قصت عليها كيف اتصل بها شخص مجهول من هاتفها حتى ظنت أن هاتفها ضاع منها، ولكنها عرفته حينما أعطاها اسمه واعتذر عن خطأ الاتصال مبررا بأنه كان يريد الاتصال بجلال بن لويزة.

تتساءل لويزة عن أسباب اتصالاته الغريبة والمتكررة ومحو سجلات ذاكرة المكالمات. لا تقتنع بمبرراته بأنه أحيانا يقع في مكالمات خاطئة فيما كان يريد الاتصال بأصدقائه وزبائنه. لما كثرت أخطاء مكالماته من هاتفها و إبلاغها من أصحاب أرقام الهواتف بذلك، تقرر أن تحدثه في الأمر قبل أن يغادر صباحا إلى عمله.

-عمار أنت تأخذ هاتفي ولا تقضي وقت فراغك في شبكة التواصل؟!

-صحيح ما تقولين. لا استعمل إلا قليلا شبكة التواصل. اتصل فقط ببعض أصدقائي وزبائني مستغلا وجود هاتفك عندي.

-عمار. من الأفضل استعمال هاتفك العادي ما دمت تقتصر على المكالمات.. فوق ذلك، أنك تتصل بأصحاب الأرقام المسجلة على هاتفي.. أبلغوني بذلك رغم مسحك سجل ذاكرة أرقام الاتصال.

-تعرفين أن هاتفي قديم ولوحة أرقامه تكاد لا ترى. وتلك المكالمات مع معارفك كانت بطريق الخطأ.

-إن شئت اشتريت لك هاتفا نقالا لكي تستعمله للمكالمات ولقضاء وقتك في شبكة التواصل. أنا أعرف أنواع الهواتف الجيدة.

يصمت ولا يجد الإجابة. يتركها واقفة في مكانها ويغادرها إلى عمله. تعود هي أيضا إلى عملها في البيت وفي نفسها رغبة في أن تشتري له هاتفا جديدا مناسبا. تفكر في مكالماته لأقاربها وقريباتها خاصة صديقاتها وجاراتها وتتساءل.. هل يا ترى كانت اتصالاته بهن بطريق الخطأ أم كانت له حاجة في نفسه؟ هل يكون قد سئم من حياته معي فقرر البحث عن غيري؟ ثم لا تلبث أن تطرد هذه الأفكار المجنونة من رأسها وتقول في نفسها لو كان فعلا يريد غيري لكان قد أخذ فقط أرقامهن من هاتفي واستعمل هاتفه الشخصي للاتصال بهن؛ فهو ليس غبيا إلى هذه الدرجة، ثم إنه طالما اعترف لي بأنه كان دائما سعيدا في فراشه. تطمئن وتستبعد فكرة اتصاله بهن بنية مبيّتة.

يعاودها مرة أخرى التفكير فيما قاله لها جابر عدة مرات بأن عمار يطلب منه الابتعاد عنه أو الخروج إلى اللعب في الشارع عندما يهم بإجراء مكالماته من هاتفها، فينتابها التساؤل من جديد.. لماذا يبعد جابر ولا يتركه إلى جانبه لو كان الأمر بريئا.. لا شك أن هناك شيئا لا أفهمه. تروح وهي في حيرة شديدة تحضر مائدة العشاء وليس لديها رغبة لتناوله ولكنها تفرض على نفسها مشاركته طعامه عندما تتذكر بأن من واجبها إرضاءه وإسعاده.

يكف عمار لعدة أسابيع عن استعمال هاتف لويزة. ولكنها ذات مساء، تستغل ذكرى عيد ميلاده، وتقدم له -كما وعدته- هاتفا جديدا بالمناسبة. يشكرها على صنيعها، ولكنها تلاحظ بأنه لم يبد تحمسا كبيرا للهدية. عمار ومع أن هاتفه الجديد في يده، فإنه يفضل أن يكون دائما إلى بجانب لويزة عندما تجري مكالماتها حتى يعرف من يكون على الخط في الجهة المقابلة..

عمار يعيش في داخله اضطرابا كبيرا خاصة عندما يفكر في المكالمات التي تجريها في غيابه.. يقول في نفسه.. لعلها تعرفت على شخص غيري في السر.. عشيق قديم أو جديد تبادله الغرام والهيام.. منذ خيانة امرأتي السابقة لي في فراشي لم أعد أثق بالنساء.. ولتسامحني لويزة على التحقق من سجل أرقام هاتفها ومكالماتها..

لعلها وضعت لعشيقها اسم امرأة حتى لا اكتشف أمرها فيتبادلان العشق في الهاتف.. لا أريد أن أتخيل الخيانة في فراشي مثلما فعلت العاهرة زوجتي السابقة..

منذ أن أفلتت لويزة من يديه هاتفها بذكاء ازدادت هواجسه رغم أنها لم تبخل عليه بأي شيء مثلما يطمئن بذلك نفسه كلما غزته الوساوس أو أسمعه أصدقاؤه خبرا عن خيانة زوجية أو هروب فتاة مع عشيقها ضاربة عرض الحائط بشرفها وسمعة أسرتها.. يردد في نفسه.. مادمت لم أفز بقلبها وحبها فإني لا آمن من هروبها مني أو خيانتها لي مع من تحب رغم أنها تستميت في خدمتي وتمنحني كل ما لديها دون نقصان.

لويزة بدأت تشعر بالضيق من تغيره الشديد. فقد أضحى عمار شخصا غريبا عنها تماما وكأنها لم تعرفه كل هذه الشهور. صار دائم الإسراع نحوها لكي يكون إلى جانبها ويسترق منها السمع حين تجري مكالماتها. بل إنه تمادى في تصرفاته الشاذة دون تبرير واضح لما يلمح هاتفها بين يديها. بات الهاتف لديه كابوسا حقيقا يثير قلقه في الحضور ويصيبه بالتوتر والاضطراب في الغياب. فكم من المرات يكلمها يوميا بالهاتف لمجرد الاتصال أو لأسباب يدرك بأنها مفتعلة كأن يسألها عن اسم وجبة الغداء التي حضرتها لهذا اليوم، أو يسألها

أن تبحث له عن شيء قد يكون نسيه في البيت. تلاحظ لويزة بأنه اعتاد الاتصال بها دون سبب حقيقي أو أن يأخذ منها هاتفها ويخرج به من البيت تحت مبررات واهية مدّعيا بأن نوعية هاتفها أجود من هاتفه.

مع الأيام تتحقق لويزة من تجسسه عليها ومر اقبته المستمرة لمكالماتها خاصة أرقام الهواتف الجديدة حيث يعيد الاتصال بأصحابها، بل إنه يتصل حتى بالأرقام القديمة مخافة أن تكون قد غيرت أسماء أصحابها.. وها هو يصل به الأمر إلى درجة أن صار يأخذ معه هاتفها إلى العمل لكي يرد بنفسه عن المكالمات ليتحقق من هوية المتصلين بعد أن يتنصت قليلا على صوت المتصل ثم يعتذر منه إذا تعرف على صوته. وعندما يرن الهاتف بين يديه، يستقبل المكالمة ويرد بنفسه بأي كلام عوضا عنها. ولما يعرف بأن المتصل من معارفها يجيب بأنه نسي عنده هاتف لويزة عند خروجه من البيت.

تجد لويزة نفسها غير قادرة تماما على الاتصال بذويها و أقاربها حينما قرر عمار حرمانها من هاتفها. أعاده إليها ذات يوم مهشما متسخا بزيت محرك السيارات بدعوى سقوطه من مرفأ عال في المرأب وقال لها بأنه باستطاعتها استعمال هاتفه إذا أرادت الاتصال بمن تريد. تدرك لويزة أن الشكوك والوساوس عملت عملها في

نفسه، وها هي تأكله كما تأكل النار الهشيم. تتذكر سبب طلاق زوجته السابقة وحديث شقيقته عنها عندما زارتهم في بيتهم وكيف كانت تتصل بعشيقها القديم عن طريق الهاتف ويتواصلان عن طريق شبكة التواصل إلى أن وقع الفأس في الرأس ووقف بنفسه على خيانتها في بيته وعلى فراشه.

تحاول لويزة أن ترأب صدع عمار وتؤكد له أنها مخلصة له وتريد المحافظة على زواجها. كان رده حينما صارحته بذلك بأنه لا يثق بالنساء. تتأسف لويزة مع الأيام على ما آل إليه الحال بينهما. يمنعها حتى من زيارة جارة لها مريضة أو صديقة تدعوها لحفلة زواج ابنها أو ابنتها. يصطحبها بنفسه لزيارة أهلها ولا تعود إلا بصحبته. لا يسمح لها حتى بالبقاء في بيت والديها ولو لأيام قليلة حيث لم تترك الوساوس في قلبه مساحة للعقل والحكمة.

الدنيا تسودّ أكثر لدى لويزة.. تبكي في صمت خاصة بعد أن حرمها من مواصلة تعليمها عن طريق المراسلة ولا سمح لها حتى بالدخول إلى المدرسة القرآنية القريبة ككل نساء الحي مخافة أن يكون خروجها من البيت يوميا لحفظ القرآن مدعاة إلى الانحراف وفرصة لترصدها من متسكعي الشوارع.

تنتكس لويزة وتصاب باكتئاب شديد. يرتفع لديها ضغط الدم كلما تفكر في مصيرها واستمرار الظروف الصعبة التي تمر بها وليس لها آخر وعمار مستمر في وساوسه التي تزداد حدة يوما بعد يوم خاصة وأن بعض أصدقائه لمحوا له بأنها فاتنة الجمال وحريصة على خدمته نقلا عن نسائهم اللاتي التقت بهن في بعض المناسبات مثل مناسبة نجاح جابر في شهادة التعليم المتوسط لما زرنها واحتفلن معها بنجاح ابنها.

يجن جنون عمار عندما يثير أصدقاؤه أمامه الحديث عنها فيحسدونه عن جمالها وتفانيها في خدمته ويقارنونها بنسائهم اللاتي منهن الكسولات ومنهن العنيفات المتمردات ومنهن متوسطات الجمال.

الحقيقة، أن عمار صار يخشى من بعض أصدقائه المتهورين الذين لا يردعهم دين ولا أخلاق حينما تسوّل لهم أنفسهم فعل شيء ما. يتحول جمال لويزة لديه إلى فزع كبير بعد أن كان محل انجذاب ومتعة لديه. كم يتمنى الآن لو تكون دميمة حتى لا يطمع أحد فيها مع أنه في قرارة نفسه يعترف بأنه لم يكن ليرغب فيها ويتزوجها لو كانت في الأصل قبيحة الشكل.

تدرك لويزة بأن حياتها على كف عفريت وأن الشيطان يلهو برب بيتها كما يلهو السكير بمغلاق زجاجة خمر بعد أن أفرغ ما فيها في بطنه. ومع ذلك، فهي تخشى أكثر من الانفصال ولا تريده. لذلك، تخفض رأسها عن تجاوزاته وشكوكه، بل وتقنع نفسها بأن تبقى دون هاتف بعد أن أبلغت أهلها بكل شيء ونصحوها بالصبر لعل الجنين الذي في بطنها يغير من حاله نحو الأحسن، فهو مشتاق إلى قرة عين تنير بيته الخاوي، فمهما كان، فقد تحمل تربية جابر ووضعه في منزلة الابن.

تقرر بعد وجبة العشاء أن تخبره وهي تبتسم:

– عمار.. أنا حامل!

يهتز.. يتصبب عرقا.. وعوض أن يفرح بالخبر السعيد يخاطبها غاضبا:

– من قال لك احملي؟!

– ألم تقل لي في بداية زواجنا أنك تريدني أن أنجب لك قرة أعين تسعد بهم ويكون لك أحفاد يلعبون في حجر جدهم ويؤانسونه في شيخوخته عندما يغيب عنه الجميع وتلمّ به الوحدة القاتلة؟

- كان ذلك في بداية زواجنا. أما الآن كان يجب أن تخبريني باعتزامك الحمل حتى أرخص لك بذلك.
- حسبتك تحب أن أنجب لك أطفالا!
- يجب أن يسقط الجنين!
- مستحيل. أحببته وستحبه. إنه ينمو في أحشائي.
- قلت لك يجب أن يسقط ولا أرغب فيه.

تسد عليه وساوسه آفاقه ويغيب عقله فلم يعد يرى إلا شبح الخيانة؛ فهو لا يثق أصلا بالنساء.

-من يثبت لي بأنه من صلبي؟ علي أن أطلب فحص حمضه النووي.

تصيبها الصاعقة في شرفها فيغمى عليها. يسارع إليها جابر برش بعض الماء البارد على وجهها ويمسحه بشيء من العطر النفاذ لعلها تفيق من غشيتها. لكنها تظل في غيبوبتها مرمية دون حراك على سرير غرفتها. يضطر عمار الذي بقي واقفا يتفرج إلى أخذها في سيارته ونقلها إلى مصلحة الاستعجالات. تتلقى بعض الفحوصات ثم يحولها الطبيب على الفور إلى مصلحة التوليد. بعد ساعة من الأوجاع رغم التخدير ترمي به خارج أحشائها.

تستفيق على صوت القابلة:

-الحمد لله على سلامتك.. أما الجنين فقد مات.

تدخل في غيبوبة مرة أخرى. عندما تفتح عينيها بعد ساعة من فقدان الوعي تجد والدها ووالدتها و أبناءها بجوارها فتحس بالأمان ثم تبكي بكاء شديدا على جنينها، ثم تطلب من والدها أن ينقلها إلى بيتهم لا إلى بيت عمار.

(2)

تنطوي لويزة على نفسها بعد انفصالها المروّع من عمار. لا تغادر الغرفة التي هيأتها لها أمها إلا لسبب قاهر، وحتى طعامها يصلها إلى غرفتها فتتناوله معها أمها، وأحيانا يلحق بهم جابر عندما يعود من المدرسة. لويزة كفرت بنفسها عندما تطلقت من لدهم، كما كفرت بالرجال عندما خلعت مكرهة عمار الميكانيكي.

يتوسل عمار بالوسطاء والوجهاء لإعادتها إلى بيته، لكنها ترفض بكل قوة الرجوع إلى من نعتته بالمخبول الذي فتكت بعقله وساوسه وشكوكه وبلغ به الأمر حد اتهامها بالخيانة وبأن جنينها الميت ليس من صلبه. بعد شهر، تصله ورقة الخلع من المحكمة بعدما اقتنع القاضي بروايتها خاصة بعد أن علم بخيانة زوجته السابقة وسبب عدم ثقته بالنساء.

تجد لويزة نفسها في مواجهة نفسها.. فتكيل إليها الاتهامات تلو الاتهامات.. فشلت في بناء حياتي.. أنا لا أصلح أن أكون زوجة تشارك زوجها الحب والأفكار والأحلام كما كان يفترض أن أكون مع لدهم، ولا حتى امرأة رجل تخدم بعلها كالجارية مثلما كنت مع عمار.. لم أنجح في تجربة زواجي الأول كما فشلت في زواجي الثاني الذي حرصت خلاله كل الحرص أن لا يحدث لي انفصال جديد.. ها أنا الآن لم أعد أصلح

لأي شيء.. حتى الشيوخ لن يطمعوا في الزواج بي فما بالك بالكهول.. الجميع يشير إلي بالأصبع بأني امرأة عنيفة وعنيدة سرعان ما يلفظها الرجال من بيتوهم كما يلفظون من أفواههم حبة علك فقدت طعمها.

تنسدّ الآفاق أمام لويزة. لم يبق لها في الدنيا سوى حياة التي لا تزورها إلا لماما لانشغالها بزوجها وتربية طفلتها ولبعد مسكنها كذلك، أو جلال الذي لم يعد يزور بيت جده إلا نادرا، بل إنه لا يزورها إلا أياما قليلة جدا بعد أن صار يفضل قضاء عطلة الصيف مع أصدقائه على الشواطئ وفي المنتجعات السياحية بعد أن أكمل دراسته وحصل على منصب عمل في الإدارة بعيدا عنها بمسافة طويلة.

لويزة، تدرك بأن جلال يتألم لمآلها. لذلك يتجنب المكوث معها لعدة أيام؛ لكونه لا يريد أن يرى في عينيها صورة الأم المعذبة التي تتمزق أوصالها قطعة قطعة بعد أن انتقلت من نكبتها الأولى مع والده إلى نكبتها الثانية مع عمار. ربما جابر هو الوحيد الذي ظل معها بحكم الدراسة ومرحلة الطفولة، وهي تخشى أن يفارقها أيضا عندما يكبر ويختار طريقه الخاص في الحياة غير الذي تختاره له أمه الفاشلة في حياتها والتي لم تعد مثالا للنجاح والكفاح.

تطلب من جابر الذي دخل عليها لتوه أن يضع محفظته جانبا ويقترب منها:

- جابر حبيبي.. هل تتركني وحيدة عندما تكبر؟

يرتمي عليها ويحتضنها وهو يردد:

- مستحيل.. لن أتخلى عنك يا أمي.

تعرف أن كلامه مازال كلام طفل يحب أمه كثيرا ومتمسك بها إلى درجة لا يمكن وصفها، ومع ذلك، فإن كلامه يشعرها، على الأقل، بالأمان والطمأنينة وبأنها ليست وحيدة ولو لفترة زمنية مؤقتة. أما على المدى البعيد، فهي تعي بأن جابر قد يبّدل أقواله عندما يكبر وتتغير أفكاره مثلما يفعل الكثير من الأبناء والبنات عندما يغيرون، في مرحلة الكبر، أفكارهم وأحلامهم الطفولية، فيغادرون بيوت والديهم مع زوجاتهم أو يتنقلون إلى مدن بعيدة للعمل.

كلما تخلو إلى نفسها، تعصف بها الوحدة وتنتابها الهلوسة. يتراءى لها ماضيها في صورة شبح كاسر مكشر على أنيابه الحادة يريد افتراسها. لا ينقذها من ذلك إلا جابر أو أمها أو والدها عندما يسمعونها تنادي وتطلب كأسا من الماء. في الحقيقة، لا تبتغي شرب الماء، ولكنها تريد أن يجلس معها أي أنيس حتى تطرد من ظلمة نفسها شبح أفكارها ووساوسها. أحيانا، تفكر ما إذا كانت تفقد شيئا فشيئا

من قدراتها العقلية بعد أن صارت تخاف من وحدتها خاصة إذا كانت الغرفة مظلمة في الليل فتزداد وساوسها ويصور لها خيالها كل مشاهد الخوف والفزع. مرة، زارها شبح بدا لها وكأنها تعرفه من قبل.. لم تتبين ملامحه جيدا ولكنه كان هو بذاته لدهم يمدّ نحوها يديه بصدر مفتوح.. أرادت أن تقوم إليه وتمسكه ثم ترتمي في حضنه وتبكي كالطفلة الصغيرة إلا أن الشبح سرعان ما اختفى عندما همت بالحركة نحوه. مرة أخرى، صرخت، عندما لمحت في ظلمة الغرفة عمار يريد الإمساك بها، ولكن لحسن الحظ لم يسمعها أحد، فقد كان الجميع يغطون في نوم عميق، بما فيه جابر الذي كان إلى جانبها يتململ قليلا في سريره غير أنه لم يستيقظ لصرختها. من حين إلى حين، تفرك عينيها بشدة لتتحقق ما إذا كانت هذه الأشباح حقيقية أم أن عينيها تخدعانها وأنها من تصوير خيالها. عندما تدرك بأن هذه الأشباح التي لم تكن سوى صور لدهم وعمار دون سواهما تتأكد بأنها من صنع خوفها من وحدتها ووساوس تفكيرها بماضيها وفشل زواجها.

ظلمة نفسها الموحشة توشك أن تضر بعقلها وتصل بها إلى الجنون وهي في حالها التعيسة مثل طير جريح تتخبط وحيدة في مصيدة هواجسها وأشباحها المفزعة. في زخم التيه والحيرة، تلمع في

رأسها فكرة وهي أن تفتح مصحف القرآن وتقرأ بعض آياته حينما تشعر بالقلق والتوتر أو بأي شبح يطوف في غرفتها ويبتغي الاقتراب منها. هي لا تريد أن ترى شبح لدهم مع حبها له ولا شبح عمار الميكانيكي الذي لن تنسى وساوسه المقيتة. شيئا فشيئا تصير أكثر طمأنينة وراحة. تشعر بأن الله معها حينما تفكر فيه أو تفتح المصحف وتقرأ منه بعض الآيات والسور أو تُردد على نفسها بعض السور القصيرة التي تحفظها عن ظهر قلب منذ الصغر.

تقترب منها حياة التي جاءت لزيارتها هذا الصباح وتحدثها برفق:

– أمي أرى المصحف في يدك! لماذا لا تذهبين إلى المدرسة القرآنية القريبة؟ إنها فرصة لتخرجي من هذه الغرفة الموحشة وتحفظي القرآن، فإنه آنس لك. هناك الكثير من النساء يزاولن دروس حفظ القرآن الكريم.

– هذا صحيح، ولكنهن دون شك فتيات أو نساء أصغر مني سنا.

– بل هناك نساء أميّات كبيرات في السن حفظن كتاب الله كاملا مثلما أخبرتني جدتي عندما كانت تتردد على المدرسة القرآنية في السنة الماضية. للأسف، جدتي توقفت عن مزاولة

المدرسة القرآنية عندما واجهت صعوبة في الحفظ وتعلم الحروف، كما أنها لم تجد جارة في سنها لترافقها. على الأقل، تحثين جدتي على استئناف تعلمها مرة أخرى وتذهبان معا للمدرسة.

بعد أسبوع، تسجل لويزة اسمها في المدرسة القرآنية وتنغمس في حفظ القرآن ودراسة أحكامه بعد أن وجدت كل الترحيب والتشجيع من معلمات المدرسة خاصة وأنها على قدر محترم من التعليم سابقا في المدرسة العمومية التي انقطعت عنها بعد نجاحها في شهادة التعليم المتوسط. والدها أوقفها عن مواصلة الدراسة بحكم العرف السائد الذي لم يكن يسمح للفتيات المراهقات بالدراسة حينما تظهر عليهن بوضوح ملامح الأنوثة فيخشى عليهن أولياؤهن من الوقوع في مرمى عيون الشباب المتسكعين الذين تدفعهم غرائزهم لمطاردة الفتيات.

بعد أيام، تتعرف لويزة على الزهرة، جليستها في الطاولة بالمدرسة القرآنية. أرملة ترك لها زوجها الراحل أربعة أبناء تقوم بتربيتهم وعندما تغيب تحل مكانها ابنتها الكبرى التي هي على وشك الزواج. تصبح الزهرة صديقة لويزة المفضلة؛ لأنها لا تبخل عليها في شرح بعض ما غمض عليها من أحكام التلاوة والتفسير. عادة، لا تكتفي المدرسة القرآنية بتحفيظ القرآن الكريم وأحكامه وتفسيره،

وإنما أيضا تقدم لطلبتها في كل أسبوع محاضرة اجتماعية للنساء حول تربية الأولاد ومخاطر الطلاق والآفات الاجتماعية وصحة المرأة. كما تسهم المدرسة في الحملات التطوعية والأنشطة الخيرية مع مدارس وجمعيات أخرى في المدينة.

تعلم لوزية من صديقتها بأنها توقفت مثلها في السنة الرابعة متوسط، ولكنها الآن تزاول تعليمها عن طريق المراسلة، وقد وصلت إلى السنة الثالثة ثانوي وهي تستعد في هذه السنة لإجراء امتحان شهادة البكالوريا. لا تجد لويزة كبير العناء لتستجيب لصديقتها بمواصلة تعليمها ورفع مستواها الثقافي حيث اصطحبتها الزهرة إلى مدرستها السابقة واستخرجت شهادة مدرسية واستكملت ملف التسجيل واستعدت للدراسة في السنة الأولى ثانوي.

لويزة تنهمك في نشاطها التعليمي بالعمل على جهتين؛ التعليم القرآني في المدرسة القرآنية والتعليم العام عن طريق المراسلة. تكاد تنسى تماما وحدتها ولم تعد تتذكرها إلا للحظات حينما تكون وحيدة في غرفتها. وإذا تذكرتها، تضحك على نفسها وتردد.. أين كنت وكيف أصبحت؟. يشيع صيتها في المدرسة القرآنية وقدرتها على الحفظ السريع واستيعاب الدروس حتى أن إحدى معلماتها قالت لها ذات يوم أنه بإمكانها تقديم الدروس بعد أن حصدت أعلى الدرجات في كل

الامتحانات وكانت الأولى في دفعتها. لويزة تفسر حصولها على المرتبة الأولى بشغف التعلم الذي كان يأخذ بمجامع قلبها عندما كانت تلميذة مجتهدة في المرحلة المتوسطة. تقول في نفسها.. لولا توقيفي عن مزاولة الدراسة لكنت اليوم طبيبة أو معلمة. ولعل انكبابي على طلب العلم و أنا كبيرة في السن هو تعويض عن الحرمان الذي عانيت منه طويلا عندما منعني والدي من الدراسة.

تحصل لويزة من المدرسة القرآنية على الإجازة في حفظ القرآن وأحكامه في زمن قياسي، كما أبدت تفوقا في استيعاب دروس التعليم العام عن طريق المراسلة. تزداد تمكنا و اقتدارا في دراستها و اتساعا في ثقافتها، وتصبحان، هي والزهرة، كثيرتي التردد على دورات التكوين الاجتماعي والإرشاد الأسري في مركز التكوين بوسط المدينة، ويحصلان على شهادات الكفاءة في تنشيط الدورات، كما منحها رئيس البلدية مع رئيسات جمعيات خيرية أخرى، شهادة تكريم، مقابل نشاطها التطوعي تجاه النساء والأطفال في ميدان الحملات التحسيسية للوقاية من سرطان الثدي والتحذير من مخاطر تعاطي المخدرات والحبوب المهلوسة التي بدأت تنتشر بين شباب المنطقة.

لويزة، تستغل موهبتها في القص عندما كانت تلميذة في المدرسة، فتزيد من مهارتها التعبيرية وتعلم أطفال النادي كيفية

كتابة القصص البسيطة، كما تطلب من كل واحد منهم أن يسمع زملاءه في حصة المطالعة حكاية من الحكايات التي قرأها من كتب الأطفال في مكتبة النادي. بعض الأطفال ظهرت عليهم موهبة الشعر، لذلك، فإن زميلها توفيق، المعلم، سخر وقته في النادي لتطوير مواهبهم الشعرية والقصصية وكثيرا ما كان يساعد لويزة في هذه المهمة. عندما تنظم المقاطعة المدرسية المنافسة الثقافية الشهرية بين المدارس في أنشطة الرسم والمسرح والقصة والشعر والرياضة، فإن بعض أطفال النادي يفوزون من حين لآخر باسم مدارسهم ويحصلون على المراتب الأولى وينالون جوائز قيمة.

لويزة، يروي لها أطفال النادي وأيضا رواده من النساء والرجال خلال حصص الإرشاد الأسري الكثير من الحوادث والمشاكل التي تقع لهم مع أفراد عائلاتهم. تقدم إليهم النصائح والتوجيهات والخطط لتجاوز مشاكلهم، وفي الوقت نفسه، تجدها فرصة لإعادة كتابة ما تسمعه في شكل قصص قصيرة مستمدة من الواقع، غير أنها تضع أسماء مستعارة لشخوص قصصها.

في إحدى المرات، أعطت كراستها إلى توفيق وطلبت منه أن يقرأ ما كتبته ويبدي ملاحظاته. وعندما أعاد لها الكراسة، ومعها بعض ملاحظاته في ختام كل قصة وخاطرة، وجدت في نهاية الصفحة

الأخيرة رأيه فيما كتبته (أنت مبدعة وأسلوبك جيد ولديك موهبة الكتابة القصصية والخواطر، استمري وكثفي من قراءة القصص حتى تطوري موهبتك أكثر).

تذكر لويزة كيف لوّنت بالقلم الأصفر هذه العبارة المتميزة، ثم قصتها من ورقة الكراسة وعلقتها فوق مرآة غرفتها حتى تراها صباحا ومساء وفي كل وقت، فتكون لها محفزا على مواصلة كتابة قصتها الطويلة " هذه أنا" التي انكبت عليها منذ مدة، وتروي بعض مراحل حياتها. لكنها تجد صعوبة واضحة تحول دون استمرارها في الكتابة، ربما بسبب التوتر النفسي الذي ينتابها عندما تهمّ بكتابة موقف محرج عاشته في الماضي ولا تريد أن تتذكره وتحكيه. لذلك، تتوقف وتزيح أوراقها من أمامها وترمي القلم جانبا. تقول في نفسها بأنها إذا فشلت في كتابة قصتها فستكون أول وآخر تجربة لها في الفن القصصي.

تدور لويزة حول نفسها فرحا بنجاحها وهي في قمة الفرحة والشعور بالنشوة والفخر وهي تحمل في يديها شهادات التكريم التي تسلمتها من سلطات المدينة وشهادة الإجازة في حفظ وتعليم القرآن.

تراها أمها وهي في أوج سعادتها بنجاحها. تتجه إليها مسرعة وتطلب منها الجلوس إلى جانبها.

– لويزة.. أنت سعيدة دون شك.. وقد جعلتني أقرأ بنفسي المصحف بعد أن ساعدتني في دروس محو الأمية.. ولكن، هذا غير كاف. يجب أن تكتمل سعادتك كبقية النساء السعيدات.. لن تبقي مثل الخادمة في البيت، ويجب أن يكون لديك من يسعدك.. هكذا يرى والدك أيضا.

تهتز لويزة وتكاد ترمي ما في يديها من شهادات. تغزوها في لحظة واحدة ما كانت قد نسيته من متاعب ماضيها.

– أمي.. ليس لي نصيب في الزواج.. أنت ووالدي تعرفان ذلك.. نصيبي أن أخدمكما إلى آخر حياتي.

– لا يا بنتي.. زوجة شقيقك المهاجر مادامت معنا هي من تتكفل بمساعدتنا.. أما أنت فعليك بابن الحلال لكي يعوضك عما فاتك.. من مدة، عدة وجهاء في المدينة يترددون على والدك لطلب يدك ويتمنونك، منهم الأستاذ ومنهم رجل الأعمال ومنهم من يعمل في الإدارة. سندعك تفكرين في الأمر وأرجو يا بنتي أن ترفعي عنا حرج تردد الخطاب على والدك.. لا تنسي أن الزواج سترة لك وتعففٌ خاصة وقد صرت تتنقلين من مكان إلى مكان تلقين المحاضرات لفائدة النساء والرجال على حد سواء.. ولا نريد أن تصبحي ضحية القيل والقال، فتنتكسين مرة أخرى بعد أن صرت سعيدة ناجحة.

لا تقول شيئا لأمها وتلتزم الصمت. تغادر نحو غرفتها وتأخذ بعض أوراقها وترتب هندامها وتخرج من البيت نحو مركز التكوين لإلقاء محاضرة إرشادية للنساء والرجال حول تربية الأولاد وتصطحب جابر معها مثلما يصطحب المدعوون أبناءهم. فقد اعتادت أن يكون جابر معها كلما كان لديه وقت فراغ خاصة في عطلة نهاية الأسبوع لكونها تريده أن يلتقي بالأطفال هناك، ويتعرف عليهم حتى يوسع من دائرة صداقاته مع التلاميذ النجباء، فلعله يجد فيهم بيئة نجاح مثلما خططت لذلك.

بعد الانتهاء من محاضرتها في المركز، تجد هذه المرة، شخصا بانتظارها في الرواق. وجهه قمحي وعيناه واسعتان وله أنف كبير تحته شنبات عريضة. يرتدي بدلة بنية ورابطة عنق حمراء. بأدب يقترب منها ويسألها على انفراد شرح بعض المعاني التي لم يفهمها جيدا أثناء المحاضرة. تأمر جابر بانتظارها على المقعد المجاور، وتشرع واقفة تشرح بعض ما جاء في المحاضرة وتجيب عن كل أسئلته. عندما يشكرها، تطلب منه وهي مبتسمة أن لا يتردد في طرح أي أسئلة عليها مستقبلا.

لكنه يفاجئها بتقديم نفسه:

- نجم الدين.. رجل أعمال محترم ويعرفني الجميع.. لدي مصنع لصناعة الياجور.. مطلق ولي ولدان، أحدهما منير ذاك الذي يجلس مع ابنك، والآخر عزيز يدرس في الجامعة، وهو ليس معي الآن. تعودت أن أحضر محاضراتك المفيدة كلما وجدت الوقت الكافي لذلك.

تجيب بوجه مشرق وبابتسامة عريضة تدربت مرارا عليها في دورات التكوين أن تطبعها دائما على شفتيها مهما كانت المواقف صعبة:

- تشرفت بالتعرف عليك وباهتمامك بمحاضراتي.

لا يدعها تغادر مكانها ويستأنف:

- اعتذر مسبقا عن الدخول في خصوصياتك، ولكن من الضروري أن أتحدث.... عرفت أنك مطلقة لمرتين.. اتصلت بوالدك طلبا للزواج بك.. انتظرت بضعة أشهر.. عندما لم يصلني منه أي جواب، اغتنمت هذه الفرصة، وها أنا أصارحك وأطلب يدك لكي نبني معا عشا جميلا دافئا نجمع فيه أبناءنا.. امتلك بيتا فاخرا وواسعا يشبه القصر كما أن لي بعض العقارات وعددا من السيارات..

لم تمكنه من استكمال كلامه وتقطع عنه سرد ممتلكاته:

- زادك الله من فضله.. لكني قررت عدم الزواج والتفرغ لتربية ابني وخدمة والديّ.. أشكرك على التفهم..

تتركه و اقفا في مكانه وتغادره دون أن تنصت لآخر كلماته.. طوال طريقها إلى البيت لم تكف عن مخاطبة نفسها.. الحمد لله، لم تعد تشغلني مشاكل الماضي ولا الفشل في الزواج.. ها أنا أشعر بأني استرددت قوة نشاطي وطاقتي التي أسخرها في خدمة الناس.. لولا المدرسة القرآنية ومركز التكوين في الإرشاد الاجتماعي والأسري والإصرار على مواصلة تعليمي لما استطعت أن أغير من نفسي.. كنت افتقد لأدوات التغيير وها قد أصبحت لدي سلاحا قويا أقوّم به أخطائي و أقوّي به نفسي عند الشدائد والمو اقف..

مع قدرتها على إقناع نفسها ببعض الإجابات المطمئنة عندما تجد نفسها في غمرة الهواجس والإحباط، فإن بعض الأسئلة الحائرة لا تجد لها جوابا حتى الآن. مرة، غزاها التفكير عندما تذكرت نجم الدين، فتساءلت.. كيف يكون طعم السعادة لو كنت الآن في قصر رجل الأعمال وبين أحضانه؟ هل يا ترى تستطيع هذه السعادة أن تعوض سعادتها عندما كانت هانئة في عش الزوجية قبل أن يمزقه الطلاق. تحدث نفسها.. كم قلت في محاضراتي بأن الحب هو

الرابطة الأكيدة بين الزوجين للمحافظة على البيت والأولاد والحيلولة دون الانفصال وتمزق الأسرة..

في قرارة نفسها ينتابها دائما شعور بأن أقوالها تناقض أفعالها، فلعل بعض الحاضرين كانوا يسمعون محاضراتها، ولكنهم لا يقتنعون بكلامها ما داموا يعرفون بأنها مطلقة وفشلت لمرتين في زواجها، ولم تعد القدوة الجيدة للاحتذاء بها رغم أنها أسهمت في إصلاح زيجات كان فيها الأزواج على وشك الانفصال عن زوجاتهم وهم الآن سعداء ويحبون بعضهم بعضا. يظل هذه الشعور المتناقض يؤرقها وأحيانا لا يدعها تنام بهدوء ولا حل تراه لهذا التناقض إلا بزواج يكون سعيدا. وأنّى لها بهذا الزواج السعيد حتى يقتدي به الآخرون؟

تطرح موضوع السعادة أمام صديقتها الزهرة، فتجيبها بأن سعادة المرأة الحقيقية تكمن في سعادتها مع زوجها وأبنائها في بيت الزوجية. أما أنواع السعادة الأخرى فهي كالسحب العابرة تظهر وتختفي ولا تستقر أبدا. يلازمها الشعور بالأسى مادامت سعادة المرأة في بيت الزوجية. هذا يضعف من شخصيتها وهي دون زوج تلقي على المدعوين نصائحها وإرشاداتها حتى أن صوتها في العديد من المرات تصيبه الحشرجة عندما تتذكر طلاقها أثناء كلامها، فتشرب بعض

الماء لترطيب حلقها، ولكن صوتها المكلوم يظل كذلك لعدة دقائق حتى يعود إلى طبيعته.

(3)

تلهو الظروف الصعبة بالإنسان كما تلهو رياح الخريف بأوراق الأشجار المتيبسة المتناثرة على الأرض، فلا يدري إلى أي وجهة يتجه به المصير. لذلك، يترك نفسه تنقاد إلى حيث يقذف بها تيار الهواء الغاشم. بعض الناس يسعون إلى مواجهة الظروف باعتبار أنهم من صنعوها، فيغلبونها حينا وتغلبهم حينا آخر، وهم عند الانتصار عليها يشعرون بالفخر وعند الهزيمة يتحلون بالصبر على أمل أن يجرفوها ذات يوم من طريقهم حتى يواصلوا رحلتهم نحو المستقبل، وهم في كل ذلك مقتنعون بأنهم في صراع مع الذات التي أنتجت ظروفهم القاهرة. أما البعض الآخر من الناس ممن خارت قواهم، فيستسلمون للظروف على اعتقاد أنها ظروف خارجة عن إرادتهم، وأن سببها الإرادة الالهية التي لا رادّ لقضائها، أو أن الناس هم الذين زرعوا بذورها في حقول حياتهم حتى نمت بأشواكها في غفلة منهم. لذلك، يطأطئون رؤوسهم ويركعون أمامها حتى تدوسهم وتمسح بهم الأرض مثلما تمسح كاسحة الألغام أي شيء في طريقها.

لا يدري لدهم بالضبط ما إذا كان ينتمي إلى فئة الناس الذين يقاومون ظروفهم لتغيير واقعهم أم أنه من الفئة المستسلمة التي تنتظر تغييرها من الآخرين. في رأسه تعشش تساؤلات تقض مضجعه في صمت منذ أن زفت إليه لطيفة.. هل أنه من أثر فيها وغيّر أفكارها حتى قبلت به بعلا ولو من دون حب بعد أن دفنت حبها مع زوجها الراحل؟ أم أنها من أثرت فيه فجددت بعض أفكاره وأزالت القديم منها فقبل بها لتكون امرأته؟

عندما تكون لطيفة بجانبه، يترك هذه التساؤلات لحالها، ومثلما تجيئه فجأة، تطير من رأسه فجأة، ولكن هذه التساؤلات تطيل معه المكوث عندما يكون بمفرده في المقهى أو تكون لطيفة في زيارة لدى أهلها. غير أن هذه التساؤلات تختفي تماما عندما تتوسد لطيفة صدره ويلاحظ شدة تعلقها به خاصة لما تراه يلاعب ابنتيها أو حينما يعود بهما بعد جولة قصيرة في أسواق المدينة وهما تحملان في أيديهما بعض الهدايا الثمينة.

يتناولان وجبة العشاء فيما العصفورتان قد خلدتا إلى النوم مبكرا لشدة تعبهما من اللعب أمام البيت خاصة وأن غدا عطلة نهاية الأسبوع وليس لديهما دراسة. يجلسان أمام التلفاز ويشرعان في متابعة أحد البرامج التربوية في قناة متخصصة في شؤون العائلة.

منذ أن صارا خبيرين في قضايا الأسرة والتربية ازداد شغفهما بهذه البرامج لكي يضاعفا من الخبرة ويقدمان أحسن ما عندهما للزبائن في حصص الاستشارات والدورات التكوينية.

يشد على يدها ويسألها برفق :

-لطيفة عزيزتي. من اجتذب أحدنا للآخر؟ أنت أم أنا؟

- عزيزي لدهم. حقا لا أدري! لعلك من اجتذبتني!

- ربما أنت فعلت ذلك!

لا أحد منهما يعلق على جواب الآخر مادامت إجابتهما واحدة وغير محسومة عن سؤال ظل معلقا يتأرجح بينهما ينتظر الأيام عساها تتكفل بتقديم الإجابة الصحيحة.

يلاحظ لدهم بأن لطيفة ومنذ زواجه بها طوال هذه الأشهر كانت دوما تناديه (عزيزي) وليس (حبيبي)، كما أنه يفعل الشيء نفسه معها يناديها (عزيزتي) لا (حبيبتي). في إحدى المرات، عندما حاول أن يناديها (حبيبتي)، خانته اللفظة ورفضت أن تنطلق من قلبه، بل إنه عجز حتى عن اصطناعها على شفتيه. يدرك أن لفظ (الحبيب) ينطلق من القلب إلى القلب لدى الحبيبين، وما الصوت الدافئ للفظ الحبيب المشحون بالشوق والهيام إلا موسيقى ترقص على أنغامها عواطفهما الجياشة. لم ينس لدهم قولها أن ليس للحب

إلا نسخة وحيدة وقد دفنتها مع زوجها الراحل. يفهم الآن لماذا لم يستطع هو أيضا أن يصفها بالحبيبة عندما يخاطبها، رغم محاولاته الكثيرة فعل ذلك. لطيفة تقبل بأن يناديها (عزيزتي) وتفرح بذلك. فهي تعذر لدهم عندما علمت بقصة حبه وطلاقه لأنه لم يحب في حياته سوى لويزة رغم انفصالهما عن بعضهما بعضا. يعترف لدهم بأن لطيفة هي من عززت ثقته بنفسه من جديد في حبه نحو لويزة مهما حصل بينهما. من قبل، شكك في هذا الحب وظن أنه باستطاعته أن يعيش تجربة حب أخرى مع غيرها، إلا أن لطيفة علمته أن للحب نسخة وحيدة فقط دفنها أيضا مع لويزة رغم أن لطيفة لم تقل له ذلك صراحة، ولكنه الآن يدرك أنها على حق.

يعلم لدهم من خلال أبنائه الذين يتكلمون معه عبر الهاتف بأن والدتهم تطلقت من عمار. تخبره حياة بأن لويزة ترفض مجددا أن تتزوج بعد أن حفظت القرآن وتفرغت لإلقاء المحاضرات وتسيير حصص الاستشارات النفسية للنساء والرجال، وأنها حصلت على عدة شهادات كفاءة في الاستشارات، كما تقوم مع نساء بعض الجمعيات بحملات التطوع لتقديم دروس محو الأمية والتحسيس بمخاطر الآفات الاجتماعية والتحذير من بعض الأمراض الفاتكة التي تصيب النساء خصوصا.

لدهم لا يعلق كثيرا على أخبار لويزة، ولكنه في قلبه يتوجع أشد الوجع على فراقها الذي لم يكن يتصور حدوثه ولو في الخيال. مع ذلك، فهو يجد في لطيفة شيئا من التعويض عن الفراغ الكبير الذي خلفته لويزة وراءها. منذ زواجه من لطيفة، وهما يعيشان في بحبوحة من العيش والتقدير والمحبة المتبادلة. في كل أسبوع يتنقلان لزيارة بيت والديها ويمكثان أحيانا هناك طوال نهاية الأسبوع، إلا عند زيارة أبناء لدهم، فإنهما يتفرغان لهم في بيته. جميعهم يحبون زوجة أبيهم. منذ أن تزوجها لا يكاد يمر يوم إلا وتسأل عن أحوالهم من هاتف المركز أو من هاتفها. وعندما يطول قليلا غيابهم عن أبيهم، تأخذ الهاتف وتحثهم واحدا واحدا على زيارته، حتى جابر تقضي معه وقتا كافيا في الهاتف حتى صاريلح على جلال وحياة أن يأخذاه لزيارة أبيه.

إيمان وإكرام تأخذان شيئا فشيئا مكانهما بين أبناء لدهم كزهرتين في باقة ربيعية جميلة. تعتاد حياة كلما تزور والدها مع شقيقها أن لا تعود إلى بيتها إلا برفقة هاتين الزهرتين لتقضيا بعض الأيام أثناء العطل المدرسية بعيدا عن أجواء مدينتهما.. هذا يسعد لدهم كما يسعد لطيفة ويفرحها جدا. تقول في نفسها عندما تراهما معهم بأنها وجدت في أبناء لدهم أشقاء حقيقيين لابنتها مع أنها لم تلدهم. لطيفة تتمسك بشدة بأبناء لدهم مثلما تتمسك بابنتها

وكأنها تتحسس فيهم الحضن الدافئ الذي يترعرعان فيه خاصة بعد أن تزايد قلقها من حالتها الصحية، وعلى مصيرهما في حالة حدوث أي مكروه لها مع أن لدهم وعدها بأن لا تخشى على مستقبلهما وأنه سيحافظ عليهما مهما كانت الظروف؛ فهو يحبهما كثيرا ويعتبرهما ابنتيه. لطيفة تصدق كلامه؛ فهي تعرف إخلاصه ومحبته الشديدة لإيمان وإكرام منذ تعرف عليهما، ولعلهما الرابطة الحقيقية في جمعها مع لدهم تحت سقف واحد.

عندما تفكر لطيفة بأن طفلتيها في أمان مع لدهم وأبنائه، تطمئن وتجتهد أكثر لإسعاد لدهم الذي كان دوما راضيا عنها. لكنها في هذا اليوم تشعر بأنها متوترة وقلقة للغاية. تترك لدهم في المركز وتغادر إلى البيت. يلتحق بها في منتصف النهار بعد أن خرج من مدرسته. يريد أن يراها قبل أن يعود إلى المركز في الفترة المسائية. يجدها طريحة الفراش وإلى جانبها إيمان وإكرام..

-لا بأس عليك لطيفة. هل رجعت لك الوعكة التي انتابتك في الأسبوع الماضي؟ يجب أن أنقلك حالا إلى المستشفى.

تفتح عينيها بصعوبة وتضم ابنتيها إلى صدرها وتقول في صوت مبحوح بالكاد يسمع:

-لدهم ...لعلي لن أعود. استودعك إيمان وإكرام.. ضعهما في عينيك.. ليس لهما غيرك..

-إلعني إبليس. ستعودين إليهما أقوى من قبل.. أنا متأكد من ذلك..

ما هي إلا دقائق وتختفي لطيفة وبرفقتها لدهم وبنتيها داخل سيارة الإسعاف التي انطلقت في لمح البصر بزمارتها وأضوائها نحو المستشفى. يمر الوقت على لدهم كأطول ما يكون وهو بانتظار خروج الطبيب من مصلحة الانعاش. يجلس على مقعد الانتظار وإلى جانبه إيمان وإكرام تبكيان على أمهما. يطمئنهما بأن والدتهما ستعود إليهما سليمة متعافية، ولكنهما يجيبانه بأنها المرة الأولى التي رأتا فيها أمهما في هذه الحالة بهالات سوداء تحت عينيها واصفرار شديد على وجهها وصوت مبحوح و أنفاس متقطعة.

يتمدد أكثر زمن الانتظار ويصير كأنه الدهر ثم في الأخير يخرج الطبيب ويطلب من لدهم أن يتبعه دون البنتين. يبلغه الطبيب بأنها كانت قوية وقاومت بشدة مرضها إلا أن قضاء الله كان أقوى من الجميع. يسقط لدهم مغشيا عليه. تسرع إيمان وإكرام إلى مكان الجلبة التي أحدثها سقوط لدهم، فيرتميان عليه وهما يصدران صراخا وعويلا مريرا على فراق أمهما أسال دموع بعض الحاضرين

والممرضين الذين تجمعوا لتحويل لدهم إلى مصلحة الاستعجالات لعلاجه من حالة فقدان الوعي.

تم تشييع لطيفة إلى مثواها الأخير في موكب جنائزي مهيب يتقدمهم لدهم و أبناؤه و إيمان وإكرام ووالديها و أقرباؤها وعمال المركز والجميع يعتصرهم الحزن والأسى على فقدانها للأبد.

(4)

في الذكرى الأولى لرحيل لطيفة ينظم المركز احتفالية يحضرها الجميع بما فيهم ضيوف شرف من مسؤولين ووجهاء المدينة. تثبت في قاعة الاحتفال لوحة كبيرة تحمل صورة السيدة لطيفة ثم تلقى كلمة من مدير المركز يتحدث فيها عن خصالها. بعدها، يقوم عمال المركز بتكريم لدهم زوجها و ابنتيها على وقع الدموع التي فاضت من مقلهم.

بعد أسبوع، تصل المركز دعوة من جمعية "الرباط" الخيرية لإلقاء محاضرة في مؤتمر حول الأسرة. المؤتمر ستحضره السلطات وجمعيات وهيئات اجتماعية معنية. هذه المناسبة تنظمها الجمعية مرة في السنة، وسيكون هناك حضور مكثف ومحاضرون متميزون. هذا المؤتمر يمثل فرصة لكافة المراكز التكوينية للتقييم والتنافس وحصد الجوائز. لذلك، يقع اختيار المدير على لدهم للقيام بالمهمة ويخصص المركز حافلة لنقل الأساتذة إلى المؤتمر ويوصي المدير

الجميع بما فيهم لدهم بتسجيل الملاحظات والاستفادة منها في التكوين والخبرة، فما أحوجهم إلى أن يتصدر مركزهم قائمة المراكز الأخرى والمحافظة دائما على المرتبة الأولى.

يبدأ المؤتمر أشغاله وينطلق المحاضرون في إلقاء مداخلاتهم التي طلب رئيس الجلسة أن تكون قصيرة ولا تتعدى المداخلة الواحدة مدة عشرين دقيقة. تنتهي المداخلة الأولى ثم الثانية ثم يعلن عن المحاضرة الثالثة حول مصير الأطفال بعد انفصال والديهم. عندما تظهر على المنصة يتأكد منها.. إنها هي! يغمى عليه وهو على كرسيه بين الجمهور. تنادي البنتان على أحد الأعوان، فيرشه بالماء البارد من قارورة كانت معه. الماء البارد حل سريع ينفع أحيانا البعض خاصة كبار السن الذين يفقد عدد منهم الوعي مؤقتا نتيجة الضغط وقلة الأوكسيجين في القاعة أو التأثر ببعض ما يقوله المحاضرون خاصة إذا تطابقت بعض أفكارهم مع ما يعانونه في أنفسهم وما يعيشونه بين عائلاتهم من مشاكل مع الأزواج والأولاد.

تحتل لويزة المقعد الأوسط في المنصة بين أعضاء لجنة التنظيم. يدقق لدهم جيدا في ملامحها، فهو منذ سنوات لم يرها.. يتأمل وجهها وكيف حفرت الأيام عليه خدودا رقيقة ولكنها جميلة.. يقول في نفسه.. لويزة مازالت جميلة.. تتضاعف هزات قلبه حتى

لكأن كل من حوله يسمع دقاته.. يشدّه الحنين إلى الماضي بعد أن دفنه في قبر ومسح الزمن معالمه، وها هي تخرج إليه من قبرها مرة أخرى في ثوب أبيض جديد وتسمعه صوتها الرنان الذي يصله كقطعة موسيقية تدغدغ عواطفه وتدخله إلى عالم الذكريات الجميلة.. يقول في نفسه.. لويزة تغيرت كثيرا في أفكارها وصارت، كما يبدو، محط اهتمام الجمهور والجمعيات وهم يرون حجم ثقافتها ومدى تأثيرها فيهم..

لويزة منهمكة في إلقاء المداخلة وهي تشير بيديها إلى الأعلى حينا وتنزلهما حينا آخر حسب متطلبات التعبير. ترفع صوتها في الموقف المتشدد، وتخفضه في موقف التأمل والتفكر.. الجمهور يرد عليها بالتصفيقات تلو التصفيقات وبالهتافات أيضا طالبا منها الاستمرار في كلامها بعد أن رأوا رئيس الجلسة يسلمها إشعارا بانتهاء الوقت المخصص لها، فيمنحها خمس دقائق إضافية نزولا عند رغبة الجمهور.

في غمرة حماسها تقع عيناها على عينيه. تلمح إلى جواره إيمان وإكرام، طفلتي لطيفة، اللتين طالما حدثها أبناؤها عنهما، وها هما معه بعد أن تركتهما أمهما وديعة عنده.. تتساءل.. هل ترى خدمته

لطيفة مثلما خدمته؟ هل أحبته كما أحببته؟ مستحيل، فلم يحب أحد حبيبه مثلما أحببت لدهم..

تشعر بأنها ليست على ما يرام. تهتز وتقف في مكانها ثم تجلس. تضطرب في كلامها ويلاحظ الجميع انفلات خيط أفكارها وحشرجة واضحة في صوتها. وما هي إلا ثوان وتفقد الوعي على المنصة. يسرع إليها طاقم الإسعاف وينقلها إلى الغرفة المجاورة. بعد تلقيها بعض العلاجات تستفيق من الدوخة. تطلب عدم العودة إلى الجمهور لإلقاء كلمتها الختامية، فيتولى رئيس الجلسة المهمة ويبلغ الحاضرين بأن السيدة لويزة أصيبت بوعكة خفيفة وقد تعافت، ولكنها لا تستطيع العودة إلى المنصة.

دون إرادة منه، يسرع لدهم نحو المنصة ويبحث عنها في كل الاتجاهات. ترمقه من بعيد من حيث لا يراها، فهي لا تريد أن تصطدم به وجها لوجه. تغادر مسرعة إلى وجهة أخرى رفقة شقيقها الأكبر دون أن تخبره بأنها رأت لدهم حتى لا يعطي لوعكتها المفاجئة أي تأويلات. عندما ييأس لدهم من البحث عنها، يعود إلى مكانه منتظرا دوره في إلقاء مداخلته باسم المركز.

لويزة المختفية في المكتبة المجاورة للقاعة لم تستطع إبعاد صورته التي تطاردها في كل مكان. لدهم يستحوذ الآن على تفكيرها.

تقول في نفسها.. شكله لم يتغير كثيرا.. رغم وفاة لطيفة، فإنه يبدو قويا متماسكا.. كم كانت طيبة ومحسنة رحمها الله، وكم أحبتها حياة وجلال وجابر لحرصها على جمعهم بأبيهم.. كلما تستعيد صورة لدهم الذي رأته في القاعة، يكاد قلبها يقفز إلى خارج جسمها.. تردد في نفسها بأشياء ولكن الكلمات تأبى إلا أن تخرج منها رغما عنها حتى لكأن من في قاعة المكتبة يسمعون بعض بوحها.. لو تدري كم تعذبت وتشردت وأنا بعيدة عنك.. كم قاومت صعاب الحياة وفشلت وتلقيت الهزيمة تلو الهزيمة.. لم أنجح في زواجي من عمار؛ لأني لم أستطع أن أحبه لأنك ساكن قلبي للأبد.. يا شقيق روحي.. هل تعرف، ماذا حلّ بي من بعدك؟ بالتأكيد لا تعرف! ربما أخبرك الأولاد ببعض معاناتي ولكنك لم تعرف الكثير.. شبحك لم يفارق خيالي حتى صار يتهيأ أمامي في ليالي الحالكة.. كنت تظهر لي وتناديني لكي تضمني إلى صدرك.. كنت استشعر وحدتك القاتلة فيما كنت مكبلة بأغلال طلاقي الذي قيد حركتي وأعجزني عن استردادك فلم أعد قادرة سوى على سكب الدموع التي تكاد تبلي عيني ووجنتي.. حتى قبولي بالزواج من عمار كان فرارا من نفسي التي أبت إلا أن تعاقبني على فراقك، فلم أجد بدّا من الزواج بأي شخص حتى أهرب من نفسي وأنسى عذاباتي..

يأتيها شقيقها ويقطع عنها بوحها واعترافاتها. يلاحظ بأنها كانت تبكي وأثر دموعها الممسوحة بكفها مازالت ماثلة على خديها. عوض أن تطلب منه نقلها إلى البيت، تدعوه إلى إعادتها إلى القاعة حتى تحضر حفل اختتام المؤتمر. تختار مقعدا في منتصف الجمهور حتى لا يراها لدهم. تتابع محاضرته حول دور الوالدين في تربية الأبناء بعد أن ترك إيمان وإكرام مع إحدى أستاذات المركز. يبدو لها لدهم في المنصة كالقمر في الليلة المظلمة وكأنه من ينير القاعة بكلماته المؤثرة المنسابة كالنهر الرقراق إلى قلبها وقلوب الحاضرين.. لا تعرف لماذا يساورها هذا الإحساس الذي يجعلها تتأثر به كل هذا التأثر. فجأة ودون وعي منها، تقف وتصفق لتكون أول المصفقين إعجابا بأفكاره ثم يتبعها بقية الحضور. أحيانا تجد نفسها تصفق وحيدة دون أن يتبعها الجمهور الذي صار يلاحظ مبالغتها في التصفيق وكأنها تقول لهم بأن لدهم أفضل منها مع أن جميع المحاضرين في المؤتمر يبحث كل منهم عن التميز والفوز بتكريم مشرف.

في مراسم التكريم، تقرر أن تزيح من طريقها هواجس التفكير بالهروب من وجهه. تقترب منه وتتمالك نفسها.

تقول في صوت مسموع أمام الجمهور عبر مكبر الصوت:

- ألف مبروك أستاذ لدهم عن التكريم المستحق.

يلاحظ بأنها تسيطر على نفسها، أو أنها، على الأقل، تتظاهر بذلك. ينظر في عينيها فتحاول أيضا النظر في عينيه، ولكنها تفشل وسرعان ما تخفضهما جانبا. يستمر في صمته قليلا وهو يتأمل كيانها الذي يرتجف أمامه خاصة لما أسرعتا إليه إيمان وإكرام وشرعتا تطوقانه بأيديهما وهما تدعوان لويزة إلى الاقتراب لأخذ صورة تذكارية.

يلتقط مصور المركز صورة تذكارية للمشهد مع بعض صور المؤتمر، ثم يتكلم لدهم:

– ألف مبروك أستاذة لويزة على نيلك هذا التكريم المتميز.

ثم يواصل كلامه عبر مكبر الصوت:

– اسمحوا لي أن أضيف بعض الكلمات.. كانت أشغال المؤتمر رائعة وجميع المداخلات مفيدة بدليل أن القاعة ممتلئة عن آخرها بالجمهور.. إن كانت ثمة جائزة يضيفها المؤتمر باسم الجمهور فاقترح أن تكون للسيدة لويزة التي كانت بكل تواضع أفضل منا جميعا في محاضرتها عندما كانت تتحدث عن التغيير وكيفية أن يرتقي الإنسان بنفسه ويقوم بتحديثها إلى نسخته الجديدة. حقيقة، كما قالت، فكياناتنا الإنسانية أشبه ما تكون بأجهزة اصطناعية،

فعلينا أن نغير قطع غيارها غير الصالحة بأخرى جديدة حتى تستمر في عملها. كذلك نحن ينبغي أن نحدث التغيير في داخلنا، ونغير التالف وغير المفيد من أفكارنا واعتقاداتنا ونظراتنا إلى الحياة والكون بأخرى جديدة ونافعة حتى نستطيع مواصلة الحياة والعيش فيها بسلام وأمان وسعادة.

لم تجد لويزة أي كلمات لتشكر لدهم على ما قاله بشأنها. تود لو ترتمي عليه وتبكي كالطفلة الصغيرة وتستمد من حضنه الدافئ الحب والحنان. لكنها تتمالك وتكتفي بتوجيه ابتسامة نحوه، فتشرق معها أسنانها العاجية الجميلة. تهديه نسخة من قصتها "هذه أنا" مع توقيعها بعد أن وزع مكتب المؤتمر كمية منها على الحاضرين. يطلب منها رئيس المؤتمر أن تتسلم جائزة الجمهور ويثني عليها وسط تصفيقات القاعة، كما يشكر جميع المشاركين الذين تم تكريمهم جميعا بشهادات التقدير منهم لدهم الذي حصل على جائزة التميز.

بعد العودة إلى البيت، تجد لويزة كل من حياة وجلال وجابر في انتظارها. تريها حياة شريط الفيديو الذي سجلته عن حفل التكريم الذي كان ينقل مباشرة على شبكة التواصل. تشاهد لويزة نفسها مع لدهم وبجانبهما إيمان وإكرام. تحاول تقريب أذنيها للاستماع إلى ما يقوله لدهم وهو يثني عليها، ولكن الصوت والصورة لم يكونا

واضحين بسبب تقطع تدفق الانترنيت أثناء التسجيل. تسارع لويزة إلى حقيبتها وتخرج منها قرصا يحمل تسجيلا كاملا بالفيديو عن الحفل تسلمته من الهيئة المنظمة للمؤتمر. تضعه في منفذ الكومبيوتر وتروح تتابع معهم على الشاشة مجريات الحفل. تصل إلى مشهدها مع لدهم وهما يشكران بعضهما وكلمته التي ألقاها وهو يقترح أن تكون جائزة الجمهور من نصيبها. دون شعور منها، تفر منها الكلمات المحبوسة مثلما يفر عصفور من أسر القفص.

– شاهدوا لدهم.. كان رائعا في الحفل ببدلته الزرقاء.. كنت اختار له البدلات الزرقاء والسوداء والقمصان البيضاء ورابطات العنق الحمراء حتى الأحذية البنية والسوداء كنت اختارها له، وكان يعجبه ذوقي واختياري.

تعقب عليها حياة وهي تلاحظ هوسها وشوقها إلى والدها:

– انظري إلى نفسك وأنت بجانب أبي ومعكما إيمان وإكرام.. إنك نسيت أن تحدثينا عن نفسك!

يبتسم جابر ويقول لها ببراءة الطفولة:

– كم أنت جميلة يا أمي مع أبي.. هيا عودي إليه.. لقد افتقدت والدي وبيتنا..

تدفعه بعيدا وترد:

- ابتعد عني.. أنت وقح حقا!

يلتحق بهم جلال قائلا:

- أنا أيضا تابعت على المباشر مداخلتك ومحاضرة أبي خلال المؤتمر.. كنتما رائعين ومحط أنظار الجميع.

تغلق الكومبيوتر وتنظر إلى حياة التي راحت تضحك ثم ترد عليهم بعنف:

- عليك اللعنة! جلال أنت أحمق مثل جابر.. وأنت حياة عما تضحكين؟ كلكم حمقى.. اخرجوا عني..

يتركونها وحيدة في غرفتها ويغادرونها في غمرة ضحكات تصل إلى أسماع الجدة والجد اللذين كانا منشغلين عما يجري في شأن بينهما، لذلك لم يعيرا لهم أي اهتمام فقد اعتادا على سلوكاتهم عندما يمازحون أمهم أو يخاصمونها في شيء ما خاصة عندما يتعلق الأمر بحاجتهم لبعض المال.

بينما هم جلوس، تطلب منهم حياة الاتصال بوالدهم لكي يهنئونه بالتميز في المؤتمر وبجائزة التكريم. حياة منذ انفصال لويزة عن عمار ووفاة لطيفة لم تكف عن تحريض جلال وجابر عن دفع والديهما إلى العودة إلى بعضهما. لذلك، استفزوا لويزة لما شاهدوها أثناء الحفل قرب لدهم، كما استفزوها عدة مرات من قبل بعد وفاة

لطيفة فيما كانت لا تجيب عن استفزازاتهم إلا بانتهارهم وطردهم من مجلسها.

تكلم حياة والدها بينما شقيقاها يلصقان آذانهما على الهاتف حتى لا تفوتهما أي كلمة:

- أبي ألف مبروك على التكريم.. تابعنا مداخلتك الرائعة.. كنت متميزا.. رأيناك إلى جانب والدتي وإيمان وإكرام.. كان المشهد مدهشا.. تمنينا لو كنا معكما.. بصراحة أبي، لو كنا معكما لطلبنا منكما التوجه مباشرة إلى بيتنا المهجوروبرفقتنا إيمان وإكرام فلن ندعهما يذهبان إلى بيت جدتهما.. لقد صارتا شقيقتين لنا..

لدهم يشكر ابنته ولا يعلق بشيء، بل يتظاهر وكأنه لم يسمع شيئا من كلامها، ويطلب منها أن تمرر له جلال.

- تهاني الخالصة أبي.. استمعت إلى جميع المحاضرات وكنت الأفضل.. كنت أحسن من أمي مع أنها حصلت على جائزة الجمهور الذي كان أغلبه من النساء، ربما تحمسن لأفكارها التي كانت أقرب إليهن فصفقن لها كثيرا..

يعقب لدهم:

- شكرا جلال.. أتمنى لك ترقيات متميزة في عملك..

يرد جلال وفي نفسه أن يستفز والده:

- أبي أرجوك وهذه رغبتنا جميعا أن تعيش بيننا إيمان وإكرام، فوالدتي أشفقت عليهما وعليك وذكرت لنا بأنك لا تستطيع أن تبقيهما وحيدتين معك بعد أن صرت وحيدا بعد وفاة لطيفة.

لا يعلق بشيء ويطلب أن يكلم جابر ويقول في نفسه لعله يحدثني عن أشياء أخرى ولا يستفزني مثلهما.

- جابر عزيزي.. كيف حالك؟ افتقدتك كثيرا.. من مدة لم تزرني!

يرد جابر بصراحة وقد حرضته حياة:

- أبي هيا اسكن معنا في بيت جدي.. أو نأتيك ونسكن معك.. أمي قالت لي مرة وهي تبكي من الحزن إنك وحيد في البيت مع إيمان وإكرام.

لا يعقب بشيء. يطلب منهم زيارته في أقرب فرصة ويودعهم. لدهم لم يقطع المكالمة في وجوههم حتى يوقف استفزازاتهم بكلامهم المباشر، فهم أبناؤه مهما استفزوه، فحاجتهم إلى الاجتماع في بيت واحد في حضن والديهم بعد الشتات أمر حيوي وغريزي وإنساني، حتى صغار الحيوان والطير لا يطيب لهم عيش إلا في حضن آبائهم وأمهاتهم.

(5)

إيمان وإكرام يتنقلان طوال أيام الأسبوع بين المركز حيث يعمل لدهم والمدرسة التي يدرسان بها وينامان في بيت جدهما. ينقلهما لدهم بنفسه إلى هناك جيئة وذهابا في سيارة المركز ولا يقضيان معه إلا عطلة نهاية الأسبوع حيث يطوف بهما في بعض المنتزهات السياحية وحدائق الحيوانات، كما يغتنم فرصة تنظيم معارض الكتاب فيأخذهما إلى هناك لكي تختارا ما ترغبان فيه من كتب الأطفال بعد أن صارتا قارئتين نهمتين تحبان المطالعة والرسم. يود لدهم لو كان جميع أبنائه معه الآن وفي مقدمتهم مهجة عينيه وحبيبة قلبه لويزة.

يغلق آخر صفحة من روايتها " هذه أنا". يغمض عينيه ويفكر.. ملامح شخصيتها وبعض تجاربها المريرة التي عاشتها في الحياة منبثة في طيات الرواية وعكستها أقوال و أفعال الشخصيات.. لقد عبرت عن رؤيتها وأبانت بوضوح عن رسالتها في الحياة.. لم تكن للويزة السابقة التي ماتت مع أفكارها رؤية أو رسالة في الحياة. يستعيد إلى ذهنه بعض ما جاء في مداخلتها، ويتذكر مدى دفاعها عن أفكارها عندما وجه إليها عدد من الحضور بعض النقد، ويلاحظ كيف أقنعت منتقديها بإجاباتها المفحمة. يقول في نفسه.. لقد تغيرت

بالكامل حتى لكأنها لويزة أخرى غير تلك التي كان يعرفها. بين لويزة الجديدة ولويزة القديمة التي انفصلت عنه وخلعت نفسها من عمار توجد مسافة سنوات ضوئية من الوعي والثقافة. لم يبق من لويزة البالية سوى قوامها الأخاذّ ومسحة الجمال التي ظلت تشع من وجهها ومن عينيها الواسعتين كجوهرتين لامعتين.

يقتنع بأن لويزة هذه، في نسختها الجديدة، امرأة أخرى مختلفة تماما بأفكار و أقوال و أفعال راقية. تبدو الآن أقوى وأشد ثقة بنفسها و أكثر اقتناعا برسالتها في خدمة الناس وتحسين ظروفهم وتغيير أفكارهم وسلوكاتهم نحو الأحسن من أجل سعادتهم.

يتذكر بأنه عندما وضع نسخة من رواية لويزة "هذه أنا" على مكتبه في المركز اختفت بالمرة، وصار كلما يسأل عنها يجيبه أستاذ أو أستاذة أو عون بأنه رآها عند أحدهم. وقتها- لم يلق القبض على الرواية إلا بعد شهرين عندما وجدها في مكتب مدير المركز والذي ذكر له بأنها لزوجته السابقة وكانت نسختها الوحيدة تنتقل بينهم من هذا إلى ذاك حتى وصلت إلى السكرتيرة، فأخذها منها وقد أنهى البارحة قراءتها وأكد له بأنه تأثر بها كثيرا ولاحظ بأن هذه الرواية تحكي جوانب من قصة حياتها المؤلمة معه ومع غيره والتي عرف عنها كل شيء من لطيفة قبل أن يتزوجها ويخطفها الموت.

يخاطبه المدير:

- تابع جميع أعضاء المركز لويزة في المؤتمر السابق. وقد قرر مجلس الإدارة استضافتها في المركز لإلقاء مداخلة أمام جمهورنا حول المرأة أو تقدم روايتها لما فيها من أفكار قيمة. ونطمح إذا شاءت أن توقع معنا عقد عمل دائم، ولكن ذلك قد يتعذر عليها بسبب بعد المسافة بين مدينتنا ومدينتها.

بعد أيام، تلبي لويزة دعوة مدير المركز. لا ترفض الدعوة بسبب الحرج المحتمل من وجود زوجها السابق في المركز؛ فقد صارت من القوة والثقة بحيث تعتبره فردا من الجمهور في حالة حضوره عند إلقاء مداخلتها حول روايتها واحتمال تناولها لتجربتها الحياتية وكيف تمثلها شخوص روايتها. لا يهمها لو يتجرأ لدهم ويتدخل موافقا أو معترضا بانتقاداته حينما يشعر بأنه على نحو ما يمثل أحد شخوص الرواية. تطمئن نفسها بأنه مهما كان الأمر، فإنها تبقى قصة أدبية فيها من الخيال وفيها من الواقع ولا أحد يمكنه الادّعاء بأنه المقصود بعينه أثناء سرد أحداثها.

تأبى حياة وجلال وجابر إلا أن يصطحبوا أمهم ويغتنموا الفرصة لرؤية والدهم مادام نشاطها سيتم في المركز الذي يعمل فيه.

تحاول ثنيهم عن طلبهم ولكنهم يرفضون. يخبرون لدهم بأنهم سير افقون أمهم وسيلتقون به في المركز.

في بداية الأسبوع، يستقبل مدير المركز لويزة وبرفقته لدهم وبعض الأساتذة والأعوان وهم في صف استقبال طويل. بعد دقائق قليلة، ينفرط عقد الصف ويتوزع الجميع مثنى وثلاث ورباع في أرجاء المركز. تجد لويزة نفسها تطوف في مر افق المركز رفقة المدير ولدهم بمعية حياة وجلال وجابر و إيمان و إكرام. مرة على مرة، عندما يتقدم المدير إلى الأمام أو يتراجع إلى الخلف بخطوات، يجد لدهم نفسه وجها لوجه أو جنبا إلى جنب مع لويزة، فتلتقي عيونهما وتتبادلان لغة لها وميض البرق ولا وجود لها في معجم كلمات البشر. تنتقل إليهما من جسديهما حرارة دافئة، فيستشعران على الفور وكأن شرارة كهربائية خفيفة سرت في أوصالهما.

في هذه اليوم، يفضل المدير متعمدا أن يتنحى جانبا مع بعض الأساتذة والأعوان ويطلب من الجميع أن يخلوا المقاعد التي تتوسط الصف الأمامي وأن تحجز إلى لدهم و أبنائه. تلقي لويزة مداخلتها أمام جمهور عريض يملأ القاعة عن آخرها. من حين إلى حين توجه نظرها ناحية لدهم الذي يتوسط خماسيتهم في صف واحد، إيمان و إكرام على يمينه وجابروجلال وحياة على شماله.

لويزة التي تجيد فن الإلقاء، تقوم بتوزيع بصرها في كل أرجاء القاعة حتى تعطي كل الحضور حقهم في المعاملة العادلة. عندما تتنقل بعينيها بين الصفوف، يتقاطع نظرها في الصف الأمامي مع فارسها الأدهم وعلى جانبيه فلذات أكباد تتطلع إلى عدم الافتراق. من حين لآخر، تملأ التصفيقات القاعة، فتتحول لديهما إلى سمفونية موسيقية على خلفيتها يتبادلان النظرات والابتسامات. يشعران بتدفق الحياة فيهما مجددا، كلاهما في نسخته الأخرى؛ لويزة الجديدة التي دفنت للأبد لويزة السابقة بنسختها القديمة ولدهم بنسخته الجديدة المؤمن بأنه ليس للحب إلا نسخة وحيدة لم يمنحها إلا إلى لويزة مثلما منحت لطيفة نسخة حيها إلى زوجها الراحل ودفنتها معه.

(انتهت)

طلاق عاطفي

تفكر في ماضيها معه.. كنت قبل سنوات أقبل عنفه ووحشيته عندما ينقض عليّ كفريسة مطواعة جاهزة للافتراس.. كان ذلك العنف يحدث في غمرة من العواطف الجياشة.. أما اليوم فقد تحولت إلى قطعة من الثلج، تجمدت عواطفي نحوه، ولم أعد أطيق عنفه ولا ودّه، بل صرت أشعر به يؤلمني حتى عندما يلمس يدي أو يقبّل خدي مسلما في مناسبة فرح عائلي أو عيد من الأعياد أو عودة من سفر.

الدكتور خليفة قعيد، مولود بتاريخ 28-09-1961 بالرقيبة ولاية الوادي، الجزائر، أستاذ السرد العربي بجامعة الوادي، كاتب وإعلامي يمارس مهنة الصحافة منذ 30 سنة. بدأ العمل الإبداعي منذ الثمانينات بنشر قصصه القصيرة في صحف ومجلات جزائرية منها "النصر" و"الشعب" و"الجمهورية" و"الأثير".

صدر للمؤلف:

- رواية "طلاق عاطفي" 2024
- "الخطاب الإعلامي المكتوب -الدرس والتطبيق-" 2024
- "توظيف الثقافة الشعبية في التنمية المستدامة" 2022
- "وخز الإبر وكلام في الصحافة" 2013
- "المطالعة العصرية" 2012
- رواية "فجر الغيطان" 2011

ISBN: 978-9969-567-01-4

9 789969 567014

هيبورجيوس
للنشر والتوزيع

cover by# reg_zaKaria